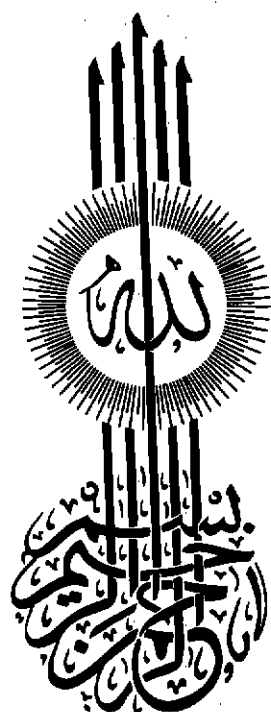


اين نحن من هؤلاء؟!

المجلد الأول

عبد الرحمن القاسم

دار القاسم





مقدمة المجموع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد يسر الله - عز وجل - إخراج سلسلة متتالية من مجموعة «أين نحن من هؤلاء؟!» تعني بعبادة السلف وذكر زهدهم في الدنيا، ومسارعتهم إلى الدار الآخرة، ومن فضل الله ومنته أن انتشرت وطبعت مراراً. ورغب بعض الإخوة جمعها في مجلدات لسهولة الوصول إليها مع حفظها وبقائها.

وها هي بين يدي القاريء عقد متكامل من اثنين وعشرين عنواناً أبقيتها كما هي إلا من بعض التعديلات البسيطة والإضافات العارضة.

أسأل الله - عز وجل - أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



لحظات ساكنة

المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاهُتٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فلقد كان للجانب المادي الذي سيطر على حياة الناس دورٌ كبير في بُعدهم عن التفكير في مآلهم ومصيرهم، وتبعاً لذلك ضعفت الهمم، وخارت العزائم، وكثر البعد عن الله - جلّ وعلا -.

وقد يسر الله لي الاطلاع على بعض أخبار الزُّهد وأحاديث الرقائق التي جمعها علماء الأمة في مجلدات ضخمة، بعضها في كتب مستقلة والكثير منشور في كتب السير والتراجم وغيرها، وصُعِبَ الانتفاع بها لضخامة تلك المجلدات وبعدها عن متناول الناس، كما أن بعضها اشتمل على بعض المبالغات والغلو في المخلوقين، وكذلك ما كان فيها من شطحات وخرافات الصوفية وغيرهم. وقد عمدت إلى جمع هذه المجموعات من بطون الكتب، وأرجعتها إلى مصادرها، رغبةً في توثيقها، ومساعدةً لمن أراد الاستزادة.

واخترت لهذه السلسلة - التي تتجاوز العشرين مجموعة^(١) - عنواناً مأخوذاً من قول للإمام أحمد عندما ذكر عنده أخلاق الورعين فقال: (أسأل الله أن لا يمقتنا)، أين نحن من هؤلاء؟^(٢).

(١) متنوعة: المواضيع - في العبادات والمعاملات والآداب، والأولى منها بين يديك.

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/٢٢٦).

واقترنت على أخبار السلف - من غير الروايات المشهورة - وإلا
فهناك الكثير منها، وما أنا وإياهم إلا كما قال الإمام الشافعي:
أحبُّ الصَّالحين ولست منهم
لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي
ولو كنَّا سواءً في البضاعة
ولا تستغرب أخي القارئ مما في هذه المجموعات من زهد
السلف وصلاحتهم، وما وقع لهم من النشاط في العبادة؛ حيث إنهم
بلغوا منزلةً كبيرةً في الخوف من الله والرُّهد والتَّقوى، ومن ثم ضعفنا
في هذا الزمن ضعفاً كبيراً، فأصبحنا نستغرب هذا ونستكثره.
وفي الجملة فإن خير الهدى هدي محمدٍ ﷺ، وما خالف هديه يُردُّ
على صاحبه.
وهذا الكتاب فيه تنشيطٌ للعبادة، وتذكيرٌ بالآخرة، وتعريفٌ
بالصَّالحين. جعله الله خالصاً لوجهه الكريم.

عبدالمالك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

abdalmalik@dar-alqassem.com

الوقفة الأولى:

الموت

قيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنع؟ نُجالس أقواماً يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله، إنَّك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمنٌ، خيرٌ من أن تصحب أقواماً يؤمّنونك حتى يدركك الخوف.

الموت

إن الموت حقيقة قاسية رهيبة، تواجه كل حيٍّ، فلا يملك لها رداً، ولا يستطيع لها أحدٌ ممن حوله دفعاً، وهي تتكرر في كل لحظةٍ، وتتعاقب على مرَّ الأزمنة، يواجهها الجميع صغارا وكبارا، أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، ومرضى وأصحاء، قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

نهاية الحياة واحدة، فالجميع يموت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] إلا أنَّ المصير بعد ذلك مختلفٌ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقد خلق الله الموت والحياة لشأن عظيم وأمر جسيم، فقال - تعالى -: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. وقد وصف سبحانه - وتعالى - شدة الموت في أربع آيات: الأولى: قوله الحق: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]. الثانية: قوله الحق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُومَاتِ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

الثالثة: قوله - تعالى -: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ أَتْرَافَ﴾ [القيامة: ٢٦] (١).

ولِعَظُم ما نحن مقدمون عليه وصائرون إليه قال رسول الله ﷺ:

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٢٠.

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»^(١).

ففي الموت عِظَةٌ وتذكير، وتنبيه وتحذير، وكفى به - والله - من نذير؛ قال ﷺ: «كفى بالموت واعظاً»^(٢).

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة، فإن الموت هو الخطبُ الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وإنَّه الحادث الأهدم للذات، والأقطع للراحات، والأجلب للكريهات، فإن أمراً يُقَطَّعُ أوصالك، ويُفَرِّقُ أعضائك، ويهدم أركانك، لهو الأمر العظيم والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم^(٣).

ولكننا نسيناه أو تناسيناه، وكرهنا ذكره ولُقيناه، مع يقيننا أنه لا محالة واقع وحاصل، ولا مفر منه ولا حائل، والعجبُ من عاقل يرى استيلاء الموت على أقرانه وجيرانه، كيف يطيب عيشه؟ خصوصاً إذا علت سُنُّه، واعجباً لمن يرى الأفاعي تدبُّ إليه وهو لا يتزعج، أما يرى الشيخ دبيب الموت في أعضائه، قد أخرج سكين القوى، وأنزل متغشرم الضعف، وقَلَبَ السَّوَادَ بياضاً، ثم في كل يوم يزيد النقص^(٤).

وهذا النقص يزداد حتى يعبر نقطة الموت التي لا بد من المرور عليها حتى يصل إلى الدار الآخرة.

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الطبراني وابن عساكر في تعزية المسلم.

(٣) التذكرة، ص ٢٨.

(٤) صيد الخاطر، ص ٥٣٣.

قال ابن مسعود: «ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله»^(١).
ولا يتم لقاء الله إلا بعد الموت وتجرع غصصه وآلامه، ولكننا
غفلنا عنه؛ لأن المنهمك في الدنيا، والمكب على غرورها، المحب
لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت، فلا يذكره، وإذا ذكر
به كرهه، ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ
الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَظِمُ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢) [الجمعة: ٨].

وأين ذهبت فهو ملائكتك، ومهما ابتعدت فهو مناديك. ولكن:
استعدي يا نفس للموت واسعي
لنجاة فالحازم المستعد
قد تيسر أنه ليس للحَيِّ
خلود ولا من الموت بُعد^(٣)

أخي الحبيب:

أعجب العجائب، سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك، عما قد
خبيء لك.
تغتر بضحكتك، وتنسى دُئو السقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن
قرب الألم.
لقد أراك مصرع غيرك مصرعك، وأبدى مضجع سواك - قبل
الممات - مضجعك.

(١) شرح الصدور، ص ٤.

(٢) الإحياء (٤/٤٧٧).

(٣) البداية والنهاية (١٣/١٠٦).

وقد شغلك نيلُ لذاتك، عن ذكرِ خرابِ ذاتك :
 كأنك لم تسمع بأخبارِ مَنْ مَضَى
 ولم تر في الباقيين ما يصنع الدَّهْرُ!
 فإن كنت لا تَدْرِي فتلِك ديارُهم
 محاهما مَجَالُ الرِّيحِ بَعْدَكَ والقَبْرِ^(١)
 نسمع ذكر الموت وننسى، ونرى العبرَ تترى، ولا أحد منا يخشى
 إلا من رحم ربِّي .

وهناك من لم تُلهه الدُّنيا، ويغترُّه طول الأمل، فاستعد بترك
 الدُّنوب، وتجهَّز بالعمل الصَّالح كالقعقاع بن حكيم الذي قال: «قد
 استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتانِي ما أحببتُ تأخير شيءٍ
 عن شيءٍ»^(٢).

ونحن دهانا مجرد ذكر الموت والحديث فيه، بل الكثير يغضب إذا
 ذكر الموت، ويرى أنه لا داعي لتكدير حياة الناس، وإفساد مجالسهم
 بذكر الموت وعبره .

وقد قيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنع؟ نُجالس أقواماً
 يخوِّفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً
 يخوِّفونك حتى يدركك أمنٌ، خيرٌ من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك
 حتى يدركك الخوف^(٣).

(١) صيد الخاطر ص ٢٦ .

(٢) الإحياء (٤/ ٤٨٤) .

(٣) الإحياء (٤/ ١٧٠) .

وإذا لم تتذكر هذا اليوم، وتستعد له، فاجأك في غدك وأنت في غفلة من أمرك. واعتبر بمن استعدَّ ورحل.

قال الحسن: «كان من كان قبلكم يقربون هذا الأمر، كان أحدهم يأخذ ماءً لوضوئه ثمَّ يتنحى لحاجته؛ مخافة أن يأتيه أمر الله وهو على غير طهارة، فإذا فرغ توضأ»^(١).

قد قلتُ: إذا مدحوا الحياة فأكثروا
في الموتِ ألفُ فضيلةٍ لا تُعرف^(٢)

قال الربيع بن بزة: «عجبت للخلائق كيف ذهلوا عن أمر حقٍّ، تراه عيونهم، تشهد عليه معاهد قلوبهم إيماناً وتصديقاً بما جاء به المرسلون، ثمَّ هاهم في غفلة عنه سكارى يلعبون!».

ثمَّ يقول: وإيم الله، ما تلك الغفلة إلا رحمة من الله لهم ونعمة من الله عليهم، ولولا ذلك لألّفي المؤمنون طائشة عقولهم، طائرة أفئدتهم، منخلعة قلوبهم، لا ينتفعون مع ذكر الموت بعيش أبداً^(٣). وهو كما قال القائل:

سبيلُ الخلقِ كلُّهم الفناء
فما أحدٌ يدوم له البقاء
يقربنا الصُّباحُ إلى المنايا
ويدنيننا إليهن المساءُ

(١) الزهد لابن المبارك، ص ٩٩.

(٢) العزلة، ص ٨١.

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٣٥٣).

فلا تتركب هواك وكن مُعَدًّا
 فليس مقدراً لك ما تشاء
 تراه أخضر العيدان غَضًّا
 فيصبح وهو مسود غشَاء
 أأمل أن تعيش وأبني عُصْن
 على الأيام طال له النَّمَاء^(١)

نعم - والله - حتى ملك الموت، الموكل بقبض الأرواح، سيموت،
 قال - تعالى -: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾
 [الرحمن: ٢٦، ٢٧] ولكن أين الاتعاض والتذكُّر لهذا اليوم، مثل تذكُّر
 السلف الصالح واتعاضهم وتفكرهم في مآلهم؟

فقد قال الحكيم بن نوح لبعض إخوانه: أتكا مالك بن دينار ليلة
 من أول الليل إلى آخره لم يسجد فيها ولم يركع فيها، ونحن معه في
 البحر، فلما أصبحنا قلت له: يا مالك، لقد طالت ليلتك لا مصلياً
 ولا داعياً، قال: فبكي، ثم قال: لو يعلم الخلائق ماذا يستقبلون غداً
 ما لدُّوا بعيش أبداً، إني - والله - لَمَّا رَأَيْتُ الليل وهو له وشدة سواده،
 ذكرت به الموقف وشدة الأمر هناك، وكل أمري يومئذ تهمة نفسه،
 لا يغني والد عن ولد ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً، ثم شهق
 شهقة فلم يزل يضرب ما شاء الله، ثم هدأ، فحمل علي أصحابنا في
 المركب، وقالوا: أنت تعلم أنه لا يحمل الذكر فلم تهيجه؟ قال:

فكنت بعد ذلك لا أكاد أذكر له شيئاً^(١).

وما خاف مؤمنٌ اليوم إلا أَمِنَ غداً بحُسن اتِّعاضه وصلاح عمله،
فإنَّنا في دارِ أفسح الله لنا فيها بالتَّعم التي يسبغها علينا صباحٌ مساءً،
ونحن نُضِيع أعمارنا في غير ما خُلِقنا له، ثمَّ إذا فاجأنا الموت صرخ
البعض: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩].

لماذا ترجع وتعود؟

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وأين أنت عن هذا
اليوم؟ ألا تعلم وأنت في سعةٍ من أمرِك وصحَّةٍ في بدنك؟ لم يدنُ
منك ملك الموت بعد؟

فإنَّ الله - تعالى - جعل الموت محتوماً على جميع العباد، فهو نهاية
المرء وغاية الاقتصاد من دار الاعتداد، قضى فأسقم الصَّحيح، وعافى
السَّقِيم، وقسَّم عباده قسمين: طائع وأثيم، وجعل مآلهم إلى دارين:
دار التَّعيم ودار الجحيم، فلا مفرّاً لأحدٍ من الموت ولا أمان؛
لقوله - تعالى -: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

فسوى فيه بين الحرِّ والعبد، والصَّغير والكبير، والغنيِّ والفقير،
وكلُّ ذلك بتقدير العليم الخبير: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرَةٍ إِلَّا
فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سَيَرٌ﴾ [فاطر: ١١]. فالكيِّس من دان نفسه،
وعمل لما بعد الموت، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الفوت،

(١) جنة الرضا (٩٨/١).

والمسلم من استسلم للقضاء والقدر، والمؤمن من تيقن بصبره الثواب على المصائب والضّرر^(١).

تذكّر يوم تأتي الله فرداً
وقد نُصبت موازين القضاء
وهتكت الشُّتور عن المعاصي

وجاء الذَّنْبُ فأنكشف الغطاء^(٢)
قال بعضهم: «عجباً لِمَنْ يعرف أنَّ الموت حقٌّ، كيف يفرح؟
وعجباً لِمَنْ يعرف أنَّ النار حقٌّ، كيف يضحك؟ وعجباً لِمَنْ رأى
تقلُّب الدنيا بأهلها، كيف يطمئن إليها؟ وعجباً لمن يعلم أنَّ القدر
حقٌّ، كيف ينصب؟»^(٣).

نرى باب الموت مفتوحاً والقبور تزيد. هاهو كل يوم يطرقنا وفي كل
لحظة يُنذرنا. ولكن هل سألنا أنفسنا ما هي دارنا الثانية ونحن نعلم أن:
الموتُ بابٌ وكلُّ النَّاسِ داخله
باليَت شعري بعد الموت ما الدَّارُ
الدَّارُ جنَّةٌ خلدٍ إن عملت بما

يُرضي الإله وإن قصَّرت فالنَّارُ^(٤)
فإن أنت تذكَّرت وانخلع قلبك فإنَّه إلى صلاح وفلاح كما قال
الدَّقَاق: «مَنْ أَكْثَرَ من ذكر الموت أَكْرَمَ بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة،

(١) صيد الخاطر، ص ٨.

(٢) التذكرة، ص ٣٦٥.

(٣) مكاشفة القلوب، ص ١٥٧.

(٤) ديوان أبي العتاهية، ص ٨٦٨.

وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عُوقِبَ بثلاثة أشياء: تسويف التَّوْبَةِ، وترك الرِّضَا بالكفاف، والتكاسل في العبادة».

وهذا ما نراه في واقع حياتنا، فلا نذكر الموت إلا عند حدوث الفاجعة ونزول النَّازِلَةِ، بل إنَّه إذا ذُكِرَ أَنَّ فلاناً قد مات استرجعنا الذَّاكِرَةَ، وكأن الموت طريق فلانٍ وحده، ولذلك نحزن عليه، ولا نرى ما سيحلُّ بنا غداً أو بعد غدٍ.

فإنَّ مَنْ تفكَّرَ من عواقب الدُّنْيَا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطَّرِيق تَأَهَّبَ للسَّفَرِ.

إني أرقُتُ وذِكْرُ الموتِ أَرَقَّنِي
فقلت للدمع أسعدني فأسعدني
إن لم أبكِ لنفسي مُشْعِراً حزيناً
قبل المماتِ ولم أرق لها فمن
يا من يموت ولم تحزنه ميتته
ومَنْ يموت فما أولاه بالـحزنِ
إنِّي لأرقع أثوابي ويخلقها
جذب الزَّمان لها بالوهنِ والعفنِ
لِمَنْ أُمِرُ أموالِي وأجمعُها
لِمَنْ أروح لِمَنْ أغدو لِمَنْ لِمَنْ
لِمَنْ سيوقع بي لحدي ويتركني
تحت الثَّرى تَرَبُّ الخدين والذَّقْنِ^(١)

(١) محاسبة النفس، ص ٨٧، والمدحش، ص ١٨٣.

أيها الحبيب:

جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقره، والقيامة مواعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى، ويراهها في أهل القبور، فإن كل ما هو آتٍ قريب، والبعيد ما ليس بآتٍ، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له، والنظر في المنبهات عليه^(١). وهاك أخى الحبيب^(٢) وصية يحيى بن معاذ: «لا تكن ممّن يفضحه يوم موته ميراثه ويوم حشره ميزانه»^(٣).

ومن هذا الخوف العظيم والوجل المستمر كان محمد بن النضر إذا ذكر الموت اضطربت مفاصله حتى تبين الرعدة منها.
ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً
والقوم حولك يضحكون سروراً
فاعمل ليوم أن تكون إذا بكوا
في يوم موتك ضاحكاً سروراً^(٤)
فابك على نفسك قبل أن يبكى عليك، واحمل نفسك على الطاعة

(١) الإحياء (٤/٤٧٥).

(٢) حلية الأولياء (١٠/٦٣).

(٣) التذكرة للقرطبي، ص ١٠٢.

(٤) صيد الخاطر، ص ٢٠٣.

قبل أن تُحمل على الرّقاب، وحاسب نفسك قبل أن تُحاسب.
لحظات قليلة تحاسب نفسك فيها خيرٌ من أيام ضائعة تؤخذ بما فيها.
قال عبدالله بن مشيط: «سمعت أبي يقول: أيُّها المغترُّ بطول صحَّته، أما رأيت ميتاً قط من غير سقم؟ أيُّها المغترُّ بطول المهلة، أما رأيت مأخوذاً قط غرة؟ أبالصِّحَّة تغترُّون؟ أم بطول الأمل تأمنون؟ أم على الموت تجترُّون؟»

إنَّ ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك، أما علمت أنَّ ساعة الموت ذات كربٍ شديدٍ وغصصٍ وندامةٍ على التفریط؟ ثم يقول: رحم الله عبداً عمل لساعة الموت.
ومن أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنَّه ينتبه انتبهاً لا يوصف، ويقلق قلقاً لا يُحدِّد، ويتلهَّف على زمانه الماضي، ويودُّ لو تُرك؛ كي يتدارك ما فات، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه بالأسف.

هو الموت ما منه ملاذٌ ومهربٌ

منى حُطَّ ذا عن نعشه ذاك يركبُ

نؤمِّل آمالاً ونرجو نتاجها

وعلى الرّدى ممّا نرجيه أقربُ

وما نراه في المقابر أعظم عظة وأكبر معتبر، فحاملُ الجنازة اليوم محمولٌ غداً، ومن يرجع من المقبرة إلى بيته اليوم سيُرجعُ عنه غداً، ويترك وحيداً فريداً، مُرتھناً بعمله، فإن خيراً فخير، وإن شراً فشر.
ولكن ما أقلُّ من اتَّعظ! وما أندر من اجتهد!

قال ثابت البناني: «طوبى لمن ذكر ساعة الموت، وما أكثر عبداً

ذكر الموت إلا روي ذلك في عمله»^(١).

فإنَّ مَنْ أيقن بالموت غداً عمل يومه كله في طاعة الله - عزَّ وجلَّ - ،
وهكذا يوماً بعد يوم حتى يأتيه اليقين مصداقاً لقوله :

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

عن أنس - رضي الله عنه - قال : خطَّ النَّبِيُّ ﷺ خطوطاً فقال : «هذا
الإنسان، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاء الخط الأقرب» [رواه
البخاري].

فذكرُ الموت، وإنْ كدَّر عليك أيامك وبعثر أحلامك، إلا أنَّه
يوقفك على حقيقة لا مفرَّ منها.

وأذكر الموت تجدد راحة

في أذكار الموت تقصير الأمل^(٢)

فإنَّ مَنْ قَصُرَ أمله، وجعل الموت أمام ناظره عَمِلَ لِلآخرة،
واستفاد من كلِّ لحظة من لحظات عمرة في طاعة الله، وتحسَّر على
كلِّ وقتٍ أضاعه بدون عمل صالح يقربه إلى الله زلفى، وهو لما قدَّم
فرحٌ مسروراً بالانتقال إلى الدَّار الآخرة.

ولذلك قال خالد بن معدان : «ما أحبُّ أنَّ دابةً في برٍّ ولا بحرٍ
تفديني من الموت، ولو كان الموت غايةً يُسبق إليها، ما سبقني أحد
إلا سابقٌ يسبقني إليها بفضل قوته»^(٣).

(١) حلية الأولياء (٢/٣٢٦).

(٢) التذكرة للقرطبي، ص ١٠.

(٣) حلية الأولياء (٥/٢١٠).

وهذا كله طمعٌ في جنّة عرضها السّماوات والأرض، ورغبةٌ في لقاء الله - عزّ وجلّ - وفرحٌ بما قدم من الأعمال الصالحة التي ينتظره جزاؤها وتوابها مع رحمة الله .

وعلى الرّغم من الحرص على لقاء الله - جلّ وعلاً - والفرح بما عنده للمؤمنين الموحدين، فقد قال الحسن: «لا تخرج نفس ابن آدم من الدّنيا إلا بحسراتٍ ثلاث: أنّه لم يشيع، ولم يدرك ما أمّل، ولم يحسن الزّاد لما قدم عليه»^(١).

وما المرء إلا راكبٍ ظهرٍ عمره
على سفرٍ يفنيه باليوم والشهرِ
يبیت ويضحى كلَّ يومٍ وليلةٍ

بعيداً عن الدّنيا قريباً إلى القبر
والقبر هو المنزل الثّاني بعد منازل الدّنيا، فكيف بنا أهملنا بنيانه، وقوّضنا أركانه؟ وليس بيننا وبين الانتقال إليه إلا أنْ يقال: مات فلان. فكم نحمل كل يوم إلى تلك المنازل من الأحباب والأصحاب، وكأنّ هذا الموت لا يطرق إلا أبوابهم، ولا يقضّ إلا مضاجعهم، أمّا نحن فلا!!

قال الحسن - رحمه الله - : «ما رأيت يقيناً أشبه بالشكّ من يقين النَّاس بالموت، مع غفلتهم عنه، وما رأيت صدقاً أشبه بالكذب من قولهم: إنّنا نطلب الجنّة، مع عجزهم عنها وتفريطهم في طلبها»^(٢).

(١) مكاشفة القلوب ١٥٨ .

(٢) العاقبة، ص ٩٥ .

نسیر إلى الآجال في كل لحظة
وأيا منّا تطوى وهُنَّ مراحِلُ
ولم أر مثل الموت حقّاً كأنّه
إذا ما تخطته الأمانی باطلُ
وما أقبح التّفريط في زمن الصّبا
فكيف به والشيب للرأس شاعِلُ؟
ترحل من الدُّنيا بزادٍ من التّقى
فعمرك أيامٌ وهن قلائِلُ^(١)

فانظر إلى هذه الطّريق الحرجة، والمسلك الشّاق، والقنطرة
المضطربة، والعقبة الكؤود، الّتي لا تثبت عليها الأقدام، ولا تجوزها
الأوهام، ولا يثبت عليها إلا من ثبّته الله بالقول الثّابت، وثبّت قدماءه
يوم تزلّ الأقدام^(٢).

قال عمار بن ياسر: «كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى،
وكفى بالعبادة شغلاً»^(٣).

فلمن تذكّر الموت، وخاف الفوت، كفته العبادة شغلاً؛ استعداداً
لطارقٍ يطرق على غفلة، ويفجع على فرح، لا يعرف الأمير من
الوضيع، ولا يفرق بين الكبير والرّضيع، بل كلّهم سواء، فمن حانت
منيته فهو صاحبه، ومن قرّب أجله فهو بغيته.

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٤٦٤.

(٢) تسلية أهل المصائب، ص ٢٣٣.

(٣) جامع العلوم والحكم، ص ٣٥٣، والزهد، ص ٢٥٧.

ليت شعري فإنني لست أدري
أي يوم يكون آخر عمري
وبأي البلاد تُقبض رُوحِي
وبأي البلاد يُحفر قبري^(١)

ما أطولها من غفلة! نحن في ليلها نائمون. وفي نهارها سارحون،
كما قال إبراهيم بن أدهم: «قد حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن
يكشف العبد اليقين حتى ترفع هذه الحُجب: الفرح بالموجود،
والحزن على المفقود، والشُرور بالمدح؛ فإذا فرحت بالموجود فأنت
حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والسّاخط معذب،
وإذا سررت بالمدح فأنت معجب، والمعجب يحبط عمله^(٢)».

وتذكر الموت يغرس في المؤمن شجرة الإخلاص، وثمرتها
العمل، فالأيام تُطوى، والمراحل تُقضى، فمن جعل هذا حاديه شمر
وفزع، وجعل مطيته تسير به إلى جنة عرضها السماوات والأرض.
قال صلة بن اشيم لمعاذة: «ليكن شعارك الموت؛ فإنك لا تبالين
على يسير أصبحت من الدنيا أم على عسر».

فإن من تذكر الموت هانت عنده الدُّنيا ومصائبها، وزهد في
أموالها وزهبا، وفرشها وسررها؛ لأنه علم أن ما عند الله خير
وأبقى، ولهذا فهو عالي الهمة، قوي العزيمة، لا تقدم عنده الدنيا
شيئاً ولا تؤخر إلا ما كان منها في عملٍ صالح موافق لما جاء به ﷺ

(١) ديوان أبي العتاهية، ص ١٧٢.

(٢) الإحياء (٢٣٦/٤).

بعيداً عن الرِّياء والسُّمعة. ولماذا يراثي ويفتخر وهناك من ينتظره؟
قال الحارث بن إدريس: «قلت لداود الطائي: أوصني، فقال:
عسَّكَر الموت ينتظرونك»^(١).

فالمرء منذ أن يخرج من بطن أمه وملك الموت ينتظر أجله متى
يحين؛ حتى يقبض روحه، ولذلك قال عون بن عبدالله: «ما أنزل
الموت منزله من عدٍّ غداً من أجله، فكم من مستقبل يوماً لا
يستكمل، وكم من مؤمِّل لغدٍ لا يُدركه. إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره
لبغضتم الأمل وغروره»^(٢).

وهذا الأمل هو سبب التَّهاون والتَّكاسل، فكم من مؤمِّل غداً لتوبته
مات قبل أن يتوب، وكم من قائل بعد كذا سأتوب، جاءه الموت قبل
ذلك.

قال أبو الدرداء: «من أكثر من ذكر الموت قلَّ فرحه، وقلَّ حسده»^(٣).
لأن من ذكر تلك النهايات وجعلها بين عينيه، فعَلَّامٌ يفرح؟! ولماذا
يحسد؟! وهو يذكر تلك الأهوال والانقطاع من الدنيا، وهو في حالٍ كما
وصفها بعضهم بقوله: «أنا كرجلٍ مادُّ عنقه، والسيِّف عليه ينتظر متى
يضرب عنقه»^(٤).

وهذا السيِّف ليس بخافٍ علينا، فإننا نراه كل يوم يهوي على حبيب
وقريب وصاحب، ليقطع اتصاله بالدنيا ويبعده عن أحبَّته ورفقته. ونحن

(١) صفة الصفوة (١٤١/٣).

(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٤٦٥، وصفة الصفوة (١٠٣/٣)، وشرح الصدور ص ٢١.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣٥٣/٢).

(٤) الإحياء (٤٨٣/٤).

أمهل الله لنا في العمر، ولكن الإمهال إلى أجلٍ معلوم، لا يستقدم ساعة ولا يستأخر.

كَأَنَّ الْمَنَایَا قَدْ قَصَدْنَ إِلَیْكَ
يُردنك فانظر مالهـن لـديكـا
سیأتیک یومٌ لست فیـه بمكرم
بأكـثر من حثو التراب علیـك^(١)
فأنت یا أخـي الکریم فی سفرٍ منذ بزوغ فجر دنیاك ولكن:
وما تـدری وإن أجمعت أمراً

بأی الأرض یـدرکـك المقیـلُ
فهل تجهّزت لهذا المقیل؟ واستعددت لهذا الرّحیل؟ فهو - والله -
خطبٌ جلیلٌ، وأمرٌ مهیلٌ، وقد قال عمر بن عبد العزیز: «من قَرَب الموت
من قلبه استكثر ما فی یدیه»^(٢).

وذلك من الأعمال الصّالحة؛ استعداداً لدارٍ ترحل إليها وحيداً، لا
مال ولا جاه ولا منصب، ولا أحباب هناك ولا أصحاب، وحيداً في
قبرك، حتى أقرب الناس إليك لا يؤنس وحشتك.

كان بلال بن سعد يقول في وعظه: «يا أهل الخلود ويا أهل البقاء..
إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنما خُلِقْتُم للخلود والأبد، وإنكم تنقلون من
دارٍ إلى دار»^(٣).

(١) ديوان أبي العتاهية، ص ٣٠١.

(٢) شرح الصدور، ص ٢١.

(٣) شرح الصدور، ص ٢١.

ولهذه النقلة من الآلام والشدائد ما الله به عليم، كما قال أنس بن مالك: «لم يلقَ ابن آدم شدة قط منذ خلقه الله أشدَّ عليه من الموت»^(١).
ومن هذه الأهوال نفكر في الهروب ونطرق جميع الدروب، ولكن:

فَهُنَّ الْمَنَائِبَا أَي وَاذِ حَلَلْتَهُ

عليها القـدوم أو عليك ستقدم

أخي الحبيب:

لا تغرَّك الصِّحَّة والقوة والعافية، ولا يغرِّك الشَّباب وكلام الأصحاب.

لا يغرِّك عِشاء ساكن

قد يوافي بالمنيات السَّحر^(٢)

قد يأخذك على حين غفلة من أمرك، وأنت لا ترى الموت يصل إليك قريباً، بل تراه بعيداً وبعيداً جداً. فلا يغلب على تفكيرك حصوله حتى تصيبك سهامه، وتؤلِّمك سكراته.

قال أبو الدرداء: «أحبُّ الفقر؛ تواضعاً لرَّبِّي، وأحبُّ الموت؛ اشتياقاً لرَّبِّي، وأحبُّ المرض؛ تكفيراً لخطيئتي»^(٣).

ونحن نرى الغبطة في كثرة الدنيا وزينتها. أما سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم - فلنرَّ على ماذا كانوا يغبطون؟

(١) شرح الصدور، ص ٣٤.

(٢) تاريخ عمر، ص ٢٠٨.

(٣) شرح الصدور، ص ١٥.

قال مسروق: «ما غبطت شيئاً بشيء كمؤمن في لحده، قد أمن من عذاب الله، واستراح من أذى الدنيا»^(١).

فإننا - والله - في دار فتنة وابتلاء، وليس لنا إلا أن نلهج بالدعاء إلى الله بأن يقينا الفتن، مظهر منها وما بطن، وبالثبات على دينه، والعمل على طاعته؛ فإنها سنوات معدودة..

فمن أمدَّ الله في عمره وتخطَّاه الموت في سني الصِّبا والشَّباب، فسيأتيه الشَّيب نذير الموت.

تقول النَّفْس غَيْرَ لَوْنِ هَذَا

عَسَاكَ تَطْيِبُ فِي عَمْرٍِ يَسِيرٍ

فقلت لها المشيب نذير عمري

ولست مُسَوِّداً وَجْهَ النَّذِيرِ^(٢)

فإنَّ هذا الشَّيب شهادةٌ له.

وهذا البياض الذي نهابه ونخافه قال عنه ﷺ: «من شاب في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»^(٣). ألا فليحمد الله من أمدَّ الله في عمره حتى رأى بياض الشعر في رأسه ولحيته، وليعد إلى الله عوداً حميداً، فكم من الأقران وُسِّدوا لحود القبور منذ عشرات السنين وأنت أمهل الله لك في عمرك، تصلي، وتصوم، وتدعو، وتستغفر حتى اليوم. فكم من عمل صالح عملت، وكم استغفار عن ذنب استغفرت.

(١) شرح الصدور، ص ١٧.

(٢) شرح الصدور، ص ٤٧.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي والنسائي عن كعب بن مرة.

رَأَيْتَ الشَّيْبَ مِنْ نُذُرِ الْمُنَايَا

لصاحبه وحسبك من نذير^(١)

وحسبك - إن شاء الله - أنه عمرٌٌ مديد في عملٍ صالح تجده يوم القيامة ذخراً لك. كما كان سفيان الثوري يقول: «عند الصُّباح يَحْمَدُ القوم السُّرى، وعند الممات يَحْمَدُ القوم التُّقى»^(٢).

فما هي إلا ساعةٌ ثمَّ تنقضي

ويذهب هذا كُلُّه ويـزول^(٣)

فالدُّنيا كالحلم تمرُّ مرَّ السَّحاب، ساعة من زمنٍ ثمَّ تنقضي، ألا إنها - يا أخي - رحلةٌ بدأت وستنتهي.

أخيَّ لا تذهب بك المذاهب

أظْلَمَكَ الموت وأنت لاعب

أخيَّ إن الموت قد أظْلَمَكَ

هَلْكَ أن تعنَى به لعلَّكَ

قال خليلد العصري: «كلُّنا قد أيقن بالموت ما نرى له مستعدّاً، وكلُّنا قد أيقن بالجنَّة، ولا نرى له عاملاً، وكلُّنا قد أيقن بالنَّار، وما نرى لها خائفاً، فعلامٌ ما تعرجون، وما عسيتم تنتظرون؟ الموت. فهو أول وارد عليكم في الله بخير أو شر، فإيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً»^(٤).

(١) التذكرة، ص ٤٦.

(٢) الإحياء (٤/٤٣٥).

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص ٢٠.

(٤) صفة الصفوة (٣/٢٣١).

ولا ريب أن مما يوقط الهمم ويقوي العزائم ذكر هادم اللذات . .
والتفكر في مآل من سبق .
ولذلك . . يا أخي :

اعمد لنفسك واذكر ساعة الأجل
ولا تُفَرِّنْ في دنيَاك بالأملِ
سابقِ حتوفِ الرّدى واعمل على مهل

مادمت في هذه الدُّنيا على مهل^(١)

فإن الدنيا دار ممر لا دار مقر، فكم رحل عنها الأجداد والآباء
والأبناء . رحل عنها الرؤساء والوزراء . لن يبقى على وجه الأرض منهم
أحد . من يجري على ظهرها . سيكون غداً في باطنها .

كلُّ حيٍّ إلى الفناء يؤول
فتزود إن المقام قليلُ
نحن في دار غربّة كلِّ يوم
ينقضي جيلٌ ويحدث جيلُ

فمن تخطّاه الموت في زمن الصِّبا والشَّباب، ومدَّ الله في عمره،
تحوّلت قوته إلى ضعف وشدة حركته إلى سكون، وتلك الصحة إلى
أسقام وأوجاع . ولكن تنبه يا غافلاً عن الموت ؛ فهو يسير إليك وأنت نائم
عنه، فلربما فاجأك وأنت بكامل الصحة والعافية ؛ تجاهر الله بالمعاصي،
وتغفل عن الطاعات، وتهجر النوافل، وترك العبادات !

(١) ديوان أبي العتاهية، ص ٣٦١ .

يا راقداً الليل مسروراً بأوله
 إنَّ الحوادث قد يطرقن أسحاراً
 لا تفرحنَّ بليل طاب أوله
 فَرُبَّ آخر ليل أجج النَّارا
 عادت تراباً أكفَّ المُلْهيات وقد
 كانت تحرك عيداناً وأوتاراً^(١)

سُئِلَ الحسن - رضي الله عنه - : «يا أبا سعيد، كيف رأيت حالك؟
 فقال: حال من ينتظر الموت إذا أمسى، وإذا أصبح لا يدري هل يُمسي؟
 وكيف يموت؟».

فما أبلغه من جواب! وما أعظمه من استعداد! ونحن منذ خروجنا إلى
 الدنيا نعلم أن الموت يترصّدنا في كل ناحية وبقعة، ولكننا نغفل عن
 هذا! والدنيا كيوم من نهار، فلو قيل للحي في نهاره - الذي هو عمرك
 في هذه الدنيا -: إنَّ هناك عدواً سيخرج عليك في أيّ لحظة من هذا
 اليوم، لاستعددت له ولتجهزت لفجأته، فهذه الدنيا وهذا الموت بماذا
 استعددت له؟ وبماذا تجهزت؟

قال مطرف بن عبدالله بن الشَّخِير: «إنَّ هذا الموت نَغَصَّ على أهل
 التَّعِيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه، فكيف ووراءه يومٌ يُعدم فيه
 الجواب، وتدهش فيه الألباب، وتفنّى في شرحه الأقلام والكتّاب،
 ويترك النظر فيه والاهتمام به الأولياء والأحباب»^(٢).

(١) طبقات الحنابلة (٤/١٩٢).

(٢) العاقبة، ص ٢٦.

فلعل الموعظة تقع في قلوبنا موقعاً حسناً، ونعود إلى الله عوداً سريعاً،
 فما أفرح الله - جلّ وعلاً - بعودة المذنب وإقبال التائب!
 تزود قريناً من فعالك إنمّا
 قرين الفتى في القبر ما كان يعمل
 ألا إنمّا الإنسان ضيفٌ لأهله
 يقيم قليلاً عندهم ثمّ يرحل

ويا أخى:

اعلم أنّ الموت قادمٌ وخطره عظيم، وغفل عنه الناس لقلّة حديثهم فيه
 وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة
 الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت قلبه.

فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي
 هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة أو يركب البحر، فإنه
 لا يتفكّر إلا فيه^(١).

عن حميد قال: «بينما الحسن في المسجد تنفّس تنفساً شديداً، ثم
 بكى حتى أرعدت منكباه، ثم قال: لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب
 صلاحاً، لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة، إن ليلة تمخّض عن
 صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيومٍ قط أكثر من عورة بادية، ولا
 عين باكية من يوم القيامة»^(٢).

وفسّر ذلك التّلاهي وهذا التّشاغل أبو سعيد بن عبدالرحمن عندما

(١) الإحياء (٤/٤٧٩).

(٢) صفة الصفوة (٣/٢٣٤).

قال: «إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها»^(١).

فلو توقف الإنسان عن الجري واللهث، وتفكر في القبر واللحد وما بعدهما، لما هنا بعيش، ولما قامت المصالح، ولما عمرت الأسواق، ولكن الله - سبحانه وتعالى - مَنَّ علينا بالنسيان رحمة منه، ولهذا يُنبه السَّاهي ويُذكر الغافل.

يا ساهياً يا غافلاً عمّا يُراد له

حان السَّرَّحِيلُ فما أعددت من زاد

تظن أنك تبقى سرمداً أبداً

هيهات أنت غداً فيمن غدا غادي^(٢)

يا أيُّها النَّاسُ:

اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة، قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيتها، وتزينت لخطابها، فأصبحت كالعروس المحلاة، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشقٍ لها قتلت، ومطمئنٍ إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دارٌ كثيرة بوائقها، وذمها خالقها. جديدها يبلَى، ومُلْكها يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقلُّ، ودُّها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا - رحمكم الله - من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال: فلانٌ عليلٌ أو مدنفٌ ثقيلٌ، فهل على الدواء من دليل؟ وهل إلى

(١) الإحياء (٢٨٢).

(٢) الزهر الفائح، ص ٥٩.

الطبيب من سبيل؟ فتدعى لك الأطباء، ولا يرجى لك الشفاء.
ثم يقال: فلان أوصى، ولما له أحصى.
ثم يقال: قد ثقل لسانه، فما يكلم إخوانه، ولا يعرف جيرانه.
وعرق عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت
جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك.
وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان.
ومنعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطق، ثم حل بك
القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء، فاجتمع
عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك، فغسلوك وكفنوك، فانقطع
عوائدك، واستراح حسادك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهاً
بأعمالك^(١).

فالله الله يا أخي..

أُسَدُّ حِيَا زِمَمِكَ لِلْمَوْتِ
فَإِنَّ الْمَسْمُوتَ أَتَيْكَ
وَلَا تَجْزَعَنَّ مِنَ الْمَوْتِ
إِذَا حَلَّ بِوَادِيكَ^(٢)

ولكن ماذا أعددنا لهذا اليوم؟ وكيف استعدادنا لهذا الرحيل؟ أهو كما
ذكر حوشب عند مالك بن دينار عندما قال: «سمعت منادياً ينادي: أيها
الناس، الرحيل الرحيل، فما رأيت أحداً قام غير محمد بن واسع، فبكى

(١) الإحياء (٣/٢٢٥).

(٢) صفة الصفوة (١/٣٣٧).

مالك حتى سقط أو كاد يسقط؟»^(١).

وها نحن يُنادى علينا كل يوم: الرَّحِيل الرَّحِيل.

فرحم الله من قام وأطاع، واستعد ليوم يُرحل به من هذه البقاع.

أين نحن أخِي الحبيب مما قاله سفيان الثوري: «رأيت شيخاً في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، لو أتاني ما أمرته بشيء، ولا نهيته عن شيء، ولا ليّ على أحد شيء ولا لأحدٍ عندي شيء؟»

ونحن - إلا من رحم ربي - لو أتانا الموت وأمهلنا لاحتجنا إلى سنوات طويلة نرتب أمورنا، ونسدّد حقوقنا، ونطيع الله حق طاعته. ولكن رحمة من الله لنا كما قال مطرّف بن عبدالله: «لو علمت متى أجلي لخشيتُ على ذهاب عقلي، ولكن الله منّ على عباده بالغفلة من الموت، ولولا الغفلة ما تهنّأوا بعيش، ولا قامت بينهم الأسواق»^(٢).

ونحن في دار العمل نترأخى ونتكاسل! فمتى العمل؟ أبعد الموت؟ أعند نزول الموت؟ أفي القبر؟!

نحن في سعة من أمرنا، وفي حال الطلب والثّوبة والاجتهاد في العبادة. وقد علم يزيد الرقاشي ذلك، فكان يخاطب نفسه فيقول: «ابك يا يزيد على نفسك قبل حين البكاء، يا يزيد، من يصلي لك بعدك؟ أو من يصوم؟ يا يزيد، من يضرع لك إلى ربك بعدك؟ ومن يدعو؟»^(٣).

(١) الزهد، ص ٤٥٦، وصفة الصفوة (٣/٢٦٧).

(٢) وصفة الصفوة (٣/٢٢٥).

(٣) وصفة الصفوة (٣/٢٩٠).

ألا كل حيٍّ هالكٌ وابن هالكٍ
 وذو نسبٍ في الهالكين عريقٍ
 فقل لغريب الدار إنَّك راحلٌ
 إلى منزلٍ نابي المحل سحيقٍ
 ولا تعدم الدنيا الدنيَّة أهلها
 شواظ نارٍ أو دخان حريقٍ
 تجرع فيها هالكاً فقد هالكٍ
 وتشجى فريقاً منهم بفريقٍ
 فلا تحسب الدنيا إذا ما سكتها
 قراراً فما دنيأك غير طريقٍ
 إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت
 له عن عدو في ثياب صديقٍ
 عليك بدارٍ لا يزول ظلالها
 ولا يتأذى أهلها بمضييقٍ
 فما يبلغ الراضي رضاه يبلغه
 ولا ينفع الصادي صداه بريقٍ^(١)
 كان مطرف بن عبدالله يقول : «إنَّ هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم
 نعيمهم ، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه»^(٢) .
 وذلك بالاتجاه إلى الله وعبادته حق عبادته ، وصدق العودة إليه - جلَّ

(١) المدحش ، ص ١٩٨ .

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٢٤) .

وعلاً -، كما قال العلاء بن زياد - رحمه الله تعالى - : «لِيُنْزَلَ أَحَدُكُمْ نَفْسُهُ أَنَّهُ قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ ، وَأَنَّهُ اسْتَقَالَ رَبَّهُ فَأَقَالَه ، فليعمل بطاعة الله»^(١) .
فلو أنزلنا أنفسنا في هذه المنزلة ، وأوقفنا أنفسنا هذا الموقف لتغيرت أعمالنا ، وصدقت نياتنا ، وعلمنا مدى التقصير الذي نحن فيه ، ولجعلنا عملنا في هذه الدنيا عملاً متواصلاً لا فتور فيه ولا ملل ؛ حتى نكون مثل ما قال سفيان : «كان يُقال : الموت راحة العابد»^(٢) .

فانظر في غذك ، ودنو أجلك ، وقلة عملك ، فقد كتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : «يا أخي ، احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده» .

نعم ، حتى الموت مع شدته وآلامه يُتمنى فلا يوجد ؛ قال الله - تعالى - : ﴿ وَنَادَاؤُا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْكَ نَارُكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَعَكُوثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] .

خلودٌ في جنة - جعلنا الله من أهلها - أو نارٌ حامية - والعياذ بالله - ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : ٧] .

أما ما أفنيت شبابك وصحتك وعمرك في جمعه من المال فإذا لم تُقدمه أمامك في عمل صالح فإنه يكون كما قال يحيى بن معاذ : «مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلها للعبد في ماله عند موته ، قيل : وما هما؟ قال : يؤخذ منه كله ، ويُسأل عنه كله»^(٣) .

وقد قيل لعبد الله بن عمر : «توفى فلان الأنصاري ، قال : رحمه الله ،

(١) العاقبة ، ص ٩٠ .

(٢) شرح الصدور ، ص ٢٨ .

(٣) الإحياء (٢٤٨/٣) .

قالوا: ترك مائة ألف، قال: لكن هي لم تتركه. وكيف تتركه وهناك كتابٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟».

ومن أراد الجنة فلا بد له من الموت، رغم آلامه وأهواله وغُصصه ووروعاته. قال ابن عبدربه لمكحول: «أتحب الجنة؟ قال: ومن لا يُحب الجنة، قال: فأحب الموت؛ فإنك لن ترى الجنة حتى تموت»^(١).

الطريق إلى الله خالٍ من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات، وهو معمورٌ بأهل اليقين والصبر، وهم على الطريق كالأعلام ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ يَأْمُرُنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِأَيْمِنِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]^(٢).

أخي المسلم:

وما هي إلا ليلةٌ ثم يومها
وحولٌ إلى حولٍ وشهرٌ إلى شهرٍ
مطايا يقربن الجديد من البلى
ويدنين أشلاء الكريم إلى القبر
وتركن أزواج الغيور لغيره
ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوفر^(٣)
صعد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ذات يوم المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر الموت فقال: «عباد الله، الموتُ ليس منه فوت،

(١) شرح الصدور، ص ١٧.

(٢) الفوائد، ص ٧٣.

(٣) شذرات الذهب (١/٢٧٦).

وإن قمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، فالنجاء النجاء، والوفا الوفا^(١)، إن وراءكم طالباً حثيثاً، القبر، فاحذروا ضغطته وظلمته ووحشته، ألا وإن القبر حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث مرات، فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الدود، أنا بيت الوحشة، ألا وإن وراء ذلك يوماً يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢٢]. ألا وإن وراء ذلك ما هو أشد منه، نار حرها شديد، وقعرها بعيد، وحليها ومقامعها من حديد، وماؤها صديد، وخازنها مالك، ليس فيه رحمة. ثم بكى، وبكى المسلمون حوله، ثم قال: ألا وإن وراء ذلك جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. جعلنا الله وإياكم من المتقين، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم^(٢).

أخي الحبيب:

متى نتوب؟ هل أجبت يوماً على هذا السؤال؟ ولكن لنرَ الجواب.
قال بلال بن سعد - رحمه الله -: يقال لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال له: لم؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحاً، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يُحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله - تعالى - ولا يؤخر عمل الدنيا^(٣).

(١) الوفا: الإسراع والعجلة.

(٢) البداية والنهاية (١٤٩/٧).

(٣) العاقبة، ص ٩١.

وقيل لعتبة: أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسَّعه عليك^(١).

مالي أرى الناس والدنيا مولية
وكل جمع عليها سوف ينتشر
لا يشعرون إذا ما دينهم نقصوا
يوماً وإن نقصت دنياهم شعروا^(٢)

فأكثر هم الواحد ممَّا نقص الدنيا وزيتها!! ونادراً من نراه يغتم بفوات صلاة جماعة أو طاعة من الطاعات، بل أصبح الهم المشترك لغالب الناس اليوم همُّ الدنيا!!

قال بعضهم: «أيها الناس، إن الحكم قد وجب، وإن الموت قد اقترب، والعمر قد ذهب، فكم من آسفٍ عليه، وناظر بعين الشفقة إليه، وإن في تلاشي العمر ما يقصر عن أمل الأريب، ويجمع من همِّ اللبيب، ويرسل من عبرات الكتيب، فرحم الله امرأً بكى سواه؛ فعمل، واستقام، وتفكَّر، وأتاب».

أين نحن من التفكُّر في أمرنا ومآلنا كما كانوا يتفكرون ولمآلهم يعملون؟ قال يوسف بن أسباط: «قال لي سفيان الثوري وقد صلينا العشاء الآخرة: ناولني المطهرة، فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خده، ونمت فاستيقظت وقد طلع الفجر، فنظرت فإذا المطهرة بيمينه، ويساره على خده فقلت: يا أبا عبد الله، هذا الفجر قد طلع، قال:

(١) العاقبة، ص ٤٠.

(٢) إرشاد العباد، ص ٣٦.

لم أزل منذ ناولتني هذه المطهرة أتفكر في أمر الآخرة حتى الساعة^(١) .
وجامع الخير من ذلك كله في قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾^(٢)
[الحشر: ١٨] .

سأل حسان - رضي الله عنه - أمه يوماً فقال : «يا أماه، أتحين أن
تلقي - الله تعالى - ؟ قالت : لا، وقد عصيته» .
وكان الربيع بن خثيم يقول : «أكثرنا ذكر هذا الذي لم تذوقوا قبله
مثله، ولن تذوقوه إلا مرة واحدة»^(٣) .

وقد حثنا الحسن بقوله : «يا بن آدم، بع عاجلتك بعاقبتك تربحهما
جميعاً، ولا تبع عاقبتك بعاجلتك فتخسرهما جميعاً، الثواء^(٤) هنا قليل،
وقد أسرع بخياركم، فماذا تنتظرون؟ المعاينة، فكأنها والله قد كانت،
إنما ينتظر بأولكم أن يخلق بآخركم»^(٥) .

فتفكر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته،
ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار
وتغيظها، وقد كُلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب
قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار^(٥) .

(١) صفة الصفوة (٣/١٤٨) .

(٢) حلية الأولياء (٢/١١٤) .

(٣) الثواء : الإقامة والبقاء .

(٤) التبصرة (١/٣٦٨) .

(٥) التذكرة، ص ٣٨٥ .

مُثْلُ وَقُوفِكَ يَوْمَ الْعَرْضِ عَرِيَانًا
 مَسْتُوحِشًا قَلِقَ الْأَحْشَاءُ حَيْرَانًا
 النَّارُ تَلْهَبُ مِنْ غِيْظٍ وَمِنْ حَنَقٍ
 عَلَى الْعُصَاةِ وَرَبُّ الْعَرْشِ غَضِبَانًا
 اقْرَأْ كِتَابَكَ يَا عَبْدِي عَلَى مَهْلٍ
 فَهَلْ تَرَى فِيهِ حَرْفًا غَيْرَ مَاكَانَا
 لِمَا قَرَأْتَ وَلَمْ تَنْكَرْ قِرَاءَتَهُ
 إِقْسِرَارٌ مِنْ عَرَفِ الْأَشْيَاءِ عَرَفَانًا
 نَادَى الْجَلِيلُ : خُذُوهُ يَا مَلَأْتُكَتِي
 وَامْضُوا بَعِيدٍ عَصَى لِلنَّارِ عَطْشَانًا
 الْمَشْرُكُونَ غَدًا فِي النَّارِ يَلْتَهَبُوا
 وَالْمُؤْمِنُونَ بِدَارِ الْخُلْدِ سُكَّانًا^(١)
 اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ
 وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ
 النَّعِيمِ نَحْنُ وَأَبَاءُنَا وَأُمَّهَاتُنَا وَذُرِّيَاتُنَا، وَحَرِّمْ وَجُوهَنَا عَلَى النَّارِ.
 قَالَ الْحَسَنُ : «لَوْ لَا ثَلَاثَةٌ مَا طَاطَأَ ابْنُ آدَمَ رَأْسَهُ : الْمَوْتُ، وَالْمَرَضُ،
 وَالْفَقْرُ. وَإِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ لَوُثَّابٌ»^(٢).
 وَهَذَا الْمَوْتُ جَعَلَهُ اللَّهُ نَهَايَةَ كُلِّ حَيٍّ، وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَدُلُّ عَلَى
 قُوَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَبْرُوتِهِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَصَمَ بِالْمَوْتِ رِقَابَ الْجَبَابِرَةِ،

(١) التذكرة، ص ٢٩٤.

(٢) الحسن البصري، ص ٤١.

وكسر به الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق، فأرداهم في الحافرة، فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلم اللهود^(١).
 اللهم اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم لقاك. اللهم إنا نعوذ بك أن يتخبطننا الشيطان عند الموت.

هديه ﷺ في الجنائز (١)

كان هديّه ﷺ في الجنائز أكمل الهدى، مخالفاً لهدى سائر الأمم، مشتملاً على الإحسان إلى الميت ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وعلى إقامة عبودية الحي لله وحده فيما يُعامل به الميت.

وكان من هديه في الجنائز إقامة العبودية للرب - تبارك وتعالى - على أكمل الأحوال، والإحسان إلى الميت، وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله وأفضلها، ووقوفه ووقوف أصحابه صفوفاً يحمدون الله، ويستغفرون له، ويسألون له المغفرة والرحمة والتجاوز عنه، ثم المشي بين يديه إلى أن يودعوه حفرته، ثم يقوم هو وأصحابه بين يديه على قبره سائلين له الثبوت أحوج ما كان إليه، ثم يتعاهد بالزيارة له في قبره، والسلام عليه، والدعاء له كما يتعاهد الحي صاحبه في دار الدنيا. فأول ذلك: تعاهد في مرضه وتذكيره الآخرة، وأمره بالوصية، والتوبة، وأمر من حضره بتلقيه شهادة أن لا إله إلا الله، لتكون آخر كلامه، ثم النهي عن عادة الأمم التي لا تؤمن بالبعث والنشور، من لطم الخدود، وشق الثياب، وحلق الرؤوس، ورفع الصوت بالندب، والنياحة وتوابع ذلك. وسنّ الخشوع للميت، والبكاء الذي لا صوت معه، وحزن القلب. وكان يفعل ذلك ويقول: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي

(١) زاد المعاد (٤٩٨/١) وما بعدها.

الرب»^(١). وَسَنِّ لَأَمَّتِهِ الْحَمْدَ وَالِاسْتِرْجَاعَ، وَالرِّضَا عَنْ اللَّهِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُنَافِيًّا لِدَمْعِ الْعَيْنِ وَحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَرْضَى الْخَلْقَ عَنْ اللَّهِ فِي قَضَائِهِ، وَأَعْظَمَهُمْ لَهُ حَمْدًا.

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد عن أنس - رضي الله عنه - .

الوقفه الثانية:

الاحتضار

الاحتضار

قال - تعالى - في أصدق وصف وأحسن تعبير: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (٢٠) [ق: ١٩-٢٠].

وما أدراك - يا أخي - ما هذا المجيء لسكرات الموت، مجيء مناص عنه ولا مهرب، لاتجدي معه حيلة، ولا تنفع معه وسيلة، إنه بداية نهايتك من هذه الدنيا والانقطاع عنها، والإقبال على الآخرة ودخول معبرها، وترك ما وراءك من الأموال والقصور والأهل والدور.

إنها - والله - ساعة مهولة، ذات كرب شديد، وما بعدها إلا وعد أو وعيد، لو تفكرت في حلولها وأنت في نعيم وهناء لتكدرت حياتك، ولهانت الدنيا عندك، وصغر عظيمها في عينك، ولتبذل فرحك حزناً وسعادتك كدراً. كيف لا، وأنت تفارق المال والولد، والأحباب والأصحاب، إلى دار الجزاء الحساب؟ أهوال تهون عندها أهوال، حتى تنتهي إلى أحد الفريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٧) [الشورى: ٧].

ولشدة سكرات الموت التي أصابت خير الأنبياء والمرسلين وأكرم الخلق على الله أجمعين، فقد قال ﷺ وهو يُدخل يديه في ركة ماء ويمسح بها وجهه الشريف: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»^(١).

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن عائشة.

ولما رأت فاطمة - رضي الله عنها - ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه قالت: واكرب أباه، فقال لها: «ليس على أهلك كربٌ بعد اليوم»^(١).

ونحن ندعو بأثره ﷺ، اللهم، هون علينا سكرات الموت إذا حلت، وثبتنا إذا وقعت؛ فثقل اللسان، وأغمضت العينان، ومُدت الأكفان. فاللهم برحمتك إلى الجنان.

قال ﷺ: «ما من أحدٍ يموت إلا ندم، إن كان مُحسنًا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مُسيئًا ندم أن لا يكون نَزَعَ»^(٢).

فهذه الدنيا مزرعة الآخرة، فإن المحسن يتمنى زيادة الإحسان، رفعة في الدرجات وعلوًّا في المقامات، أما المسيء فيندم على تفريطه في التوبة ودخوله على الله - عزَّ وجلَّ - بذنوب وأوزار لم يتب منها، يأمل في التوبة وربما فاجأه الموت قبل ذلك.

حكمُ المنيعة في البريئة جارٍ
ما هذه الدُّنيا بدار قرارٍ^(٣)

ولذلك قال الحسن - رحمه الله تعالى -: «فضح الموت الدنيا؛ لم يترك لذي لبٍّ فرحاً»^(٤).

فإنه - والله - ما ترك لهارب سُبُلًا ولا لمحتالٍ حيلًا.

(١) أخرجه البخاري عن أنس.

(٢) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، وفيه ضعف.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٨٢/١٧.

(٤) الإحياء ٤٧٩/٤، والسير ٥٨٥/٤.

هو الموت فاصنع كل ما أنت صانع
وأنت لكأس الموت لابد جارع^(١)

أخي الحبيب:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كربٌ ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته. وحقيقٌ بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعدادة^(٢).

كيف ونحن نعلم أن وراء الموت القبر وظلمته، والصراط ودقته، والحساب وشدته؟ أهوالٌ وأهوال، والنهاية جنةٌ أو نار؛ قال - تعالى -: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَتِ أَلَسَاقُ بِالْأَسَاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

إنه مشهد الموت، الموت الذي ينتهي إليه كلُّ حيٍّ، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حيٌّ، الموت الذي يُفَرِّق بين الأحبة، ويمضي في طريقه ولا يتوقف، ولا يستجيب لصرخة ملهوف، ولا لحسرة مفارق ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف، الموت الذي به يُصرع الجبابرة، ويُقهر به المتسلطون كما يقهر به المستضعفون سواء، الموت الذي لا حيلة للبشر فيه، وهم مع ذلك لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه، وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير، وتكون السكرات المذهلة، ويكون الكرب الذي تزوغ منه

(١) موارد الظمان ٣/ ٦٢٨.

(٢) الإحياء ٤/ ٤٩٠.

الأبصار، ويتلفت الحاضرون حول المحتضر، يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ روح المكروب ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٢٧) ﴿لَعَلَّ رَقِيَّةً تَغَيِّرُ وَتَلْوِي الْمَكْرُوبَ مِنَ السَّكْرَاتِ وَالتَّرْعِ﴾ (٢٨) ﴿وَالنَّفْسُ السَّاقُ بِالْسَّاقِ﴾ (٢٩) وبطلت كل حيلة، وعجزت كل وسيلة، وتبين الطريق الواحد الذي يسابق إليه كل حي في نهاية المطاف ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (٣٠) (١).

روي أن ملك الموت دخل على داود - عليه السلام - فقال: «من أنت؟ فقال: من لا يهاب الملوك، ولا تُمنع منه القصور، ولا يقبل الرُّشا.

قال: فإذا أنت ملك الموت، قال: نعم، قال: أتيتني ولم أَسْتَعِدَّ بعد. قال: يا داود، أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال: مات. قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة لتستعد؟» (٢).

ووالله، إنَّ في ذلك لعبرة، فنحن نودع الآباء والأبناء، ونرى كيف يوسِّدون الثرى، ولكننا لا نتفكر فيما نحن عليه مقبلون، ولمرَّ نحن له عابرون، وطريق عليه سائرون.

بكى الحسن البصري عند موته وقال: «نُفْسٌ ضَعِيفَةٌ، أَمْرٌ مَهُولٌ عَظِيمٌ وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

ولو تفكرت - يا أخي الحبيب - الآن في أن الموت ببابك وملك الموت يطلب جنابك لعلمت هول المطلع، ووالله لفزعته وذهلته، هذا وأنت بحال الدنيا، فكيف والأمر جد، ومن الموت لا بد؟.

(١) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص ١٢.

(٢) التذكرة، ص ٤٨.

يا قابضَ الروح من نفس إذا احتضرت
 وغافر الذُّنب زحزحني عن النَّارِ^(١)
 قيل إِنَّ أبا وهب - زاهد الأندلس - باع ماعُونَه قبل موته فقيلاً:
 ماهذا؟ قال: أريد سفراً، فمات بعد أيام يسيرة^(٢).
 والإنسان في هذه الدنيا مسافر منذ أن يخطو على هذه الأرض،
 ولا بد له أن يحط عصا الترحال يوماً من الأيام طالت أو قصرت.
 عن ابن عباس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمرُ
 وهو على حصير قد أٌثّر في جنبه، فقال: يا نبي الله، لو اتخذت فراشاً
 أو ثُرَّ من هذا؟ فقال: «مالي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب
 سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة من نهار، ثم راح
 وتركها»^(٣).

فأين نحن اليوم وواقعنا من هذا الحديث الشريف؟ قد اتخذنا من مياثر
 الفرش وفاخر الرياض ما قست القلوب ونُسي الموت والكروب.
 قال الحسن: لو علم ابن آدم أن له في الموت راحة وفرحاً، لشق
 عليه أن يأتيه الموت، لما يعلم من فظاعته وشدته وهوله، فكيف وهو
 لا يعلم ما له في الموت؟! أَهْلٌ لَهُ نعيمٌ دائم أم عذاب مقيم؟!
 وكان يقول - رحمه الله -: «من لم يمت فجأة، مرض فجأة، فاتقوا
 الله واحذروا مفاجأة ربكم»^(٤).

(١) شذرات الذهب ١/١٢١.

(٢) السير ٥٠٧/١٥.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد والحاكم عن ابن عباس.

(٤) الحسن البصري، ص ١٠٥.

هو الموت لا منجاة من الموت والذي

أحاذر بعد الموت أدهى وأفظع^(١)

أخي الحبيب:

أين الأقران؟ وأين سلکوا؟ تالله، لقد فنوا وهلكوا. اجتمع الأضداد في الألحاد واشتركوا، وخانهم جبل الأمل بعد ما أمسكوا، ونوقشوا على ما خلفوا وتركوا، وصار غاية الأمانى لو تركوا^(٢).

لما احتضر أبوبكر - رضي الله عنه -، تمثلت عائشة - رضي الله عنها - بهذا البيت:

أعاذل ما يغني الحذار عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبوبكر - رضي الله عنه -: ليس كذلك يا بنية، ولكن قولني: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. ثم قال: انظروا ثوبَيَّ هذين فاغسلوهما، ثم كفّنوني فيهما؛ فإنّ الحي أحوج إلى الجديد من الميت^(٣).

ولمعرفة صفة هذا الموت الذي لا يحسُّ ألمه إلا من يعانيه فقد قال عمر لكعب أخبرني عن الموت. قال: يا أمير المؤمنين، هو مثل شجرة كثيرة الشوك في جوف ابن آدم، فليس منه عرق ولا مفصل، وهو كرجل شديد الذراعين فهو يعالجها يتزعها، فبكى عمر.

(١) تسلية أهل المصائب، ص ٨٧.

(٢) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص ٨٩.

(٣) الزهد، ص ١٦٣.

للموت فاعمل بجِدٍّ أَيُّهَا الرَّجُلُ
 واعلم بأنَّك من دنيَاكَ مَرْتَحِلٌ
 إِلَى مَتَى أَنْتَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ
 تَمْسِي وَتُصْبِحُ فِي اللَّذَاتِ مُشْتَغِلٌ
 كَأَنِّي بِكَ يَازَا الشَّيْبَ فِي كُرْبٍ
 بَيْنَ الْأَحْبَةِ قَدْ أودَى بِكَ الْأَجَلُ
 لَمَّا رَأَوْكَ صَرِيعاً بَيْنَهُمْ جَزَعُوا
 وَوَدَّعَوْكَ وَقَالُوا قَدْ مَضَى الرَّجُلُ
 فاعمل لِنَفْسِكَ يَا مُسْكِنٌ فِي مَهَلٍ
 مَا دَامَ يَنْفَعُكَ التَّذْكَارُ وَالْعَمَلُ
 إِنَّ التَّقِيَّ جَنَّانُ الْخُلْدِ مَسْكَنُهُ
 يَنَالُ حَوْرًا عَلَيْهَا التَّاجُ وَالْحُلَلُ
 وَالْمَجْرِمِينَ بِنَارٍ لَا خَمُودَ لَهَا
 فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ تَشْتَعِلُ^(١)
 قَالَ وَهَبُ بْنُ مِنْبِهٍ: «كَانَ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ أَرَادَ أَنْ يَرْكَبَ إِلَى
 أَرْضٍ، فَدَعَا بِثِيَابٍ لِيَلْبَسَهَا، فَلَمْ تَعْجِبْهُ، فَطَلَبَ غَيْرَهَا حَتَّى لَبَسَ مَا
 أَعْجَبَهُ بَعْدَ مَرَاتٍ، وَكَذَلِكَ طَلَبَ دَابَّةً فَأَتَى بِهَا فَلَمْ تَعْجِبْهُ، حَتَّى أَتَى
 بِدَوَابٍ فَركبَ أَحْسَنَهَا، فَجَاءَ إِبْلِيسُ فَنَفَخَ فِي مَنْخَرِهِ نَفْخَةً، فَجَلَّاهُ
 كِبَرًا، ثُمَّ سَارَ وَسَارَتْ مَعَهُ الْخِيُولُ وَهُوَ لَا يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ كِبَرًا،
 فَجَاءَهُ رَجُلٌ رَثَّ الْهَيْئَةَ فَسَلَّمَ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَأَخَذَ لِحَامَ

(١) بستان الواعظين، ص ٢١٧.

دابته، فقال: أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً. قال: إن لي إليك حاجة، قال: اصبر حتى أنزل، قال: لا، الآن. فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها، قال: هو سر، فأدنى له رأسه، فسارّه وقال: أنا ملك الملوك، فتغير لون الملك، واضطرب لسانه، ثم قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا، والله، لا ترى أهلك وثقلك أبداً، فقبض روحه، فخرّ كأنه خشبة. ثم مضى فلقي عبداً مؤمناً في تلك الحال، فسلم عليه، فردّ عليه السلام، فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك، فقال: هات، فسارّه وقال: أنا ملك الملوك، فقال: أهلاً وسهلاً بمن طالت غيبته عليّ، فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليّ أن ألقاه منك، فقال ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله - تعالى -، قال: فاختر على أيّ حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم، إنّي أمرتُ بذلك، قال: فدعني أتوضأ وأصليّ ثم أقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه، وهو ساجد^(١).

ولنرَ ثمن الزمن عندهم وقيمة الوقت لديهم واغتنامهم لذلك؛ فإنه لما احتضر عامر بن عبد الله بكى، وقال: «لمثل هذا المصراع فليعمل العاملون، اللهم إنّي أستغفرك من تقصيري وتفريطي، وأتوب إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلا الله» ثم لم يزل يرددّها حتى مات - رحمه الله -.

والله، إِنَّ الموت كما قال مطرف بن عبدالله: «قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه»^(١).

قال صفوان بن سليم: «في الموت راحة للمؤمن من شدائد الدنيا، وإن كان ذا غُصص وكُرب»، ثم ذرفت عيناه^(٢).
ومامن يخاف الموت والنار آمنٌ

ولكن حزين موجد القلب خائف
إذا تمنى ذكر الموت أوجع قلبه

وهيج أحزاناً ذنوبٌ سوائفُ
وانظر إلى تأسفهم على الدنيا وما فيها لمعرفتهم أنها دار عمل؛
فقد بكى أحد العباد عند موته، ف قيل له: ما يبكيك؟ فقال: أن يصوم
الصائمون ولستُ فيهم، ويذكر الذَّاكرون ولستُ فيهم، ويصلي
المصلون ولستُ فيهم.

أخي الحبيب:

أيام عمرك أيام قلائل، لحظات محسوبة، وأنفاس معدودة، لو
أردت زيادة في عمرك ولو للحظات - مقابل أموال الدنيا أجمع - لما
استطعت إلى ذلك سبيلاً، فكيف بك الآن تضيّعها في غير طاعة الله؟
وقد ذكر ذلك أبو حازم فقال: «إن بضاعة الآخرة كاسدة، يوشك
أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان
والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه، ويتمنى الرجوع إلى

(١) السير ١٩/٤.

(٢) السير ٣٦٦/٥.

حالٍ يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمانة»^(١).
ونحن نضيع أعمارنا، وننفق أوقاتنا فيما لا طائل من ورائه، بل
إننا فرحون مستبشرون بذلك!

وقد مر الحسن برجلٍ يضحك، فقال: يا ابن أخي، هل جُزّت
الصراط؟ فقال الرجل: لا، قال: فهل علمت إلى الجنة تصير أم إلى
النار؟ فقال: لا، قال: ففيم الضحك؟! عافاك الله والأمر هول، فما
رئي الرجل ضاحكاً حتى مات^(٢).

ولغلبة الهوى والنفوس والبعد عن الآخرة، ومن باب الموعظة
والتذكير:

كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: أكثروا من ذكر
النار؛ فإن حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامها حديد^(٣).
ولما حضرت الوفاة فضيل بن عياض - رحمه الله - غشى عليه، ثم
أفاق وقال: «يا بعد سفري وقلة زادي»^(٤).

أخي الحبيب:

أي سفر أطول من هذا السفر، وأي زاد تحتاج: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَاِنَّكُمْ
خَيْرَ الزَّادِ الْقَوِيُّ وَاتَّقُوا وَلِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أما الموت الذي لم نذقه بعد فلا نعرف ألمه وشدته إلا حين يقع.
وكل منا سيمر بتلك اللحظات العصيبة والدقائق الرهيبة؛ الأنفاس

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٤٦٨.

(٢) الحسن البصري، ص ٨٩.

(٣) الحسن البصري، ص ١٠٨.

(٤) العاقبة، ص ١٣٣.

مشدودة، والعين حائرة كسيرة. إنها لحظة الاحتضار.

وحين تفتح عينك وملك الموت واقف على رأسك، تُفكر في ماذا تلك اللحظات. أما ونحن لم نذق الموت بعد؛ ألمه وغُصَصه وكُربه. ماهي؟ لنسير لحظات في زمن مضى لنر تلك اللحظات العصيبة والدقائق الحرجة وكيف مرت على أناس قبلنا فذاقوا طعمها وعرفوا شدتها.

لما احتضر عمرو بن العاص سأله ابنه عن صفة الموت فقال: «والله لكأن جنبي في تخت^(١) ولكأنني أتنفّس من سمّ إبره، وكأنّ غصن شوك يُجرّ به قدمي إلى هامتي»^(٢).

هذا هو الموت وهذه شدّته. سيكون تفكيرك في تلك اللحظات منحصرأ في أيّ الأبواب ستُدخل؟ وفي أيّ الدارين تُسكن؟ وأيّ المساكن تنزل؟

قال محمد بن واسع، وهو في الموت: «يا إخوتاه، تدرون أين يُذهب بي؟ يُذهب بي والله الذي لا إله إلا هو إلى النَّار، أو يعفو عني»^(٣).

وقد قيل لجابر بن زيد عند موته: ما تشتهي؟ فقال: نظرة إلى الحسن، فجاء الحسن، فلما دخل عليه قيل له: هذا الحسن، فرفع طرفه وقال: يا إخوتاه، الساعة أفارقكم إما إلى الجنة وإما إلى النار.

ماهي إلا جنّة ونار

أفلح من كان له اعتبار

(١) التخت: وعاء تصان فيه الثياب.

(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٤٤٩.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ٢٧١.

قال عبدالله بن عبدالعزيز العمري عند موته: «بنعمة ربِّي أحدثت. إنِّي لم أصبح أملك إلا سبعة دراهم من لماء شجرة مثلثها بيدي، وبنعمة ربِّي أحدثت. لو أنَّ الدنيا أصبحت تحت قدمي لا يمنعني من أخذها إلا أن أزيل قدمي عنها ما أزلتها»^(١).

أرأيت كيف الدنيا التي نحن نتهافت عليها كيف تكون عند الموت؟ ولمعرفتهم الصحيحة وإيمانهم الصادق كان ابن سيرين إذا ذكر الموت، مات كل عضو منه على حدِّته^(٢).

وعند ذكر ما بعد الموت يهول الموت وشدته وألمه، خاصة إذا كان الخوف من فتنة الدين كما قال سفيان الثوري: ما من موطن من المواطن أشدَّ عليّ من سكرة الموت أخاف أن يشدد عليّ، فأسأل التخفيف فلا أجاب فأفتن^(٣).

ولنتأمل في نصيحة محمد بن واسع، وهي نصيحة قلبية صادقة في وقت حرج وزمن ضيق، قال محمد بن عبدالله مولى الثقفيني: «دخلنا على محمد بن واسع وهو يقضي، فقال: يا إخواني، يا إخوانه، هبوني وإياكم سألنا الله الرجعة فأعطاكموها ومنعنيها، فلا تخسروا أنفسكم»^(٤).

فيا أخي:

لنتمثَّل قوله، وأن الله أقالنا، فكم منا من شخص نجا من حادث،

(١) الثبات عند الممات، ص ١٥٣.

(٢) العاقبة، ص ٣٩.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٤٨.

(٤) صفة الصفوة ٣/ ٢٧١، والثبات عند الممات، ص ١٤٦.

وآخر عوفي من مرض، وثالث صحيح معافى تخطاه الموت إلى غيرة،
فلنعد إلى الله قبل أن نرى الموت عياناً، ولات حين مناص ولا مهرب.

قل للطبيب تخطفته يد الردى

من يا طبيب بطبه أرداك

قل للمريض نجا وعوفي بعدما

عجزت فنون الطب من عافاك

واسأل بطون النحل كيف تقاطرت

شهداً وقل للشهد من حلاك

وإذا تسرى الثعبان ينفث سمة

فاسأله من ذا بالسموم حشاك

واسأله كيف تعيش يا ثعبان

أو تحيا وهذا السم يملأ فاك

فالحمد لله العظيم لذاته

حمداً وليس لواحد إلاك

قال عبدالملك بن مروان في مرض موته: «ارفعوني، فرفعوه حتى

شم الهواء، وقال: يا دنيا، ما أطيبك! إن طويلك لقصير، وإن كثيرك

لحقير، وإنا كنا بك لفي غرور»^(١).

إخواني:

جدُّوا فقد سبقتم، واستعدوا فقد لحقتم، وانظروا بماذا من الهوى

علقتكم، ولا تغفلوا عمَّا له خلقتكم، ذهبت الأيام وما أطعتم، وكتبت

(١) البداية والنهاية ٧٥/٩.

الآثام وما أصغيتهم، وكأنتكم بالصّادقين قد وصلوا وانقطعتهم، أهذا التوبيخ لغيركم؟ أو ما قد سمعتم؟!

كم سكن مثلك في هذه الدّار، فحام الموت حول حماهم ودار، ثم ناهضهم وسلب الجار، فمن أنذر قبل هجومه فما جار، يا هذا، العمر عمرٌ قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض البقية للتأويل، وقد آن الآوان أن يرحل النزيل^(١).

لقد خوّفنا الموت بمن أخذ منا، ونعلم هجومه علينا وقد أمّنا! قال لقمان لابنه: «يا بني، أمرٌ لا تدري متى يلقاك، استعد له قبل أن يفجأك»^(٢).

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه! ومن حاكم ما أعدله! كفى بالموت مقرحاً للقلوب، ومبكيّاً للعيون، ومفرّقاً للجماعات، وهادماً للذّات، وقاطعاً للأمنيات.

فهل تفكّرت يا بن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك؟ وإذا نُقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب الرفيق، وهجرك الأخ والصديق، أخذت من فراشك وغطائك إلى عرر، وغطوك بعد لين لحافك بتراب وقذر، فيا جامع المال والمجتهد في البنيان، ليس لك والله من مالٍ إلا الأكفان. بل هي - والله - للخراب والذهاب، وجسمك للتراب والمآب، فأين الذي جمعته من المال؟ هل أنقذك

(١) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص ٩١.

(٢) العاقبة، ص ٩٢.

من الأهوال؟ كلا، بل تركته إلى مَنْ لا يحمذك، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرک^(١).

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب
متى حطَّ ذا عن نعشه ذاك يركب
نشاهد ذا عين اليقين حقيقة
عليه مضى طفل وكهل وأشب^(٢)

قيل إنَّ يعقوب - عليه السلام - قال لملك الموت: إنِّي أسألك حاجة قال: وماهي؟ قال: أن تُعلمني إذا دنا أجلي، وأردت أن تقبض روحي؟ فقال: نعم، أرسل إليك رسولين أو ثلاثة، فلما انقضى أجله أتى إليه ملك الموت فقال: أذا ترَّجئت أم لقبض روحي؟ فقال: لقبض روحك، فقال: أولست كنت أخبرتي أنك ترسل إليّ رسولين أو ثلاثة؟ قال: قد فعلت. بياض شعرك بعد سواده، ضعف بدنك بعد قوته، انحناء جسمك بعد استقامته، هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم قبل الموت^(٣).

وليس هذا هو السائد؛ فكم أخذ الموت من طفل رضيع، وكم أخذ مَنْ قد استقام عوده وشبَّ؛ بل نرى أكثر أصحاب القبور من الشباب والأطفال والرضع.

ولكن هاك نصيحة موثقة تصلح لجميع الأعمار، وتُبنى بها الدِّيار في جنات الخلد؛ قال أبو حازم سلمة بن دينار: «كلُّ عملٍ تكره

(١) التذكرة، ص ١٠.

(٢) موارد الظمان ٥٩٦/٣.

(٣) إرشاد العباد، ص ٧.

الموت من أجله فاتركه، ثم لا يضرِك متى مت^(١).

أرايت - أفي الكريم - كيف القياس؟

هاك الأخرى:

قال ميمون بن مهران: «من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله - عز وجل - فليُنظر في عمله، فإنه قادم على عمله كائنًا من كان»^(٢).

وجماع ذلك قول الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّقَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وهذه نداءات قلبية صادقة من أبي الدرداء - رضي الله عنه -، وهو يحتضر، فقد جعل يقول: «ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا؟ ألا رجلٌ يعمل لمثل ساعتِي هذه؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟» وبكى، فقالت له امرأته: تبكي وقد صاحبت رسول الله ﷺ؟ فقال: «مالي لا أبكي ولا أدري علامَ أهُجم من ذنوبي».

ولكن أين الاستجابة لهذه النداءات المخلصة التي تهز أعماق المسلم وتذكره بتلك اللحظات القادمة إليه؟.

تَفَتُّ فَوَادِكِ الْأَيَّامِ فَتًّا

وتنحت جسمك السَّاعات نحتاً

وتدعوك المنون دعاء صدق

ألا يا صاح أنت أريد أنتاً^(٣)

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٣.

(٢) حلية الأولياء ٤/ ٨٤.

(٣) موارد الظمآن ١/ ٥٣.

قال بعضهم: «دخلنا على عطاء السلمي نعوده في مرضه الذي مات فيه، فقلنا له: كيف ترى حالك؟ فقال: الموت في عنقي، والقبر بين يدي، والقيامة موقفي، وجسر جهنم طريقي، ولا أدري ما يفعل بي. ثم بكى بكاءً شديداً حتى غشي عليه، فلما أفاق، قال: اللهم ارحمني، وارحم وحشتي في القبر ومصرعي عند الموت، وارحم مقامي بين يديك يا أرحم الراحمين».

وصحب رجلٌ عمر بن الخطاب إلى مكة، فمات في الطريق، فاحتبس عليه عمر حتى صلى عليه ودفنه، فقلَّ يومٌ إلا كان عمر يتمثل:

وَبَالِغُ أَمْرِ كَانَ بِأَمَلٍ دُونَهُ

ومختلج من دون ما كان يأمل^(١)

ويحك يا نفس، أما تخافين إذا بلغت النفس التراقي أن تبدو رُسل ربك منحدره إليك بسوء الألوان وقلح الوجوه وبشرى العذاب؟ فهل ينفعك حينئذ الندم، أو يقبل منك الحزن، أو يرحم منك البكاء؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك، ولا تحزنين لنقصان عمرك، وما نفعُ مالٍ يزيد وعمر ينقص^(٢).

وها هو أمير المؤمنين المأمون لما حضرته الوفاة أمر بحلّ دابته ففرش له، فاضطجع عليه، ووضع الرماد على رأسه، وجعل يقول: «يا من لا

(١) تاريخ عمر، ص ٢٠٨.

(٢) الإحياء ٤/٤٤٦.

يزول ملكه، ارحم اليوم من قد زال ملكه»^(١).
ولما حضرت الوفاة أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين، قال للربيع: «يا ربيع هذا السلطان، لا سلطان من يموت»^(٢).
إنه الموت نهاية كل حي، لا يفلت منه أحد، ولا يُسبق فيقوته أحد^(٣).

هذا عبد الملك بن مروان عندما أيقن بالموت، قال: «والله لو ددت أنني كنت منذ ولدت إلى يومي هذا حمالاً»^(٤).
وقال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: «إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم»^(٥).

فالموت قد عدل، ساوى بين الملك والصغير والكبير، يدخل الغرف الصغيرة، ولا يرده حاجب القصور الكبيرة، أفنى من ملكوا الدنيا، وقضى على من لا يملكون شيئاً من الدنيا، ولكن..
النَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ

ورحى المنيّة تطحن^(٦)
قيل لسعيد بن السائب: كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت أنتظر الموت على غير عدة»^(٧).

(١) العاقبة ص ١٣٠.

(٢) العاقبة، ص ١٢٨.

(٣) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص ٧.

(٤) تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٥.

(٥) الإحياء ٤/ ٤٨٠.

(٦) تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٢.

(٧) صفة الصفوة ٢/ ٢٨٣.

ولذلك يجب على كل من لا يدري متى يبعثه الموت أن يكون مستعداً، ولا يغتر بالشباب والصحة؛ فإن أقل من يموت الأشياخ وأكثر من يموت الشبان، ولهذا ينذر من يكبر.

يَعْمَرُ وَاحِدٌ فَيُعْمَرُ قَوْمٌ

وَيُنْسَى مَنْ يَمُوتُ مِنَ الشَّبَابِ^(١)

قال أبو سليمان الداراني: «قلت لأم هارون العابدة: أتحيين أن تموتي؟ قالت: لا، قلت: ولم؟ قالت: والله لو عصيت مخلوقاً لكرهت لقاءه، فكيف بالخالق جلّ جلاله»^(٢).

وعندما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة، قال: أقعدوني. فأقعد، فجعل يسبح الله - تعالى - ويذكره، ثم بكى. وقال: تَذْكُرُ ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط، ألا كان هذا وغَضُّ الشباب نضرَ ريان؟ وبكى حتى علا بكأؤه، وقال: يا رب، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقلّ العثرة، واغفر الزلة، وجُدْ بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولا يثق بأحدٍ سواك^(٣).

ولما كان عمر بن عبدالعزيز في مرضه الذي مات فيه قال: أجلسوني، فأجلسوه ثم قال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله. ثم رفع رأسه وأحدّ النظر، فقالوا له: إنك لتنظر نظراً شديداً، قال: إني لأرى حضرة ما هم بإنسٍ ولا جن، ثم قبض^(٤).

(١) صيد الخاطر، ص ٢٦٢.

(٢) العاقبة، ص ٣٠.

(٣) الثبات عند الممات، ص ٨٩.

(٤) حلية الأولياء ٣٣٥/٥.

وقد قيل لعبد الله بن مروان في مرض موته: كيف تجدك؟ فقال:
أجدني كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَتَرْكَبْتُمْ مَا Χَوْلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤]^(١).

والموت - **أخي الحبيب** - لم يَغِبْ عنا لنحتاج من يذكرنا به، فهو في كل
يوم يحل بوادينا وللآخرة يدنينا، ولكننا غفلنا عنه، وتناسينا قربه
وحلوله.

ولعلنا نكون كما قال ابن السمَّك: «إن استطعت أن تكون كرجل ذاق
الموت، وعاش ما بعده فسأل الرجعة، فأُسْعِفَ بطلبه، وأُعطي حاجته،
فهو متأهب مبادر، فافعل؛ فإن المغبون من لم يقدم من ماله شيئاً ومن
نفسه لنفسه»^(٢).

الناس في غفلة والموت يوقظهم
وما يفيقون حتى ينفد العمر
ويُشَيِّعُونَ أهاليهم بجمعهم
وينظرون إلى ما فيه قد فُبروا
ويرجعون إلى أحلام غفلتهم
كأنهم ما رأوا شيئاً ولا نظروا^(٣)

والعمر زمنٌ يمر سريعاً كأضغاث أحلام؛ يراه الإنسان لا نهاية له،
ويُلهي الأمل عن الآخرة. ولذلك كان المعتصم يقول عند موته: «لو

(١) البداية والنهاية ٩/ ٧٤.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.

(٣) صيد الخاطر، ص ١٤٩.

علمت أن عمري هكذا قصيرٌ ما فعلت»^(١).

كلنا أعمارنا قصيرة، وآجالنا مكتوبة، وأنفاسنا معدودة، ولكن الخوف من نارٍ تلظى. كما قال مهدي بن ميمون: «رأيت حسان بن أبي سفيان في مرضه، فقيل له: كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار، فقيل له: ما تشتهي؟ قال: ليلة بعيدة الطرفين، أُحيي ما بين طرفيها»^(٢).

وروي أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال: «انظروا هل أصبحنا؟ فأتى فقيل: لم تُصبح، حتى أُتي في بعض ذلك، فقيل له: قد أصبحنا. فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار ثم قال: مرحباً بالموت زائر مُغيّب، وحبیب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك.. وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حَلَق الذكر»^(٣).

أخي الحبيب:

أرأيت الحياة لديهم كيف تكون ولماذا يعيشون؟ أين نحن من ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء؟ أين نحن من طلب العلم والاستماع للعلماء؟ كيف نرى أوقاتنا الضائعة إذا وافانا الأجل وحان الرحيل؟ كان حبيب العجمي عند موته يبكي ويقول: «أريد أن أسافر سافراً ماسافرتَه قط، وأسلك طريقاً ما سلكته قط، وأزور سيدي ومولاي وما

(١) الثبات عند الممات، ص ٩٢.

(٢) حلية الأولياء ١١٧/٣.

(٣) منهاج القاصدين، ص ٤٣١.

رأيته قط ، وأشرف على أهوال ما شاهدتها قط .

فهنّ المنايا أي وادٍ سلكته

عليها طريقي ، أو عليّ طريقها^(١)

وكان استعدادهم للموت استعداد من لا يعلم متى يرحل ، ولا متى ينتقل ، فلا يلهيهِ الأمل ، ولا يشنيه بُعد الأجل . كانت معاذة العدوية إذا جاء النهار قالت : «هذا يومي الذي أموت فيه ، فما تنام حتى تُصبح»^(٢) .

وبكى أبو هريرة في مرضه فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أما إني لا أبكي على دنياكم هذه ، ولكني أبكي على بُعد سفري وقلة زادي ، وأني أصبحت في صعود مُهبطاً على جنة ونار ، ولا أدري أيهما يؤخذ بي^(٣) .

فكم من صحيح بات للموت آمناً

أتته المنايا بغتة بعدما هجع

فلم يستطع إذ جاءه الموت فجأة

فراراً ولا منه بقوّته امتنع

فأصبح تكيه النساء مقنعاً

ولا يسمع الداعي وإن صوته ارتفع

وقرب من لحد مضار مقلبه

وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع^(٤)

أما أصحاب القصور والدور وأصحاب المناصب الذين يغطهم الكثير

(١) مدارج السالكين ٢٢/١ .

(٢) صفة الصفوة ٢٢/٤ .

(٣) حلية الأولياء ٣٨٣/١ .

(٤) التبصرة ٣٢٨/١ .

من أهل الدنيا على هذه النعمة لِنَرَّ حالهم عند الموت. إنها لحظات عصبية؛ العيون شاخصة، والأنفاس متتابعة.

فقد قال محمد بن منصور البغدادي: دخلت على عبدالله بن طاهر وهو في سكرات الموت فقلت: السلام عليك أيها الأمير، فقال: «لا تسمّني أميراً وسمني أسيراً».

ولما حضرت عبدالملك بن مروان الوفاة جعل يقول: «والله لو ددت أنّي عبدٌ لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها ولم ألي»^(١).

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته ف قيل له: «لا بأس عليك يا أمير المؤمنين». فقال: «ليس إلا هذا، لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة»^(٢).

وذكر أن الواثق لما احتضر جعل يردد:

الموت فيه جميع الخلق مشترك
لا سوقه منهم يبقى ولا ملك
ماضر أهل قليل في تفارقهم
وليس يغني عن الأملاك ما ملكوا^(٣)

وهذا التفاوت في معاش الدنيا لا يرد الموت عن العدل بين الجميع؛ فهو بأمر الله مهلك القوي ومفني الدول، ولكن البدار البدار، التوبة قبل

(١) تسلية أهل المصائب، ص ٨٨.

(٢) الثبات عند الممات، ص ٩٢.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص ٣١٨.

الموت. قال شفيق بن إبراهيم: استعد إذا جاءك الموت أن لا تسأل الرجعة^(١).

والرجعة - أضي الحبيب - لن تعطى إياها، فلكل أجل كتاب، ولكن استعد للموت بالعمل الصالح وبالتوبة النصوح.

إن الخلائق في الدنيا لو اجتهدوا أن يحبسوا عنك هذا الموت ما حبسوا إن المنية حوض أنت تكرهه

وأنت عما قليل سوف تنغمس^(٢)

قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر: «دخلنا على ورقاء بن عمر بن كليب، وهو يموت، فجعل يكبر ويهلل ويذكر الله، فلما كثر الناس قال لابنه: اكفني رد السلام، لا يشغلوني عن ربي»^(٣).

إِنَّ الطَّيِّبَ بَطْطُهُ ودَوَائِهِ

لا يستطيع دفاع مكرهه أنسى

ما للطَّيِّب يموت بالدَّاء الذي

قد كان يُبْري منه فيما قد مضى

ذهب المُدَاوِي والمُدَاوِي والذي

جلب الدَّواء وباعه ومن اشترى^(٤)

لما نزل الموت بحذيفة بن اليمان قال: «حبيبٌ جاء على فاقةٍ، قد

(١) الزهد للبيهقي، ص ٢٣٩.

(٢) موارد الظمآن ٣/٤٧٥.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/٢٣٠.

(٤) ديوان أبو العتاهية، ص ٢٩.

كنت قبل اليوم أخشاك وأنا اليوم أرجوك^(١).

وبكى الحسن - رضي الله عنه - بكاءً شديداً، فقيل له: يا أبا سعيد ما يبكيك؟ فقال: خوفاً من أن يطرحني في النار ولا يُبالي^(٢).

ونحن نرى قصص السلف تترى، ومواقفهم تتابع، أحاط بنا الموت من كل جانب، ورقت قلوبنا؛ لما نسمع من حالهم، وهم من هم في الصَّلاح والعبادة؛ حريّ بنا أن نعي قول العلاء بن زياد الغدوي: «لَيُنْزَلَ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنَّهُ قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَاسْتَقَالَ رَبَّهُ - تَعَالَى - نَفْسَهُ فَأَقَالَه، فَلْيَقِلْ بَطَاعَةَ اللَّهِ»^(٣).

فأقلّ - أخِي الحبيب - نفسك من اليوم، وكن من بقية القوم الذين للموت استعدّوا وللآخرة جدوا.

وحالنا قريبة من رجل قيل له وهو يجود بنفسه: ما حالك؟ فقال وما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد، ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس، وينطلق إلى ملكٍ عدلٍ بلا حُجة^(٤).

أخي:

كَأَن أَهْلَكَ قَدْ دَعَاكَ فَلَمْ
تَسْمَعْ وَأَنْتَ مُحْشَرُجُ الصَّادِرِ
وَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَلَّبُواكَ عَلَى
ظَهْرِ السَّرِيرِ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي

(١) العاقبة، ص ١٤٦.

(٢) الزهر الفائح، ص ٩١.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٤٤.

(٤) الأحياء ٢/ ٢٥١.

وكأنهم قد زودوك بما
يتزود الهلكى من العطر
أخي الحبيب:

يأليت شعري كيف أنت إذا
عُسلت بالكافور والسدر
أو ليت شعري كيف أنت على
نبش الضريح وظلمة القبر
يأليت شعري ما أقول إذا
وضع الكتابُ صيحة الحشر
يا سواتا مما اكتسبتُ ويا
أسفي على مافات من عمري
ألا أكون عقلت شأنني فاس

تقبلت ما استدبرت من أمري^(١)

لَمَّا حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال:
«والله ما أبكي للذنوب أعلم أنني أتيت، ولكن أخاف أنني أتيت شيئاً حسبته
هيناً وهو عند الله عظيم»^(٢).

وكان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيل
الرحيل، فلما توفي فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه، فقيل: إنه قد
مات، فقال:

(١) التبصرة ٢٩/١.

(٢) الثبات عند الممات، ص ٩٤.

ما زال يلهج بالرحيل وذكره
حتى أنـاخ بيـابه الجمـال
فأصابه متيقظاً مُتشمّراً
ذا أهبةٍ لم تلهه الآمال^(١)

ودخل ابن عباس على عمر بن الخطاب حين طعن، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين، أسلمت مع رسول الله حين كفر الناس، وقاتلت مع رسول الله حين خذله الناس، وتوفى رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ، ولم يختلف في خلافتك رجلان، فقال عمر: أعد، فأعاد، فقال عمر: «المغرور من غررتموه، لو أنّ لي ما على ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المطلاع»^(٢).

فلو كان هول الموت لا شيء بعده
لهان علينا الأمر واحتقر الأمر
ولكنه حشـرٌ، ونشـرٌ، وجنّةٌ
ونارٌ وما قد يستطيل به الخبر^(٣)

وعن عمران الخياط قال: «دخلنا على إبراهيم النخعي نعوّده، وهو يبكي، فقلنا له: ما يبكيك أبا عمران؟ قال: انتظر ملك الموت، لا أدري يبشرني بالجنة أم بالنار»^(٤).

وصدق؛ فما بعد هذه الدنيا إلا جنةٌ ونار. هل نظرنا أين نحن ذاهبون؟

(١) التذكرة، ص ١٠.

(٢) تاريخ عمر، ص ٤٣، التذكرة، ص ٩٧.

(٣) أبو العتاهية، ص ١٨٩.

(٤) صفة الصفوة ٣/٨٩.

ولأي طريق نحن سالكون؟ اجتمع علينا طول أملٍ وغفلة. فاللهم أيقظ قلوبنا من سباتها، وأغثها بالإيمان وحسن الاعتبار.

قال المغيرة بن حبيب: «دخلنا على مالك بن دينار في مرضه الذي مات فيه وهو يكيد بنفسه، فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لفرج ولا لبطن»^(١).

رحم الله الجميع. بيننا وبينهم البون الشاسع؛ فحبُّ الدنيا عندهم رغبة في العبادة والطاعة، أما الحال اليوم فلماذا حُبُّ البقاء!!

قال سليمان التيمي: «دخلت على بعض أصحابنا وهو في النزع، فرأيت من جزعه ما ساءني، فقلت له: هذا الجزعُ كُلُّه لماذا، وقد كُنتَ - بحمد الله - على حالة صالحة؟ فقال: ومالي لا أجزع؟ ومن أحقُّ مني بالجزع؟ والله لو أتتني المغفرة من الله - عزَّ وجلَّ - لأهَمَّنِي الحياءُ منه فيما أفضيت به إليه»^(٢).

أخي الحبيب.. تأهَّب..

إن للموت سكرةً فارتقبها

لا يداويك إذا أتتك طيبٌ

أعاننا الله على لقاءه، وجعلنا ممن استعد للموت وكربه وغصصه، وجعلنا مثل سلفنا الصالح، فقد كان الجنيد يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلي، فختم، ف قيل له: في مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال:

(١) حلية الأولياء ٢/٣٦١.

(٢) تسلية أهل المصائب، ص ٨٨.

ومن أحق مني بذلك ، وهاهو ذا تطوى صحيفة عملي؟ ثم كَبُرَ ، ومات^(١) .
 وحين حضرت محمد بن سيرين الوفاة بكى ، ف قيل له : ما يبكيك؟
 فقال : «أبكي ؛ لتفريطي في الأيام الخالية ، وقلة عملي للجنة العالية ، وما
 ينجيني من النار الحامية» .

والموت يمر عبر السطور ، وتقشع له النفوس ، نتمنى أن ينتهي
 الحديث عن الموت ، لكن لَنَرَ عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وهو
 يقول : «لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد»^(٢) .

الموت لا يفارق ذهنه ساعة ، ونحن لا نصبر على سماع شيء عن
 الموت ولو ساعة ، بل ربما يقوم بعضهم من المكان الذي فيه ذكرٌ للموت
 وحديث عن الاحتضار ، وماذاك إلا من الغفلة ، ورغبة في الدنيا ونعيمها
 الزائل . هذا وهو حديث في مكانٍ منعم بالنعيم .

لنتأمل فعل أمير المؤمنين هارون الرشيد وهو ينتقي أكفانه بيده ،
 وينظر إليها ، ويقول : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ ﴾ ^(٢٨) هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ^(٢٩) ﴿
 [الحاقه : ٢٨ - ٢٩]^(٣) .

لطول الغفلة وكثرة التعلق بالدنيا . . ربّما لو وجد البعض ثوباً يشبه
 الكفن في بيته لأخرجه ، فلا داعي له ، وهل الموت قريب ليستعد له؟!
 تنام ولم تنم عنك المنايا
 تنبّه للمنيّة يا نـؤومُ

(١) العاقبة ، ص ١٣٣ .

(٢) العاقبة ، ص ٣٩ .

(٣) العاقبة ، ص ١٢٨ .

لما حضرت سليمان الفارسي الوفاة بكى فقبل له : ما يبكيك؟ قال :
«مأبكي جزعاً على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بلغة
أحدنا من الدنيا كزاد الراكب». فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك
فإذا قيمته بضعة عشر درهماً^(١).

أخي الحبيب:

أنظر حولك . . أين نحن من هؤلاء؟!

مما الناس إلا واردٌ وصادرٌ

الطمعُ للغالب فقرٌ حاضر

ذكرنا عمر بن عبدالعزيز بمآلنا وانقطاعنا عن الدنيا فقال : «ألا ترون
أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو راحاً إلى الله - عز وجل - وتضعونه في
صدع من الأرض، قد توسد التراب، وخلف الأحياب، وقطع
الأسباب»^(٢)؟

سفري بعيد وزادي لم يبلغني

وقسوتي لم نزل والموت يطلبني

ولي بقايا ذنوبٍ لست أعلمها

الله يعلمها في السر والعلن

لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه : اجعل رأسي على
التراب . فبكى نصر، فقال : ما يبكيك؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من
النعيم وأنت هنا تموت فقيراً غريباً، فقال : اسكت؛ فإنني سألت الله أن

(١) الثبات عند الممات، ص ٩٣.

(٢) الإحياء ٤/ ٤٨٠.

يحييني حياة السعداء ويميتني ميتة الفقراء، ثم قال: لقني الشهادة ولا تُعد علي إلا أن أتكلم بكلام ثان^(١).

إخواني:

كيف الأمن؟ وهذا الفاروق يقول: «لو أن لي طلاع الأرض ذهباً وفضة لا فتديت بها، كيف الأمن من هول ما أمامي قبل أن أعلم ما الخير». ولما طعن عمر قال لابنه: «ضع خدي على التراب، فوضعه، فبكى حتى لصق الطين بعينه وجعل يقول: ويلى، ويلى أُمي إن لم يرحمني ربي»^(٢).

وقالت أم الدرداء: «كان أبو الدرداء إذا مات الرجل على الحال الصالحة قال: هنيئاً لك، يا ليتني كنت مكانك، فقالت أم الدرداء له في ذلك فقال: هل تعلمين يا حمقاء أن الرجل يصبح مؤمناً ويمسي منافقاً، يُسلَبُ إيمانه وهو لا يشعر، فأنا لهذا الميت أغبط مني لهذا بالبقاء في الصلاة والصيام»^(٣).

قيل للكناني لما حضرته الوفاة: ما كان عملك؟ فقال: «لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به. وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه»^(٤).

أخي:

كم وقفنا على أبواب قلوبنا لنرى ولو ساعة من نهار؟

(١) العاقبة، ص ١٤٥.

(٢) المدهش، ص ١٩١.

(٣) شرح الصدور، ص ١١.

(٤) الإحياء ٤/٥١٣.

مضى الدَّهر والأَيام والذَّنْب حاصلٌ
وجاء رسول الموت والقلب غافل
نعيمك في الدنيا غرورٌ وحسرةٌ
وعيشك في الدنيا محالٌ وباطل
لَمَّا حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزنانه، فقال: «بل واطرباه
غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه»^(١).

وما الموت إلا رحلةٌ، غير أنَّها
من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي^(٢)

وهذا فاروق الأمة، لِنَرَّ خوفه من الله - عزَّ وجلَّ - فقد قال عبدالله بن
الزبير: «ما أصابنا حزنٌ منذ اجتمع عقلي مثل حزنِ أصابنا على عمر بن
الخطاب ليلة طعن، قال: صلى بنا الظهر والعصر والمغرب والعشاء،
أسر الناس وأحسنهم حالاً. فلما كانت صلاة الفجر صلى بنا رجل أنكرنا
تكبيره، فإذا هو عبدالرحمن بن عوف، فلما انصرفنا قيل: طُعن أمير
المؤمنين. قال: فانصرف الناس وهو في دمه لم يصل الفجر بعد، فقيل:
يا أمير المؤمنين، الصلاة، الصلاة، قال: ها الله ذا لا حظَّ لامرئٍ في
الإسلام ضيع الصلاة، قال: ثم وثب ليقوم، فانبعث جرحه دماً، قال: يا
أيها الناس، أكان هذا على ملاء منكم؟ فقال له علي بن أبي طالب: لا
والله، لا ندري من الطاعن من خلق الله. أنفسنا تفدي نفسك، ودماؤنا

(١) الثبات عند الممات، ص ٩٣.

(٢) أبو العتاهية، ص ٢٨٩.

تفدي دمك، فالتفت إلى عبدالله بن عباس فقال: اخرج، فسل الناس ما بالهم واصدقني الحديث.

فخرج، ثم جاء، فقال: يا أمير المؤمنين، أبشر بالجنة، لا والله ما رأيت عيناً تطرف من خلق من ذكر أو أنثى إلا باكية عليك، يفدونك بالآباء والأمهات، طعنك عبدالمغيرة بن شعبة، وطعن معك اثني عشر رجلاً فهم في دمائهم حتى يقضي الله فيهم ما هو قاض، تَهَنِّك يا أمير المؤمنين الجنة. قال: غُرَّ بهذا غيري يا ابن عباس. وَلِمَ لا أقول لك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن كان إسلامك لعزاً، وإن كان هجرتك لفتحاً، وإن كانت ولايتك لعدلاً، ولقد قُتِلَ مظلوماً، ثم التفت إلى ابن عباس فقال: تشهد بذلك عندالله يوم القيامة؟ فكأَنَّهُ تَلَكَّأ. قال: فقال علي بن أبي طالب وكان بجانبه: نعم، يا أمير المؤمنين نشهد لك عند الله يوم القيامة، قال: ثم التفت إلى ابنه عبدالله بن عمر فقال: ضع خدي إلى الأرض يا بني، قال: فلم أبح (أعبأ) بها، وظننت أن ذلك اختلاس من عقله. فقالها مرة أخرى: ضع خدي إلى الأرض يا بني، فلمَّا أفعل، ثم قال لي المرة الثالثة: ضع خدي إلى الأرض لا أم لك، فعرفت أنه مجتمع العقل، ولم يمنعه أن يضعه إلا مابه من الغلبة، قال: فوضعت خده إلى الأرض حتى نظرت إلى أطراف شعر لحيتِه خارجة من بين أضغاث التراب، قال: وبكى حتى نظرت إلى الطين قد لصق بعينيهِ، قال: وأصغيت بأذنين لأسمع ما يقول: قال: فسمعتَه وهو يقول: يا ويل عمر وويل أمه إن لم يتجاوز الله عنه^(١).

(١) تاريخ عمر، ص ٢٤٥.

كتب الموت على الخلق فكم
فلّ من جيش وأفنى من دول

قال عبدالعزيز بن أبي رواد: «دخلت على المغيرة بن حكيم في مرضه الذي مات فيه فقلت: أوصني. فقال: اعمل لهذا المضجع»^(١).

ونحن - يا أخى - ماذا عملنا لهذا المضجع وماذا قدمنا ليوم الفزع؟

قيل لأبي مسعود الأنصاري: ماذا قال حذيفة بن اليمان عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ثلاثاً. ثم قال: اشتروا لي ثوبين أبيضين، فإنهما لن يُتركَا عليّ إلا قليلاً حتى أُبدّل بهما خيراً منهما أو أُسلّهما سلباً قبيحاً^(٢).

خرجتُ من الدنيا وقامت قيامتي
غداة أقل الحاملون جنازتي

وعجّل أهلي حفر قبري وصيّروا
خروجي وتعجيلي أجلّ كرامتي
كأنّهم لم يعرفوا قط صورتي
غداة أتى يومي عليّ وساعتي

وخلّق المسلم عبادة يتقرب بها إلى الله؛ فهذا سعيد بن العاص لما حضرته الوفاة لم ينس إخوانه وأصحابه، فقد جمع بنيّه، وقال لهم: «لا يفقدن أصحابي غير وجهي، وصلّوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ما كنت أجري عليهم، واكفّوهم مؤنة الطّلب؛ فإنّ الرّجل إذا طلب

(١) حلية الأولياء ٨/ ١٩٤.

(٢) السير ٢/ ٣٦٨.

الحاجة اضطربت أركانها، وارتعدت فرائضه، مخافة أن يُردَّ»^(١).
رحمك الله ورحم أيادٍ أعطت وخيراً أنفقت. فكم من فقير أطعمت
وملهوف أنجدت.

قال عمر بن عبدالعزيز: «لولا أن تكون بدعة لحلفت أن لا أفرح من
الدنيا بشيء أبداً، حتى أعلم مما في وجوه رسل ربِّي إليَّ عند الموت،
وما أحبُّ أن يهون عليَّ الموت؛ لأنَّه آخر ما يؤجرُ عليه المؤمن»^(٢).
وعن المزني قال: دخلت على الشافعي في علته التي مات فيها،
فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني
مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، ولسوء عملي ملاقياً، وعلى الله - تعالى -
وارداً، فلا أدري روعي تصير إلى الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها، ثم
بكي، فأنشد يقول:

ولمّا قسا قلبي وضاق مذهبني
جعلت الرّجاء منّي لعفوك سلّماً
تعاظمني ذنبي فلمّا قرنته
بعفوك ربّي كان عفوك أعظماً
وما زلت ذا عفو عن الذّنْب لم تزل
تجود وتعفو منّة وتكرّماً^(٣)
ولما احتضر سعيد بن المسيب ترك دنائره، فقال: «اللهم إنك تعلم

(١) البداية والنهاية ٩٤/٨.

(٢) حلية الأولياء ٣١٦/٥.

(٣) صفة الصفوة ٢/٢٨٥، والسير ٧٦/١٠.

أني لم أتركها لأصون بها حَسْبِي وديني»^(١).
والكثير الآن من الأموال جُمعت من حرام، وأودعت في حرام،
وأنفقت في حرام، وهو - رحمه الله - ترك دنائير؛ ليصون بها حسبه
ودينه.

أرأيت - أخني - كيف تبدلت الأمور، وتغيّرت المفاهيم؟ طالبت الغفلة
حتى نسي المسلم لماذا خُلِق، والله - جلّ وعلا - حدّد ذلك بقوله: ﴿وَمَا
خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]..

لما احتضر عبدالرحمن بن الأسود بكى، فقيل له. فقال: أسفاً على
الصلاة والصوم. ولم يزل يتلو حتى مات^(٢).

والخروج من هذه الدنيا خروج بكفن، وعمل صالح، تُحمل ملفوفاً
بكفن تاركاً وراءك قصوراً شيدتها ودوراً بنيتها، فيها أحباب وأصحاب،
وزوجات وأبناء.

وكل هذا لديك ولكنك ترحل بكفن. أرأيت كيف؟ قال عمر بن
الخطاب لابنه: اقتصدوا في كفني؛ فإن كان لي عند الله خيرٌ أبدلني ما هو
خيرٌ منه، وإن كنت على غير ذلك سلّمني فأسرع سلّمي. واقتصدوا في
حفرتي؛ فإنه إن كان لي عند الله خيرٌ أوسع لي منها مد بصري، وإن كنت
على غير ذلك ضيقها عليّ حتى تختلف أضلاعي^(٣).

قالت زينب بنت جحش حين حضرتها الوفاة: إني قد أعددت كفني،

(١) السير ٢٤٥/٤.

(٢) السير ١١٢/٥.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦.

فإن بعث لي عمر بكفن، فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذا أدليتُموني
أن تصدقوا بحقوقِي فافعلوا.

يـاربُّ أنـت رجائي
وفيك حَسَنَت ظنـي
يـارب فـاغفر ذنـوبي
وعـافني وعـاف عني
العـفو منك إلهي

والذنـب قد جاء مني
لما نزل الموت ببعض الصالحين، وكان على عليائه من العبادة
والزهد، شق عليه وساء ذلك، ف قيل له: أ تحب الحياة يا فلان؟ فقال: يا
قوم، القدوم على الله شديد.

ولمّا حضرت الحسن بن هانيء الوفاة أنشد:
دَبَّ فَيَّ السَّقَامُ سَفْلاً وَعَلَواً
وَأَرَانِي أَمُوتُ عَضُوءاً فَعَضُوءاً
ليس من ساعة مضت بي إلا
نقصتني بمُرَّهَا بي جزواً
لهف نفسي على ليالٍ وأيا
م قضيتُهن لعباً ولهُواً
قد أسأتُ كلَّ الإساءة فـا
للّهم صفحاً وغفراناً وعفواً^(١)

ودخل الحسن البصري على مريضٍ يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام - يرحمك الله -، فقال: يا أهلاه، عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه^(١).

مَشِينَاهَا خُطِي كُتِبَتْ عَلَيْنَا
وَمِنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطِي مَشَاهَا
وَأَرْزَاقُ لَنَا مَتَفَرِّقَاتٌ
فَمَنْ لَمْ تَأْتِهِ مَنَا أَتَاهَا
وَمَنْ كُتِبَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ

فليس يموتُ في أرضٍ سِوَاهَا^(٢)

وقد بكى سفيان الثوري ليلةً إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: أكلَ هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ تبنَةً من الأرض وقال: الذنوب أهون من هذه، وإنما أبكي خوفاً من سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يُغَمِّي عليه ثم يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١١٠: الأنعام]. فمن هذا خاف السلف، من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى. قال: واعلم أن

(١) التذكرة، ص ١٤.

(٢) التذكرة، ص ٩٤.

سوء الخاتمة - أعاذنا الله تعالى منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه. ما سُمع بهذا، ولا عُلِمَ به، والله الحمد، إنَّما تكون لمن له فسادٌ في العقيدة أو إصرارٌ على الكبيرة، وإقدام على العظائم، فربَّما غلب ذلك عليه حتى نزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطويّة، ويصطدم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة - والعياذ بالله -^(١).

قَرُبَ الرَّحِيلُ إِلَى دِيَارِ الْآخِرَةِ
فاجعل إلهي خير عمري آخره
وأرحم مبيتي في القبور ووحدتي
وأرحم عظامي حين تبقى ناخرة^(٢)

يروى عن عبدالله بن شرملة أنه قال: دخلت مع عامر الشعبي على مريضٍ نعوذه، فوجدنا لما به، ورجلٌ يلقِّنه الشَّهادة ويقول له: قل لا إله إلا الله، وهو يُكثر عليه، فقال له الشعبي: ارفق به، فتكلَّم المريض وقال: إِنْ يَلْقَنِي أَوْ لَا يَلْقَنِي، فَإِنِّي لَا أَدْعُهَا، ثم قرأ: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةً النَّفْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. فقال الشعبي: الحمد لله الذي نجَّى صاحبنا^(٣).

قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» [رواه أبو داود والحاكم].

(١) الجواب الكافي، ص ٢٤٥.

(٢) شذرات الذهب ٦٩/٧.

(٣) العاقبة، ص ١٣٦.

أخي المسلم:

لشهادة «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» عند الموت تأثيرٌ عظيمٌ في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنّها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إباطها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عزّها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذلّ ما كانت له، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرّد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقيق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همّها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجّه العبد وجهه بكلّيته إليه، وأقبل بقلبه ورورحه وهَمّه عليه. فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سرّه وعلا نيته فقال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه. وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه. قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلاً قلبه من الآخرة، فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربّه، لأنّه لقي ربّه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرّها علانيته، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرّ إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحُبّ الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله. فلو تجردت كتجرّدها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان.

ماذا يملك من أمره وناصيته بيد الله ونفسه بيده، وقلبه بين إصبعين من

أصابه يقلبه كيف يشاء، وحياته بيده وموته بيده، وسعادته بيده، وشقاوته بيده، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيتته. فلا يتحرك إلا بإذنه، ولا يفعل إلا بمشيته. إن وكله إلى غيره وكله إلى عجز وضعه وتفريط وذنوب وخطيئة، وإن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه، وجعله أسيراً له. فهو لا غنى له عنه طرفه عين، بل هو مضطراً إليه على مدى الأنفاس في كل ذرة من ذراته باطناً وظاهراً. فاقته تامة إليه، ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه، يتبغض إليه بمعصيته، مع شدة الضرورة إليه من كل وجه، قد صار لذكره نسيّاً واتخذته وراءه ظهيراً، هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه^(١).

وقال محمد بن قاسم: «دخلت على ابن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور، فقال: يا أبا عبد الله، تعال أبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير، قد نزل بي الموت، وقد من الله عليّ. أنه مالي درهم يحاسبني الله عليه. ثم قال: أغلق الباب ولا تأذن لأحد حتى أموت، وتدفنون كتي، واعلم أنني أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثاً غير كسائي ولبدي وإنائي الذي أتوضأ فيه وكتبي هذه، فلا تكلفوا الناس مؤنة. وكان معه صرة فيها ثلاثون درهماً، فقال: هذا لابني أهده قريب له، ولا أعلم شيئاً أحل لي منه؛ لأن النبي ﷺ قال: «أنت ومالك لأبيك»^(٢) وقال: «أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»^(٣) فكفوني منها، فإن أصبتم لي

(١) الفوائد، ص ٧٣.

(٢) صحيح: أخرجه البيهقي عن جابر والطبراني عن سمرة.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي والنسائي والبيهقي.

بعشرة ما يستر عورتني فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا على جنازتي
لبدي وغطوا عليها كسائي، وأعطوا إنائي مسكيناً»^(١).

من الموت لا ذو لصبرٍ ينجيهِ صبره
ولا لجزوع كاره الموت مَجْزَعُ
أرى كلَّ نفسٍ وإن طال عمرها
وعاشت لها سمٌّ من الموت مُنْقَع
فكلُّ امرئٍ لاقٍ من الموت سكرةً
له ساعةٌ فيها يذلُّ ويضرعُ
وإنَّك مَنْ يعجبك لا تك مثله

إذا أنت لم تصنع كما كان يصنع^(٢)
لَمَّا نزل الموتُ بسليمان التيمي قيل له: أبشر فقد كنت مجتهداً في
طاعة الله - تعالى -، فقال: لا تقولوا هكذا؛ فإنني لا أدري ما يبدو لي من
الله - عزَّ وجلَّ - فإنه يقول - سبحانه -: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا
يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]^(٣).

قال بعضهم: «عملوا أعمالاً كانوا يظنون أنها حسنات فوجدوها
سيئات»^(٤).

أخي الحبيب:

لا تُلْهِك الدنيا، ولا يغرك الأمل، ولكن:

(١) السير ١٢/١٩٩.

(٢) السير ٦/٢٩٥.

(٣) العاقبة، ص ١٣٣.

(٤) مثل عبادات خالطها الرياء.

تَزُودُ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ رَاحِلٌ
وَبَادِرُ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا شَكَّ نَازِلٌ
فَإِنَّهُ الْيَوْمَ نَازِلٌ بِقَرِيبٍ، وَغَدًا بِحَبِيبٍ، وَأَنْتَ تَتَخَطَّفُكَ الْمَنَايَا؛ فَإِنْ
طَالَ عَمْرُكَ فَإِنَّكَ تَرَى كَثْرَةً مِنْ يَقْبَرُ وَقَلَّةً مِنْ يَعِيشُ .
إِنْ تَبَسَّقْ تُفْجِعْ بِالْأَجْبَةِ كُلَّهُمْ
وَفَنَاءُ نَفْسِكَ لَا أَبَالَكَ أَفْجِعُ^(١)

لما احتضر سعيد بن مروان قال: «يا ليتني لم أكن شيئاً، ياليتني كهذا
الماء الجاري» ثم قال: «هاتوا كفني: أَفٍ لَكَ، ما أقصر طويلك وأقلَّ
كثرك»^(٢).

ولمّا احتضر عثمان بن عفان - رضي الله عنه - جعل يقول ودمه يسيل:
«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستعين بك
على أموري، وأسألك الصبر على بلائي»^(٣).

حَكَمَ الْمَنِيَّةُ فِي الْبَرِّيَّةِ جَارٍ
مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ^(٤)

وأي قرار في هذه الدنيا، فأين الأمم السابقة والآباء والأجداد؟ إنها
والله دار العمل والتزود من الطاعة قبل الرحيل؛ فالיום عمل ولا حساب
وغداً حساب ولا عمل، والخروج من دار العمل إلى دار الحساب شديد

(١) السير ٩/١٢.

(٢) السير ٢٥٠/٤.

(٣) العاقبة، ص ١٢٢.

(٤) السير ٩/١٩.

كما قال الفضيل بن عياض: «الدخول في الدنيا هين، ولكن الخروج منها شديد»^(١).

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز: «كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذي قبض فيه، خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعتة يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾» [القصص: ٨٣] ثم هدأ، فجعلت لا أسمع حركة ولا كلاماً، فقلت لوصيف له: انظر أناائم هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت»^(٢).

ألم تر أن الله يكفي عباده

فحسب عبادة الله بالله كافياً

وقيل إنَّ محمد بن المنكدر بكى بكاءً شديداً عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فرفع طرفه إلى السماء وقال: «اللهم إنك أمرتني ونهيتني فعصيت، فإن غفرت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت»^(٣).

أخي الحبيب:

هل وقفت لحظة تفكر في أنك ميت؟ ترى مكانك بعد الموت، ترى شدة الحساب. ثم إلى الجنة أو النار.

(١) مكاشفة القلوب، ص ١٥٧.

(٢) الثبات عند الممات، ص ٩٠.

(٣) الزهر الفائح، ص ٩١.

أؤمل أن أحيَا وفي كلِّ ساعةٍ
تمرُّ بي الموتى تُهرُّ نعوشها
وهل أنا مثلهم غير أن لي
بقايا ليالٍ في الزَّمان أعيشها^(١)

قال القعقاع بن حكيم: «قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء».

ويروى عن عبدالله بن المبارك أنَّه لمَّا احتضر نظر إلى السماء، فضحك ثم قال: «المثل هذا فليعمل العاملون»^(٢).

واحتضر بعض الصَّالحين فبكت امرأته فقال: ما يبكيك؟ قالت: عليك أبكي، قال: إن كنت باكية فابكي على نفسك، فأما أنا فقد بكيت على هذا اليوم منذ أربعين سنة.

يكي على ميتٍ ويغفل نفسه
كأنَّ بكفيه أماناً مِنَ الرَّدَى

وما الميت المقبور في صدر يومه
أحقُّ بأن يبكبه من ميت غداً^(٣)

قال بكير بن عامر: «كان لو قيل لعبدالرحمن بن أبي نعم قد توجَّه إليك ملك الموت، ما كان عنده زيادة عمل»^(٤).

وعن بكير بن عياض قال: «رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غداً

(١) وفيات الأعيان، ص ٥٥١٣.

(٢) العاقبة، ص ١٣٥.

(٣) الزهد للبيهقي، ص ١٢٧٨.

(٤) السير ٦٢/٥.

القيامه ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة»^(١).

نعم الاستعداد، ونعمت المحافظة على أوقاته التي صرفها في طاعة الله، فهو كما قال القائل:

ولو قيل لي مت قلت سمعاً وطاعةً
وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً^(٢)

أخي الحبيب:

أين نحن من هؤلاء في الخوف من الله وفي الحرص على الطاعات واجتناب المحرمات؟ أين المحافظة على الأوقات والساعات؟

ألم تفكر أخي الحبيب في لحظة احتضارك، وأنت تعلم أنك ستعاني منها؟ فإنَّ مشهد الاحتضار ذو لمسة عميقة مؤثرة، حين تبلغ الروح الحلقوم، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين، لا يملكون له شيئاً، ولا يدري ما يجري حوله، ولا ما يجري في كيانه، ويخلص أمره كله لله^(٣).

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

لا تستطيع أخي الحبيب أن ترفع يدك ولا تحرك لسانك؛ قدمك قد شلَّت، وعينك ذرفت، والجميع حولك، ولكن:
تفكَّرت في حشري ويوم قيامتي
وإصبح خدي في المقابر شادياً

(١) السير ٣٦٦/٥.

(٢) البداية والنهاية ١٣/١٣٦.

(٣) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص ١٥.

فريداً وحيداً بعد عزٍّ ورفعَةٍ
 رهيناً بجُرْمي والتراب وسادياً
 تفكّرت في طول الحساب وعرضه
 وذلّ مقامِي حين أعطى كتابياً
 ولكن رجائي منك ربّي وخالقي
 بأنّك تعفو يا إلهي خطائياً^(١)
 قام بلال بن سعد ينادي: «يا أهل الثُّقى، إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنّما
 تنقلون من دارٍ إلى دارٍ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن
 الأرحام إلى الدُّنيا، ومن الدُّنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف،
 ومن الموقف إلى الخلود في جنّةٍ أو نارٍ^(٢)» .
 أخِي الحبيب:

دعني أسخّ دموعاً لا انقطاعَ لها
 لو كنتَ تعلمُ مابي كنتَ تعذّرني
 كأنّني بين تلك الأهل منطرحاً
 على الفراشِ وأيديهم تقلّبني
 كأنّني وحولي من ينوح ومن
 يبكي عليّ وينعاني ويندبني
 وقد أتوا بطبيبٍ كي يعالجني
 ولم أر الطّبيب اليوم ينفعني

(١) مكاشفة القلوب، ص ٣٥.

(٢) السير ٩١/٥.

واشتدَّ نزعِي وصارَ الموتُ يجذبُها
 من كلِّ عرقٍ بلا رفقٍ ولا هونٍ
 واستخرجَ الرُّوحَ مِنِّي في تغرُّغرها
 وصارَ ريقِي مريراً حينَ غرُّغرتني
 وغمَّضوني وراحَ الكلُّ وانصرفوا
 بعدَ الإياسِ وجثُّوا في شرا الكفنِ

هديه ﷺ (١)

كان من هديه ﷺ تسجئة الميت إذا مات، وتغميض عينيه، وتغطية وجهه وبدنه، وكان ربما يُقبَّل الميت كما قبل عثمان بن مظعون، وبكى^(٢)، وكذلك الصديق أكبَّ عليه، فقبله بعد موته، ﷺ.

وكان يأمر بغسل الميت ثلاثاً أو خمساً أو أكثر، بحسب ما يراه الغاسل، ويأمر بالكافور في الغسلة الأخيرة، وكان لا يغسل الشهداء قتلى المعركة، وذكر الإمام أحمد أنه نهى عن تغسيلهم، وكان ينزع عنهم الجلود والحديد، ويدفنه في ثيابهم، ولم يُصل عليهم.

وكان إذا مات المُحرَّم، أمر أن يغسل بماء وسدر، ويكفن في ثوبيه وهما ثوبا إحرامه: إزاره ورداؤه، وينهى عن تطييبه وتغطية رأسه.

وكان يأمر من ولي الميت أن يُحسن كفنه، ويكفنه في البياض، وينهى عن المغالاة في الكفن، وكان إذا قصّر الكفن عن ستر جميع البدن، غطى رأسه، وجعل على رجليه من العشب.

(١) انظر: زاد المعاد ١/ ٥٠٢ - ٥٠٤.

(٢) حسن: أخرجه أبوداود والترمذي وابن ماجه عن عائشة.

الوقفه الثالثة

الجنابة

الجنائز

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «عودوا المريض، واتبعوا الجنائز تذكركم الآخرة»^(١).

والإنسان إذا تُقِنَّ موته وَجَّهَ للقبلة على جنبه الأيمن، فإذا خرجت روحه سُرَّ تغميضه وشد لحيه، ثم يُغَسَّل وَيُكَفَّن الرَّجُل في ثلاث لفائف بيض والمرأة في خمسة أثواب «إزار وخمار وقميص ولفافتين». وتحمل الجنائز؛ ليصلَّى عليها صلاة لا تصلَّى إلا مرة واحدة، وتكون آخر مرة يدخل المسجد.

واعلم - رحمك الله - أن في الجنائز عبرة للمعتبرين وفكرة للمتفكرين وتنبيهاً للناسين، وإيقاظاً للنائمين، بينما الإنسان في قيام وقعود ونزول وصعود، وخُذْ وهات ودع هذا، وابن هذا واهدم هذا، وقد كان، وأين ذهب فلان؟ ومن أين جاء فلان؟ إذ جاءه أمرٌ إلهيٌّ وحادثٌ سماويٌّ وحكم رباني فسكن حركته، وأطفأ شعلته، وأذهب نفرته، تركه كالخشبة الملقاة والحجر المرمي، إن صيح به لم يسمع، وإن دُعي لم يجب، وإن قُطِع أو أُحرق لم يتكلَّم. وحملوني على الأكتاف أربعة

من الرِّجال وخلفي من يشيعني

وقدَّموني إلى المحراب وانصرفوا

خلف الإمام فصلَّى ثم ودَّعني

(١) صحيح: أخرجه أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد.

صَلُّوا عَلَيَّ صَلَاةَ لَا رُكُوعَ لَهَا

(١) وَلَا سَجُودَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمَنِي

نظر عمر بن عبدالعزيز وهو في جنازة إلى قوم تلثموا من الغبار والشمس وانحازوا إلى الظل، فبكى وأنشد:

مَنْ كَانَ حِينَ نَصِيبِ الشَّمْسِ جِبْهَتُهُ

أَوْ الْغُبَارِ يَخَافُ الشَّيْثَانَ وَالشَّعْثَا

ويألف الظل كي تبقى بشاشته

فسوف يسكن يوماً راغماً جدثاً

في قعرٍ مظلمةٍ غبراء موحشة

يطيل في قعرها تحت الثرى اللبثا

تجهّزي بجهّازٍ تبلغين به

يا نفس قبل الرّدى لم تخلقي عبثاً (٢)

قال منازل بن سعيد: صلّينا خلف جنازة فيها داود الطائي وهو لا

يراني خلفه فقال: أوه ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١١﴾

[المؤمنون: ١١٠] ثم قال لنفسه:

يا داود، من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله قصر

عمله، وكل ماهو آتٍ قريب، واعلم يا داود أن كل شيء يشغلك عن

ربك فهو مشؤم، واعلم يا داود أن أهل الدنيا جميعاً من أهل القبور،

إنما يندمون على ما يخلفون، ويفرحون بما يقدمون. فيما عليه أهل

(١) موارد الظمآن ٣/ ٤٩١.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٢٩.

القبور يندمون، عليه أهل الدنيا يقتتلون وفيه يتنافسون، عليه عند القضاء يختصمون^(١).

أرأيت تلك الجنازة المحمولة؟ الناس حولها يهرولون، لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، ربما حُركت يمناً ويسرة وهي لا ترد شيئاً من ذلك، مقدمة على سؤال وجواب وجنة ونار.

قال أبو عمرو بن العلاء: جلست إلى جرير وهو يملئ عليّ كتابه شعراً، فاطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتي - والله - هذه الجناز. وأنشأ يقول:

تروّعنا الجنائز مقبلات

ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة ثلثة لمغار ذئب

فلما غاب عادت راتعات^(٢)

والجناز تمرُّ الآن ولا تدمع العيون، ولا تتحرك القلوب، ولا نرى التكدُّر في الحياة والحزن على الوجوه، إنَّها - والله - غفلة، وإلا فمن لا يعتبر بميت محمول إلى حفرة ضيقة.

أين نحن من هؤلاء؟!

قال الأعمش: «كنا نشهد الجنازة ولا ندري من المعزي فيها لكثرة الباكين، وإنَّما كان بكاؤهم على أنفسهم لا على الميت». وقال ثابت البناني: «كنا نشهد الجنازة فلا نرى إلا باكياً».

(١) الزهد للبيهقي، ص ٢٣٧.

(٢) العاقبة، ص ١٥٢.

وقال إبراهيم النخعي: «كانوا يشهدون الجنازة فيرى فيهم ذلك أياماً. كان فيهم الفكرة في الموت وفي حال الميت»^(١).
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

يوماً على آله حذاء محمول^(٢)

مع طول سلامتك واغترارك بصحتك وعافيتك، ألا تفكرت في يوم
تحمل فيه إلى القبر؟ إلا حملتك قدماك إلى الخير؟ ألا حملك
تفكيرك إلى الاستعداد لهذا اليوم الذي ستكون فيه غريباً وأنت غريب؟
ليس الغريب غريب الشام واليمن
إنَّ الغريب غريب اللحد والكفن

قال داود بن المحبر عن أبيه: مرَّ بنا الربيع بن برّة، ونحن نسوي
نعشاً لميت فقال: من هذا الغريب الذي بين أظهركم؟ قلنا: ليس
بغريب، بل هو قريب حبيب. قال: فبكى، وقال: من أغرب من
الميت بين الأحياء؟ قال: فبكى القوم جميعاً.

وكان محمد بن المنكدر مع صفوان بن سليم في جنازة وفيها نفرٌ من
العباد فلما صُلي عليها، قال صفوان: أما هذا فقد انقطعت عنه أعماله،
واحتاج إلى دعاء من خلف بعده، قال: فأبكى والله القوم جميعاً^(٣).
وما هذه الأيام إلا مراحِلٌ
تقرب من دار اللقا كل مُبْعَدٍ

(١) العاقبة، ص ١٥٣.

(٢) إرشاد العباد، ص ٢٤٦.

(٣) السير ٣٦٦/٥.

ومن سار نحو الدار خمسين حجةً
فقد حان منه المُلتقى وكأن قد
قال أسيد بن حضير: «ما شهدت جنازة وحدثت نفسي بشيء سوى
ما يُفعل بالميت وما هو صائر إليه^(١)» .
وهذه هي المشاهدة الحقة والاعتبار الصحيح . والعجيب أن هناك
من يرى الميت وكأنه جبلٌ من قسوته؛ فلا يهتز له طرف، ولا يتحرك
لديه إحساس، ولا تدمع منه عين، وكأن هذا لن يُطرقه والنعش لن
يُحمّله .

وما علم أنّ الميت من على نعشه ينادي:
ما أنا وحدي نُقلت حيث ترى
كلُّ إلى مثقله سينتقل^(٢)
لما مرت بالحسن البصري - رحمه الله - جنازةٌ قال: «يا لها من
موعظة ما أبلغها! وأسرع نسيانها، يا لها من موعظة لو وافقت من
القلوب حياةً» . ثم قال: «يا غفلة شاملة للقوم، كأنهم يرونها في
النوم؛ ميّت غداً يدفن ميّت اليوم»^(٣) .
وشهد الحسن بن صالح ذات يوم جنازة فلما قُرب الميت، ليدفن
نظر إلى اللحد فأرفض عرقاً، ثم غشي عليه، فحمل على السرير
الذي كان عليه الميت فرُدَّ إلى منزله^(٤) .

(١) العاقبة، ص ١٥٣ .

(٢) الإحياء ٥١٩/٤ .

(٣) العاقبة، ص ١٥٣ .

(٤) صفة الصفوة ١٥٥/٣ .

وقال إبراهيم النخعي: «كنا إذا حضرنا الجنازة أو سمعنا بميت عُرِفَ فينا أياماً؛ لأننا قد عرفنا أنه قد نزل به أمرٌ صيرَه إلى الجنة أو إلى النار، وإنكم في جنازتكم تتحدثون بأحاديث الدنيا»^(١)
 نسير إلى الأجل في كلِّ ساعةٍ
 وأيامنا تطوى وهن مراحِلُ
 ولم نر مثل الموت حقّاً كأنه
 إذا ماتخطته الأمانى باطلُ
 وما أقبح التفريط في زمن الصِّبا
 فكيف به والشَّيب في الرأس نازلُ
 أخى الحبيب:

ترحل عن الدُّنيا بزاٍ من التقى
 فَعُمرك أيامٌ تُعد قلائِلُ^(٢)
 كان أبوهريرة إذا مر بجنازة قال: «روحي فإننا غادون، أو اغدي فإننا رائحون، موعظةٌ بليغةٌ، وغفلةٌ سريعة، يذهب الأول ويبقى الآخر»^(٣)
 عن سويد بن غفلة قال: «إنَّ الملائكة تمشي أمام الجنازة وتقول: ما قدم؟ ويقول الناس: ما ترك؟»
 وقال العلاء بن محمد البصري: «شهدت عطاء السلمي خرج في

(١) حلية الأولياء ٤/٢٢٧.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص ١٢٩.

(٣) حلية الأولياء ١/٣٨٣.

جنازة فغشي عليه أربع مرات حتى صَلَّى عليه، كل ذلك يغشى عليه ثم يفيق، فإذا نظر إلى الجنازة خَرَّ مغشياً عليه»^(١).
وأبصر رجلٌ رجلاً آخر يضحك في جنازة فقال: «تضحك في جنازة! لا أكلمك أبداً»^(٢).

وتضحك يا بن آدم من مواطن الموت وفي ديار الأموات! أنت يا بن آدم كما قال الحسن: ابن آدم بين ثلاثة أشياء: بليّةٌ نازلة، ونعمة زائلة، ومنية قاتلة»^(٣).

وقال: «مات آخر لنا فصلينا عليه، فلما وضع في قبره ومُدَّ عليه الثوب، جاء صلة بن أشيم وأخذ بناحية الثوب، ثم نادى: يا فلان بن فلان.

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة
وإلا فإنني لا أخالك ناجياً
قال: فبكى وأبكى الناس»^(٤).

قدّم لنفسك ما استطعت من التقي
إنّ المنية نازل بك يا فتى
أصبحت ذا مزح كأنك لا ترى
أجاب قلبك في المقابر والبلوى
قال الحسن البصري لرجل حضر جنازة: «أترأه لو رجع إلى الدنيا

(١) صفة الصفوة ٣/ ٣٢٧.

(٢) الزهد، ص ٢٣.

(٣) الحسن البصري، ص ٤٤.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ٢٤١.

لعمل صالحاً؟ قال: نعم، قال: فإن لم يكن هو فكن أنت». الموت مُلاقينا مهما انشغلنا أو تناسينا. سيطرق الباب، وسيأخذ الأحباب والأصحاب. هو الموت ما منه ملاذٌ ومهربٌ متى حُطَّ ذا عَنْ نَعشه ذاك يركبُ نشاهد ذا عين اليقين حقيقةً عليه مضى طفلٌ وكهلٌ وأشيْبٌ ولكن علا الرّانُ القلوبَ كأننا بما قد علمناه يقيناً نكذبُ أخى، كلُّنا كذلك:

نؤمِّل آمالاً ونرجو نتاجها
وعَلَّ الرّدى ممّا نرجيه أقرب
ونبني القصور المشمخرات في الهوى
وفي علمنا أنّنا نموت وتُخربُ
إلى الله نشكو قسوةً في قلوبنا
وفي كلِّ يومٍ واعظُ الموت يندبُ
أبصر أبو الدرداء رجلاً في جنازة وهو يقول: جنازةٌ من هذا؟ فقال أبو الدرداء: هذا أنت هذا أنت، يقول الله - تعالى -: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (١) [الزمر: ٣٠].

هديه ﷺ (١)

وكان ﷺ إذا صَلَّى على مَيِّتٍ، تبعه إلى المقابر ماشياً أمامه. وهذه كانت سنة خلفائه الراشدين من بعده، وسنَّ لمن تبعها إن كان راكباً أن يكون وراءها، وإن كان ماشياً أن يكون قريباً منها، إمّا خلفها، أو أمامها، أو عن يمينها أو عن شمالها. وكان يأمر بالإسراع بها، حتى إن كانوا ليرملون بها رملًا.

وكان إذا تبعها لم يجلس حتى تُوضَعَ وقال: «إذا تبعتم الجنازة فلا تجلسوا حتى توضع» (٢).

(١) للاستزادة: انظر زاد المعاد ٥١٧/١ وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي سعيد.

الوقفه الرابعة

القبر

القبر

أخي الحبيب:

أما وقد أدخلت المقبرة محمولاً، وقربت من الأرض لتُنزل في حفرة ضيقة مظلمة موحشة، أنزلك أقرب أقربائك وأحب أحبابك، وعندها استقررت في لحدك. بسم الله وعلى سنة رسول الله، ووضعت على جنبك الأيمن، وكشف غطاء وجهك، ووضع اللُّبْنُ على لحدك، وبدأ حثو التراب عليك، ثم إذا فرغوا وقف أحدهم وقال: استغفروا لأخيكم، وسَلُّوا له التَّثْبِيت؛ فإنه الآن يُسأل.

قال ﷺ: «ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفضع منه»^(١).

وكان عثمان - رضي الله عنه - إذا وقف على قبر بكى، حتى يُبلل لحيته، ف قيل له: تذكر الجنة فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»^(٢).

فإن تنج منه تنج من ذي عزيمةٍ

وإلا فإنني لا أخالك ناجياً

ولما احتضر نافع بكى، ف قيل: ما يبكيك؟ قال: ذكرت سعداً وضغطة القبر (أي حديث عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «إن للقبر ضغطةً لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ»^(٣)).

(١) حسن: أخرجه الترمذي والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة.

(٢) الزهد، ص ١٨٩. والحديث حسن: أخرجه الترمذي والبيهقي والحاكم عن عثمان.

(٣) السير ٩٩/٥. والحديث صحيح: أخرجه أحمد عن عائشة.

وأنزلوني في قبرٍ على مهلٍ
 وأنزلوا واحداً منهم يلحدني
 وكشف الثوب عن وجهي لينظرني
 وأسبل الدَّمْع من عينيه أغرقني
 فقام محتدماً بالعزم مشتملاً
 وصَفَّف اللبن من فوقِي وفارقني
 وقال هُلُّوا عليه التراب واغتمموا

حُسْن الثَّوَاب من الرحمن ذي المنن^(١)
 لحظات ويتفرَّق من حولك، وتبقى رهين عملك، ويصبح قبرك
 روضة من رياض الجنة - جعلنا الله كذلك - أو حفرة من حفر النار -
 والعياذ بالله.

مر فارسي بغلام، فقال: يا غلام، أين العمران؟ اصعد الرّأية تشرف
 عليهم، فصعد فأشرف على مقبرة، فقال: إن الغلام لجاهل أو حكيم،
 فرجع فقال: سألتك عن العمران، فدللتني على مقبرة، فقال الغلام:
 «لأنِّي رأيت أهل الدنيا ينتقلون إليها ولا يرجعون»^(٢).

والناس في الدنيا لاهُونَ في معاشهم، مشغولون بدنياهم، أما
 صاحب القبر فقد وُسِّد ولحد في التُّراب.

ثوى مفرداً في لحدّه وتوزَّعت
 موارِيثه أولاده والأصاھر

(١) موارد الظمآن ٣/ ٤٩٢.

(٢) الذراري في ذكر الزراري، لابن العديم، بتصرف، ص ٦٢.

وأحنوا على أمواله يقسمونها
 فلا حامد منهم عليها وشاكر
 فيا عامر الدُّنيا ويا ساعياً لها
 ويا آمناً من أن تدور الدَّوائر^(١)
 انظر لحالي وتأمل في مالي :

أصبحت بقعر حفرتي مرتهاً
 لا أملك من دنيائي إلا كفناً^(٢)
 أما - والله - سيأتك مثل يومي ، وسيمر عليك ما مر بي ، ألا فاعتبر .
 قال أنس بن مالك : ألا أحدثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق
 بمثلهن : أول يوم يجيئك البشير من الله - تعالى - ؛ إما برضاه وإما
 بسخطه ، ويوم تُعرض فيه على ربك آخذاً كتابك ؛ إما بيمينك وإما
 بشمالك ، وليلة تستأنف فيها المبيت في القبور ولم تبت فيها قط ، وليلة
 تمخض صبيحتها يوم القيامة^(٣) .

يوم القيامة لا مال ولا ولد
 وضممة القبر تُنسي ليلة العرس
 كان داود الطائي في دار واسعة خربة ، ليس فيها إلا بيت وليس على
 بيته باب ، فقال بعض القوم : « أنت في دار وحشة ، فلو اتخذت لبيتك هذا
 باباً ، أما تستوحش ؟ فقال : حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدنيا .

(١) البداية والنهاية ١٢٦/٩ .

(٢) شذرات الذهب ٢٤٩/٥ .

(٣) التذكرة ، ص ٩٨ .

ومشيّاً داراً ليسكن داره

سكن القبور وداره لم تسكن^(١)

دخل مالك بن دينار المقابر ذات يوم فإذا رجل يُدفن، فجاء حتى وقف على القبر، فجعل ينظر إلى الرجل وهو يُدفن، فجعل يقول: مالكُ غداً هكذا يصير، وليس له شيء يتوسده في قبره، فلم يزل يقول غداً مالكُ يصير، حتى خرّ مغشياً عليه في جوف القبر، فحملوه فانطلقوا به إلى منزله مغشياً عليه^(٢).

تفكّر في مشييك والمآب

ودفنك بعد عزك في التراب

إذا وافيت قبراً أنت فيه

تقيم به إلى يوم الحساب

وفي أوصال جسمك حين تبقى

مقطعة ممزقة الإهاب

فطلق هذه الدُّنيا ثلاثاً

وبادر قبل موتك بالمتاب

أخي الحبيب:

نصحتك فاستمع قلبي ونصحي

فمثلك يُدلُّ على الصّواب

(١) السير ١٦٩/٧.

(٢) صفة الصفوة ٢٨٠/٣.

خُلِقْنَا لِلْمَمَاتِ وَلَوْ تَرَكْنَا
لضاق بنا الفسيح من الرحاب
يُنَادِي فِي صَبِيحَةٍ كُلِّ يَوْمٍ
لِذُّوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ^(١)

وكان سلفنا الصالح لا يفارقهم التفكير في الآخرة؛ فإن رأوا من نعيم الدنيا دعوا الله نعيم الجنة، وإن رأوا من شدة الدنيا وقسوتها تعوذوا بالله من النار.

كان هشام بن أبي عبد الله إذا فقد السراج في بيته تملّل على فراشه، وكانت امرأته تأتيه بالسراج، فقالت له في ذلك فقال: «إذا فقدت السراج ذكرت ظلمة القبر»^(٢).

ففي ظلمة القبر لا أمٌ هناك ولا
أبٌ شفيقٌ ولا أخٌ يُؤنسُنِي
وذكر بعض الأفاضل أنه اجتاز جسراً معلقاً مع أحد الدعاة، ولما رأى ارتفاع الجسر وضيقه وظهرت عليه آثار الخوف قال له الداعية: هل تذكرت الصراط ودقته؟

هل منا من اعتبر بتلك الأمور؟ هل منا من وقف على القبر واعتبر وتفكر في المآل؟

خرج داود الطائي في جنازة، فقعد ناحية وهي تدفن، فجاء الناس فقعدوا قريباً منه فتكلم فقال: «من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن

(١) إرشاد العباد ٤٩.

(٢) صفة الصفوة ٣/٣٤٩.

طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آتٍ قريب».

واعلم - يا أخي - أنَّ كلَّ ما يشغلك عن ربِّك فهو عليك مشئوم، واعلم أن أهل القبور يفرحون بما يقدمون، ويندمون على ما يخلفون، أهل الدنيا يقتتلون ويتنافسون فيما عليه أهل القبور يندمون^(١).

هذه المقابر كم حوت؟ وبأجسامهم ماذا فعلت؟ ظاهرها السكون والصمت. قبورٌ متفرقة. أما ماذا بداخلها فاستمع:

إنِّي سألت القبر: ما فعلت
 بعدي وجوه فيك مُنَعَفرة
 فأجابني: صيرت ريحهم
 تؤذيك، بعد روائح عطرة
 وأكلت أجساداً منعمةً
 كان النعيم يهزُّها نضرة
 لم أبق غير جماجم عريّت
 بيض تلوح وأعظم نخرة^(٢)

كل امرئٍ يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله، وتنطوي عليها صحيفة عمله، فخذ من نفسك لنفسك، وقس يومك بأمسك، وكف عن سيئاتك، وزد في حسناتك، قبل أن تستوي مدة الأجل، وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل^(٣).

(١) صفة الصفوة ٣/١٣٥.

(٢) أبو العتاهية، ص ٢٠٤.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص ١٢٣.

خرج علي بن أبي طالب - رضي الله عنه إلى المقبرة، فلما أشرف عليها قال: يا أهل القبور، أخبرونا عنكم أو نخبركم، أما خبر من قبلنا، فالمال قد اقتسم، والنساء قد تزوجن، والمساكن قد سكنها قومٌ غيركم، ثم قال: أما - والله - لو استطاعوا لقالوا: لم نر زاداً خيراً من التقوى^(١).

سألت الدّار تخبرني
عن الأبواب ما فعلوا
فقلت لي أناخ القو
م أياماً وقد رحلوا
فقلت: فأين أطلبهم
وأني منازل نزلوا
فقلت بالقبور وقد
لقدوا والله ما فعلوا

تمر بنا الأيام سراعاً، وننسى من دفناه من أحببنا وأقاربنا. كم مرة توقفنا عن الحديث في الدنيا وتحدثنا عن الموت والحساب. كم مرة تفكرنا في القبر؟

قال عمر بن عبدالعزيز لبعض جلسائه: «يا فلان، لقد أرقّت البارحة تفكراً في القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت في قبره بعد ثلاثٍ لاستوحشت منه بعد طول الأنس به، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخرقه الديدان، مع تغير الريح، وتقطع الأكفان.

(١) التذكرة، ص ١٣.

وكان ذلك بعد حُسن الهيئة، وطيب الريح، ونقاء الثوب» ثم شهق شهقة ثم خرّ مغشياً عليه^(١).

تَبَّه قبل الموت إن كنت تعقل
فَعَمَّا قليل للمقابر تُنْقَلُ
وَتُمْسِي رهيناً في القبور وتنشي
لدى جَدثٍ تحت الثرى تتجندلُ
فريدأ وحيدأ في الثراب وإنما
قرين الفتى في القبر ما كان يعمل^(٢)

كان عمر بن عتبة - رضي الله عنه - يخرج كل ليلة إلى المقابر، ويقول: «يا أهل القبور! طويت الصحف، ورفعت الأقلام». ثم يصف قدميه، ويصلي إلى الصُّباح.

أَتَيْت القبور فناديتها
فَأَيُّنَ المعظم والمحتقر
وَأَيُّنَ المدل بسطوانه
وَأَيُّنَ العظيم إذا ما افتخر
تنادوا جميعاً فلا مخبرٌ
وماتوا جميعاً وأضحوا عبر

وقد شيع عمر بن عبدالعزيز جنازة، فلما انصرفوا تأخر عمر وأصحابه ناحية عن الجنازة، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين، جنازة أنت وليه

(١) العاقبة، ص ١٩١.

(٢) عقود اللؤلؤ والمرجان، ص ٢٩١.

تأخرت عنها وتركتها؟ فقال: نعم، ناداني القبر من خلفي: يا عمر بن عبدالعزيز، ألا تسألني ما صنعت بالأحبة؟ قلت: بلى، قال: خرقت الأكفان، ومزقت الأبدان، ومصصت الدّم، وأكلت اللحم. ألا تسألني ما صنعت بالأوصال؟ قلت: بلى، قال: نزعنا الكتفين من الذراعين، والذراعين من العضدين، والعضدين من الكتفين، والوركين من الفخذين، والفخذين من الركبتين، والركبتين من الساقين، والساقين من القدمين. ثم بكى عمر، فقال: ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وشبابها يهرم، وحيثها يموت، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها^(١).

ضعوا خدي على لحدي ضعوه
ومن عفسر التُّراب فوسَّدوه
وشقُّوا عنه أكفاناً رقاقاً
وفي الرَّمَس البعيد فغيَّوه
فلو أبصرتموه إذا تقصَّصت
صبيحة ثالِثٍ أنكرتموه
وقد سالت نواظر مقلتيه
على وجناته وانفضَّ فسوه
وناداه البلى: هذا فلان
هلمُّوا فانظروا هل تعرفوه

(١) حلية الأولياء ١٦١/٥.

حبيبيكم وجاركم المفدى

تقــادم عهــده فـنـسـيتمــوه^(١)

قال بعض الحكماء: «أربعة أبحر لأربعة: الموت بحر الحياة، والنفس بحر الشهوات، والقبر بحر التَّدَامات، وعفو الله بحر الخطيئات»^(٢).

فنسأل الله العظيم أن يجعل القبر خير بيتٍ نغمره ونسكنه؛ حتى نصير إلى جناتٍ عرضها السَّمَاوَات والأَرْض في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

قال أبو عياش القطان: «كانت امرأة بالبصرة متعبدة يقال لها مُنيّة، ولها ابنة أشد عبادة منها، فكان الحسن ربما رآها، وتعجّب من عبادتها على حدّاتها، فبينما الحسن ذات يوم جالس إذ أتاه آتٍ، فقال: أما علمت أن الجارية قد نزل بها الموت؟ فوثب الحسن فدخل عليها، فلما نظرت إليه الجارية بكت، فقال لها: يا حبيبتى، ما يبكيك؟ فقالت له: يا أباسعيد، التُّراب يُحَثَّى على شبابي، ولم أشبع من طاعة ربِّي، يا أبا سعيد، أنظر إلى والدتي وهو تقول لوالدي: احفر لابنتي قبراً واسعاً، وكفّنها بكفنٍ حسن، والله، لو كنت أُجهز إلى مكّة لطال بكائي، كيف وأنا أُجهز إلى ظلمة القبور ووحشتها وبيت الظُلْمة والدُّود»^(٣).

إنَّ الأماكـن في المعاد عـزـيـزة

فاختر لنفسك إن عقلت مكاناً

(١) التذكرة، ص ١١٤.

(٢) تسليّة أهل المصائب، ص ١٩٣.

(٣) صفة الصفوة ٢٧/٤.

قال أبو الدرداء: «ألا أخبركم بيوم فقري؟ يوم أنزل قبري»^(١).
وهذا هو الفقر الأبدي لا فقر الدنيا؛ ففي هذه الحفرة الضيقة لا عمل
تزيد به الحسنات أو تحط به الخطيئات إلا ما قدمت؛ فالיום حساب بلا
عمل.

شهد عمر بن ذر جنازة وحوله الناس، فلما وضع الميت على شفير
القبر بكى عمر، ثم قال: «أيها الميت أما أنت فقد قطعت سفر الدنيا،
فطوبى لك إن توسدت في قبرك خيراً»^(٢).

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على القبور قال: «ما أحسن
ظواهرك، إنما الدواهي في بواطنك»

ياخذُ إنَّك إن توسَّد ليَّنا
وُسِّدتَ بعد الموت صم الجنِّدِ

فاعمل لنفسك في حياتك صالحاً
فلتندمن غداً إذا لم تفعل

قال بعضهم: كفتك القبور مواعظ الأمم السالفة^(٣).
مالي وقفت على القبور مسلماً

قبر الحبيب فلم يرد جوابي
أجب، مالك لا ترد جوابنا

أنسيت بعدي خلَّة الأجاب

(١) العاقبة، ص ١٩٠.

(٢) حلية الأولياء ١١٦/٥.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص ١٣٠.

قال الحبيب: وكيف لي بجوابكم
 وأنا رهين جنادلٍ وتراب
 أكل التراب محاسني فنسيتكم
 وحُجِبْتُ عن أهلي وعن أقراني
 فعليكم منِّي السَّلام تقطَّعت
 منِّي ومنكم خُلَّة الأُحباب^(١)
 وبات هرم بن حيان عند حممة صاحب رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال
 له هرم: يا حممة، ما أبكاك؟ قال: «ذكرت ليلة صبيحتها تُبعثر القبور،
 فيخرج من فيها»^(٢).
 ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته، فوقف على
 قبره، وبكى ثم قال: «والله يا أخي، لا تقرُّ عيني بعدك حتى أعلم إلى ما
 صرت إليه، ولا والله أعلم ذلك مادمت حياً»^(٣).
 سلامٌ على أهل القبور الدوارس
 كأنهمو لم يجلسوا في المجالس
 ولم ييلُغوا من بارد الماء لذة
 ولم يطعموا ما بين رطبٍ ويابس
 ولم يك منهم في الحياة منافس
 طويل المنى فيها كثير الوسوس

(١) ديوان الإمام علي، ص ٣٠.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢١٤.

(٣) العاقبة، ص ١٥٣.

لقد صرتم في موحش التُّرب والثَّري
وأنتم بها مابين راج وآيس
فلو عقل المرء المنافس في الذي
تركتم من الدُّنيا إذا لم ينافس^(١)
قال سفيان الثوري: «من أكثر من ذكر القبر وجده روضةً من رياض
الجَنَّة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرةً من حفر النَّار»^(٢).
تزود قريناً من فعالك إنَّما
قرين الفتى في القبر ما كان يفعلُ
فإن كنت مشغولاً بشيءٍ فلا تكن
بغير الذي يرضى به الله تشغلُ
فلن يصحب الإنسان بعد موته
إلى قبره إلا الذي كان يعملُ
ألا إنَّما الإنسان ضيفٌ لأهله
يقيم عندهم قليلاً ثمَّ يرحلُ^(٣)
ووالله، لم نر أحداً لم يرحل. رحل الصَّغير والكبير. من طال بهم
العمر، ومن قصر بهم الأجل.
شيع الحسن جنازة فجلس على شفير القبر، فقال: «إنَّ أمراً هذا آخره
لحقيقٌ أن يُزهد في أوله»^(٤)، وإنَّ أمراً هذا

(١) أبو العتاهية، ص ٢٢٤.

(٢) تسلية أهل المصائب، ص ١٩٤.

(٣) عقد اللؤلؤ، ص ٩٠.

(٤) يعني الدنيا.

أوله^(١) لحقيق أن يُخاف آخره^(٢).

وقال أحمد بن حرب - رحمه الله -: «تتعجب الأرض ممن يمهّد مضجعه، ويسوي فراشه للنّوم، تقول: يا بن آدم، ألا تذكر طول رقادك في جوفي، وما بيني وبينك شيء^(٣)؟»

أخي الحبيب:

أي شيء بينك وبين الموت؟! كم من أصبح ولم يمس وكم من أمسى ولم يصبح..

كتب رجلٌ إلى صالح بن عبدالقدوس الموت بابٌ وكلُّ النَّاس داخله

فليت شعري بعد الباب ما الدّارُ

فأجاب بقوله:

الدّار جنّةٌ عدن إن عملت

بما يرضي الإله وإن فرّطت فالنّارُ

هما محلّان ما للنّاس غيرهما

فانظر لنفسك ماذا أنت مُختار^(٤)

وكان مغيث الأسود يقول: «زوروا القبور كلّ يوم بفكركم، وتوهّموا

جوامع الخير كلّ يومٍ في الجنة بعقولكم، وانظروا إلى المنصرف

(١) يعني الموت.

(٢) المدهش، ص ١٩٠.

(٣) العاقبة، ص ١٩٥.

(٤) أدب الدنيا والدين، ص ١٣١.

بالفريقين إلى الجنة أو النار بهممكم، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها»^(١).

ومن تذكر الموت وانقطاع العمل والتزود من الحسنات فإن ذلك يبعث الهمم ويقوي العزائم. لو أراد الميت تسبيحة واحدة أو تحميدة واحدة لم يستطع. فالبدار البدار.

كان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: «ويحك يا يزيد. من ذا الذي يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يرضي ربك بعد الموت؟ ثم يقول: أيُّها النَّاسُ، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ ويا من الموت موعده، والقبر بيته، والثرى فراشه، والدُّود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر. كيف يكون حاله؟» ثمَّ يبكي حتى يسقط مغشياً عليه^(٢).

أمرٌ على المقابر كلَّ حينٍ
ولا أدري بأيِّ الأرض قبري
وأفرح بالغنى إن زاد مالي
ولا أبكي على نقصان عمري
قال السري: «اجعل قبرك خزانة، احشوها من كلِّ عملٍ يمكنك، فإذا وردت على قبرك سرَّك ما ترى فيه»^(٣).

(١) حلية الأولياء ١٠/١٤٣.

(٢) العاقبة، ص ٤٠.

(٣) الزهد للبيهقي، ص ٢٢٩.

ولو أجاب الميّت لقال:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كَانَ لِي أَمَلٌ
قَصَّرَ بِي عَنْ بُلُوغِهِ الْأَجَلَ
فَلَيْتَنِي قَرَّبَ اللَّهُ رَبِّيَ رَجُلًا

أَمَكَّنَهُ فِي حَيَاتِهِ الْعَمَلِ
مَا أَنَا وَحْدِي نَقَلْتُ حَيْثُ تَرَى

كُلُّ إِلَهِي مِثْلَهُ سَيَتَقَلُّ^(١)

وقد مرَّ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بالمقابر فوقف عليها، فقال: «السَّلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع»، وبكم عمَّا قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي في جميع أحواله عن الله - تعالى -^(٢)

وكان بدءُ توبة داود الطائي أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

مَقِيمٌ إِلَهِي أَنْ يَعْثُثَ اللَّهُ خَلْقَهُ

لِقَاؤِكَ لَا يُرْجَى وَأَنْتِ قَرِيبٌ

تَزِيدُ بِلَى فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ

وَتُسَلَّى كَمَا تُبَلَّى وَأَنْتِ حَيٌّ^(٣)

(١) مكاشفة القلوب، ص ١٣٨.

(٢) العاقبة، ص ١٩٦.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٣٢.

أخي الحبيب: أين نحن من سنّة زيارة المقابر والاتعاظ بما نراه فيها من
 الأموات الذين أخذوا بدون علم ودُفِنوا بدون ردٍّ؟
 قف بالمقابر واذكر إن وقفت بها
 لله درُّك ماذا تستر الحفر
 ففيهمو لك يا مغرور موعظة
 وفيهمو لك يا مغرور معتبر
 كانوا ملوكاً توارىهم قصورهم
 دهرأ فوارتهم من بعدها الحفر^(١)
 يعجب الإنسان حين يرى البعض وهم في المقابر يتضحكون، وكأنَّ
 أديم الأرض لم يَحْوَِ رفات الأموات! تراه لاهياً ساهياً، ربّما تحدّث طويلاً
 في كلّ شيء سوى هذا اللحد وذاك القبر! والميت بين يديه! أليست غفلة؟!
 وأي غفلة من هذا؟! وأين؟ في وسط قبور متراسة وجيرة متباعدين.
 روى عن الحسن البصري أنه رأى رجلاً يأكل في المقابر، فقال: «هذا
 منافق؛ الموت بين عينيه، وهو يشتهي الطَّعام»^(٢).
 لو زرت المقابر ورأيت البنيان حولها لردّدت:
 لكل أناس مقبر بفنائهم
 فهم ينقصون والقبور تزيد
 هم جيزة الأحياء أما محلهم
 فدانٍ وأما الملتقى فبعيد^(٣)

(١) موارد الظمآن ٧٤/٢.

(٢) تنبيه الغافلين ٦١٧/٢.

(٣) وفيات الأعيان ٢٤/٧.

أخي:

تذكر إذا بدأ الناس ينصرفون من المقبرة، وقد وُئِدَتْ قَبْرُكَ، وأدخلت
لحدك، عاد الصمت والسكون. رحمك الله وأنس وحشتك.

أَنَسَ اللهُ وحشتَكَ

رَحِمَ اللهُ وحِدتَكَ

أَنْتَ فِي صحبةِ البلى

أَحْسَنَ اللهُ صحبتَكَ (١)

القبر

هديه صلى الله عليه وسلم^(١)

وكان من هديه ﷺ ألا يدفن الميت عند طلوع الشمس، ولا عند غروبها، ولا حين يقوم قائم الظهيرة، وكان من هديه اللحد وتعميق القبر وتوسيعه من عند رأس الميت ورجليه، ويذكر عنه أنه كان إذا وضع الميت في القبر قال: «بسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله»^(٢).

ويذكر عنه أيضاً أنه كان يحثو التراب على قبر الميت إذا دُفِن من قبل رأسه ثلاثاً. وكان إذا فرغ من دفن الميت قام على قبره هو وأصحابه، وسأل له التثبيت، وأمرهم أن يسألوا له التثبيت.

ولم يكن من هديه ﷺ تعلية القبور ولا بناؤها بآجر، ولا بحجر ولبن، ولا تشييدها، ولا تطيينها، ولا بناء القباب عليها.

ونهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً، ولعن زوارات القبور.

وكان هديه ﷺ أن لا تُهان القبور وتوطأ، وألا يُجلس عليها، ويُتكأ عليها، ولا تُعظم بحيث تتخذ مساجد، فيصلى عندها وإليها، وتتخذ أعياداً وأوثاناً.

(١) للاستزادة انظر زاد المعاد ٥٢١/١ وما بعدها.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي وأبوداود وابن ماجه عن ابن عمر.

الوقفة الخامسة

التعزية

التعزية

قال ﷺ: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه - الله سبحانه - من حُلل الكرامة يوم القيامة»^(١).

بعد الموت جاء المعزّون زرافاتٍ ووحداناً، امتثالاً لأمر ربّهم واهتداءً بسنة نبيهم ﷺ، جاءوا يعزون أهل الميت، فهو حبيبهم وأنيسهم؛ ولكنهم رضوا بقضاء الله وقدره، كيف لا وهم يرغبون فيما عند الله من الأجر العظيم والثواب الجزيل؟ ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

قال ابن جريج: «من لم يتعزَّ عند مصيبته بالأجر والاحتساب سلا كما تسلو البهائم».

وعزّي الشافعي رجلاً بهذين البيتين:

إني معزيك لا أراني على ثقة
من الخلود ولكن سنة الدّين
فما المعزّي بباقي بعد ميتة

ولا المعزّي ولو عاشا إلى حين
قال مشيط بن عجلان: «النّاس رجلان، فمتزوّد من الدّنيا ومتنعّم فيها، فانظر أيّ الرجلين أنت؟ إنّي أراك تحبّ طول البقاء في الدنيا فلا يّ شيء تحبّه؟ أن تطيع الله - عزّ وجلّ -، وتحسن عبادته، وتتقرّب إليه بأعمال

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه.

صالحة، فطوبى لك، أم لتأكل، وتشرب، وتلهو، وتلعب، وتجمع الدنيا، وتثمرها، وتنعم زوجتك وولدك؟ فلبئس ما أردت له البقاء. ونحن يا أخوتي - كما قال بعض الزهاد: «لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بماله»^(١).

سير المنايا إلى أعمارنا خيب
فما تبين ولا يعتاقها نصيب
كيف النجاء وأيديها مُصممة
بذبحنا بمُدى ليست لها نصيب
وهل يؤمل نيل الشمل مُلتئماً
سفر لهم كل يوم رحله عجب^(٢)

قال عبيد بن عمير: «كان لرجل ثلاثة أخلاء بعضهم أخص له من بعض، فنزلت به نازلة، فلقي أخص الثلاثة به فقال: يا فلان، إنه نزل بي كذا وكذا، وإني أحب أن تُعينني، قال: ما أنا بالذي أفعل، فانطلق إلى الذي يليه في الخاصة، فقال: يا فلان، إنه قد نزل بي كذا وكذا، وأنا أحب أن تُعينني، قال: فانطلق معك حتى تبلغ المكان الذي تريد، فإذا بلغت رجعت وتركتك، قال: فانطلق إلى أبعد الثلاثة، فقال: يا فلان، قد نزل بي كذا وكذا فأنا أحب أن تُعينني، قال: أنا أذهب معك حيث ذهبت، وأدخل معك حيث دخلت، قال: فالأول ماله، خلفه في أهله ولم يتبعه منه شيء، والثاني أهله وعشيرته ذهبوا معه إلى قبره، ثم رجعوا

(١) العاقبة، ص ٤٣.

(٢) إرشاد العباد، ص ٨٢.

وتركوه، والثالث هو عمله وهو معه حيثما ذهب، ويدخل معه حيثما دخل»^(١).

النَّفْس تبكي على الدُّنيا وقد علمت
 أَنَّ السَّلَامَةَ فِيهَا تَرَكُ مَا فِيهَا
 لَا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا
 إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ بَانِيهَا
 فَإِنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهَا
 وَإِنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا
 أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمُهَا
 وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبِيهَا
 كَمْ مِنْ مَدَائِنٍ فِي الْآفَاقِ قَدْ بُنِيَتْ
 أُمْسَتْ خَرَاباً وَدَانَ الْمَوْتُ دَانِيَهَا
 لِكُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى وَجَلٍ
 مِنْ الْمَنِيَةِ أَمْالَ تَقْوِيَهَا
 فَالْمَرْءُ يَسْطُهَا وَالْدَّهْرُ يَقْبِضُهَا

والنفس تنشرها والموت يطويها^(٢)

وسئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم الأبق على سيده الغضبان.

(١) حلية الأولياء ٢٦٩/٣.

(٢) ديوان الإمام علي، ص ٢١٠.

أخي الحبيب:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا
 فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ
 يُسْعَى عَلَيْكَ بِمَا اشْتَهَى
 يَتَلَدَّى الرُّوْحُ فِي الْبُكُورِ
 فَإِذَا النَفْسُ تَقَعَّقَعَت
 فِي ضَيْقِ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ
 فَهَنَّاكَ تَعْلَمُ مَوْقِفَنَا
 مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ
 كَانَ حَمِيدُ الطَّوِيلِ قَائِمًا يَصْلِي فَمَاتَ، فَذَكَرُوهُ لَابْنِ عَوْنٍ وَجَعَلُوا
 يَذْكُرُونَ مِنْ فَضْلِهِ، فَقَالَ: احْتَاجُ حَمِيدًا إِلَى مَا قَدَّمَ^(١).
 وَقَالَ أَبُو السُّورِ حَسَّانُ بْنُ حَرِيثٍ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ
 طَلْعِمْ فِي عَنَقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]. قَالَ: هُمَا نَشْرَتَانِ وَطِيَّةٌ، أَمَا مَا حَيَّتْ يَا بَنَ
 آدَمَ فَصَحِيفَتِكَ مَنَشُورَةٌ فَأَمَلْ فِيهَا مَا شِئْتَ، فَإِذَا مَتَّ طُوِيْتُ، ثُمَّ إِذَا بَعَثْتَ
 نَشَرْتَ ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٢) [الإسراء: ١٤].
 فَصَحِيفَةُ الْحَيِّ كِتَابٌ يُدَوَّنُ فِيهِ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى عَمْرُهُ طُوِيْتُ تِلْكَ
 الصَّحَائِفُ لِلْحِسَابِ. فَصَحَفْنَا مَنَشُورَةً، وَلَكِنْ مَاذَا يَدُونُ فِيهَا؟
 عَنْ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِأَخِيهِ: أَيُّ أَخِي، هَلْ أَتَاكَ أَنْكَ وَارِدُ
 النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ أَتَاكَ أَنْكَ خَارِجٌ مِنْهَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَفِيمَ

(١) تَذَكُّرَةُ الْحِفَاطِ ١/١٥٢.

(٢) صِفَةُ الصَّفْوَةِ ٣/٢٣٠.

الضحك إذا؟ فما رؤي ضاحكاً حتى مات^(١).
وقد أنا نار وروود النار ضاحية
حقاً يقيناً ولماً يأتينا الصُّدُرُ
عجباً لذاكر الموت كيف يلهو؟ ولخائف الفوت كيف يسهو؟
ولمتيقن حلول البلى ثم يزهو! وإذا ذكرت له الآخرة مرّ يلغو! (٢)
فما لك يوم الحشر سوى الذي تزودته
قبل الممات إلى الحشر
إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً
ندمت على التفريط في زمن البذر
قال عمر بن عبدالعزيز لأبي حازم: عظمي. فقال: «اضطجع، ثم
اجعل الموت عند رأسك ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فجداً
فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك فدعه الآن».
ووالله لو اضطجعنا وأقمنا الموت عند رؤوسنا لتركنا الكثير من
أعمالنا، وأقوالنا، وأفعالنا، ولظهر الاجتهاد في العمل والإخلاص في
النيّات، ولتضاءلت الحياة؛ استعداداً لللمات.
عن ثابت بن مطرف أنه كان يقول: «يا إخوتاه، اجتهدوا في العمل؛ فإن
يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات في الجنة، وإن
يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحاذر لم نقل ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ
الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، نقول: قد عملنا فلم ينفعنا ذلك».

(١) التذكرة، ص ٣٩٠.

(٢) المدهش، ص ١٨١.

اعْمَلْ فَأَنْتَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى حَذَرٍ
واعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَبْعُوثٌ
واعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ

مَحْصَىٰ عَلَيْكَ وَمَا جَمَعْتَ مَمْرُوثٌ^(١)

وقال رجلٌ لزهير بن نعيم: يا أبا عبد الرحمن، توصي بشيء؟ قال:
«نعم، احذر أن يأخذك الله وأنت على غفلة»^(٢).

وهذه هي النصيحة الباقية، والمحبة في الله؛ حثٌّ على الطاعات،
وتواصٍ باجتناب المحرمات.

لَا أَلْفِيَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدِبُنِي

وَفِي حَيَاتِي مَا زُوْدْتَنِي زَادًا^(٣)

قال أبو حازم: «يا بن آدم، بعد الموت يأتيك الخبر»^(٤).

وهو خبر لا ينفع فيه الندم، ولا يجدي معه التحسُّر.

وَفِي الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَشْرُ صَحَائِفٍ

وَمِيزَانُ قِسْطٍ طَائِشٌ أَوْ مَثْقَلٌ

وَنَشْرُ يَشِيبُ بِطِفْلِ مَنْ عَظُمَ هَوْلُهُ

وَفِيهِ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ تَزْلُزَلُ^(٥)

فتوهم يا أخي أنَّ الكتب قد تطايرت، والموازين قد نصبت، وقد

(١) حلية الأولياء ١٠/٢٢٦.

(٢) صفة الصفوة ٩/٤.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص ١٨٧.

(٤) شرح الصدور، ص ٢٢.

(٥) عقد اللؤلؤ، ص ٧٩.

نوديت باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان ابن فلان^(١).

قال إبراهيم بن أبي عبدة: بلغني أن المؤمن إذا مات تمنى الرجعة إلى الدنيا؛ ليس ذلك إلا ليكبر تكبيرة، أو يهلل تهليله، أو يسبح تسيحة^(٢).

والوقت فيه للحَيِّ مُتَّسِعٌ، ولكن تُترك تلك الدقائق النفيسة تذهب سُدىً، فَإِنَّ الزَّمنَ يَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، ويجري جري الرِّيحِ، ومهما طال عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا فهو قصير ما دام الموت هو نهاية كلِّ حيٍّ. ورحم الله الشاعر الذي قال:

وإذا كان آخر العمر موتاً

فسواء قصيره والطويل

وعند الموت تنكمش الأعوام والعقود التي عاشها الإنسان حتى لكانها لحظات مرّت كالبرق الخاطف^(٣).

نسير إلى الآجال في كلِّ لحظةٍ

وأيماننا تطوى وهن مراحلُ

ولم أر مثل الموت حقاً كائنُه

إذا ما تخطته الأمانى باطلُ

وما أقبح التفريط في زمن الصِّبا

فكيف به والشَّيب للرأس شاعل؟

(١) التذكرة، ص ٢٩٤.

(٢) شرح الصدور، ص ٨.

(٣) الوقت في حياة المسلم، ص ٩.

تَرْحَلُ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التَّقَى

فَعُمُرُكَ أَيْامٌ وَهَنَ قَلَائِلُ^(١)

فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة مواعده، والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا منه ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا انتظار وترئص إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى، ويراه في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت^(٢).

أخي الحبيب:

إِذَا كَانَ غَيْرُكَ قَدْ أَجَابَ الدَّاعِيَ

فَكَأَنَّني بِكَ قَدْ نَعَاكَ النَّاعِيَ

قَدْ طَالَ بَاعُكَ وَالْمَنِيَّةُ بَعْدَ ذَا

لَيْسَتْ إِذَا طَالَتْ قَصِيرَةٌ بِبَاعٍ

قال الأوزاعي: «من أكثر من ذكر الموت كفاه اليسير، ومن علم أن منطقته من عمله قلّ كلامه»^(٣).

لَقَدْ أَخْبَرْتُكَ الْحَادِثَاتِ نَزُولَهَا

وَنَادَتْكَ إِلَّا أَنَّ سَمْعَكَ ذُو وَقَرٍ

(١) عقد اللؤلؤ، ص ٣٥١.

(٢) الإحياء ٤/٤٧٥.

(٣) صفة الصفوة ٤/٢٥٨.

تنوح وتبكي للأحبة إن مضوا

ونفسك لا تبكي وأنت على الأثر

روى عن بعض السلف أن رجلاً جاءه وهو يأكل طعاماً، فقال له: قد مات أخوك، فقال: أقعد وكل، فقد علمت، فقال: من أعلمك وما سبقني أحد؟ قال: قوله - تعالى -: ﴿كُلْ نَفْسٌ ذَايقَةُ الْمَوْتِ﴾^(١) [آل عمران: ١٨٥].

فإن استطعت - يا أخي - أن تُعَدَّ لك كل يوم زاداً لما بين يديك فافعل، فإن الأمر أعجل من ذلك، فتزوّد يا أخي لنفسك وخذ في جهازك، وكن وصي نفسك، واعلم يا أخي أن الليل والنهار يسرعان في هدم نفسك وفناء عمرك وانقضاء أجلك، فلا تطمئن يا أخي حتى تعلم مسكنك ومصيرك ومستقرّك ومنزلك. فانظر لنفسك وأقض ما فاتك، واقض ما أثبت قاضٍ من أمرك، وكأني بالأمر يأتيك على بغتة. فكأنك بالقيامة وقد قامت، وبالنفس الأمانة وقد لامت، وانفجعت عينٌ طال ما نامت، ونحرت قلوب العصاة وقد هامت^(٢).

إنّ في الموت والمعاد لشغلاً

واذكّاراً لذي النّهي وبلاغاً

فاغتنم نعمتين قبل المنايا

صحّة الجسم يا أخي والفراغ

كتب بعض الحكماء إلى رجلٍ من إخوانه: «يا أخي، احذر الموت في هذه الدّار، قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده»^(٣).

(١) الثبات عند الممات، ص ٢٠.

(٢) الزهر الفائح، ص ١٠.

(٣) إرشاد العباد، ص ١٥.

قيل لبعض السلف: طاب الموت، قال: «لا تفعل، الساعة تعيش فيها تستغفر الله خير لك من موت الدهر».

وقيل لشيخ كبير منهم: تحبُّ الموت؟ قال: لا، قيل: ولم؟ قال: ذهب الشباب وشرُّه، وجاء الكبر وخيره، فإذا قمت قلت باسم الله، وإذا قعدت قلت الحمد لله، فأنا أحبُّ أن يبقى لي هذا. ونحن - والله الحمد - بقي لنا هذا الآن. فكيف استفدنا من أعمارنا وأوقاتنا؟

قال الفضيل: «لا تجعل الرجال أوصياءك، كيف تلومهم إن ضيعوا وصيتك وأنت قد ضيعتها في حياتك؟!»^(١)

قيل: إن حسان بن أبي سفيان، كان لا ينام الليل، ولا يأكل سميناً^(٢)، ولا يشرب ماءً بارداً، فلمَّا مات رُوي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أنا محبوس عن الجنة بآبرة استعرتها فلم أردّها لصاحبها^(٣).

فانظروا في أعمالكم، وحاسبوا أنفسكم قبل انقضاء أعماركم؛ فإنَّ الموت نهاية العمل وبداية الجزاء، والموت قريبٌ لا تدرون متى نزوله، والحساب دقيق لا تدرون متى حلوله، والشَّيب نذير الموت، فاستعدوا له. فكم من مؤمِّلٍ أملاً لا يدركه، وكم من مصبِحٍ في يومٍ لا يدرك غروبه، ومُؤمِّنٍ في ليلٍ لا يدرك صباحه.

ولم يغترنا إلا طول الأمل، ولم يلها إلا حبُّ الدُّنيا. فكم نؤمِّلُ أن

(١) السير ٨/٤٣٢.

(٢) الزهر الفائح، ص ٦٩.

(٣) العاقبة، ص ٦٧.

نعيش . نرى أَنَّ الموت بعيدٌ، والأمل ينسج خيوط الغفلة والتقصير!!
كان داود الطائي يقول: لو أَمَلْتُ أن أعيش شهراً لرأيت أنني قد أتيت
عظيماً، وكيف أَمَل ذلك، أنا أرى الفجائع تنزل بالخلائق آناء الليل
والنهار.

ماذا تَوَمَّل والأيام ذاهبةٌ
وَمِن ورائك لآمال قُطِّعَ
وصيحةٌ لهجوم الموت منكفرةٌ
صُمِّتَ لوقعتها الشنعاء أسمع
وغصّةٌ بكسؤوسٍ أنت شاربها
لها بقلبك آلامٌ وأوجاعٌ^(١)

فيا أخِي:

اعلم أَنَّ العاقل يعتمد على عمله، والجاهل يعتمد على أمله^(٢).
واعلم أَنَّ الأمل يكسل عن العمل، ويورث التَّراخي والتَّواني، ويعقب
التشغال والقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويُميل إلى الهوى.

يامن يعد غداً لتوبته
أَعْلَى يَقِينٍ مِنْ بُلُوغِ غَدِ
المبرء في زلزلٍ على أملٍ
ومنيّة الإنسان بالرَّصد

(١) العاقبة، ص ٦٨.

(٢) العاقبة، ص ٦٨.

أيام عمرك كلُّها عدَّدْ

ولعل يومك آخر العدِّ^(١)

قال بعض الصالحين: «دخلنا على مغيرة الخراز وهو مريض، فقلنا له: كيف تجدك؟ فقال: أجدني موقراً الآثام، فقلنا له: فما تشكي؟ قال: الحسرة على طول الغفلة، قلنا: فما تشتهي؟ قال: الإنابة إلى ما عند الله، والنَّقْلة عما يكرهه الله، قال: فبكى القوم جميعاً»^(٢).

واعلم - رحمك الله - أن مما يعينك على التَّكْوُّر في الموت، ويفرغك له، ويكثر اشتغالك به تذكر من مضى من إخوانك، وخلانك، وأصحابك، وأقرانك الذين مضوا قبلك، وتقدّموا أمامك، كانوا يحرصون حرصك، ويسعون سعيك، ويأملون أملك، ويعملون في هذه الدنيا عملك، وقصّت المنون أعناقهم، وقلعت أعراقهم، وقصمت أصلابهم، فجعت فيهم أهليهم وأحباءهم، فأصبحوا آية للمتوسِّمين وعبرة للمعتبرين^(٣).

يا لله مصرعهم، كم فيهم من مجرّر ذيل إعجابه، متطاوّل على أصحابه، متعاضم على أقرانه وأترابه، تجمع له الأمانى، إن بُصِّر لا يتبصر، وإن أمر لا ياتمر، وإن زُجر لا ينزجر، لا يسمع إلا داعي الهوى، ولا يستجيب إلا لمن إليه دعا، يلهو ويفرح، ويمزح ويمرح، ويبيت من دنياه مثل ما كان أصبح، قد أبدأ في أمره وأعاد، وأحكم فيه فأجاد، وأشاد من أمله ما أشاد، حتى إذا نال مراده أو كاد صاحت به المنية صيحة

(١) المدهش، ص ٢٣٢.

(٢) العاقبة، ص ١٢٠.

(٣) العاقبة، ص ٥٠.

الغضبان، وصدمته صدمة اللفهان، فهدت أركانه، وكسرت أغصانه، وفرقت أنصاره وأعوانه، فأصبح قد باع النفيس بالدون، وأعطى الثمين بالثمن، ومضى يعصّ بنانه المغبون، لم يرُح بنائل، ولا حصل على طائل. فتعوذ بالله من سوء الأقدار وسيء الاختيار^(١).

فِرَّ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ اثْبِتْ لَهُ
لَا بَدَّ مَنْ أَنْتَ تَلْقَاهُ
واكتب بهذه الدّار ما شئتَه

فَإِنَّ فِي تِلْكَ سِتْقَرَاهُ^(٢)
لَمَّا حضرت عبدالله بن علي الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال:
«أبكي لتفريطي في الأيام الخالية، وقلة عملي للجنة العالية، وما ينجيني من النار الحامية»^(٣).

رَبِّمَا يَنْفَعُنَا الْبُكَاءُ قَبْلَ الْفَوَاتِ وَقَدُومِ السَّكَرَاتِ . وَأَيُّ عَيْشٍ يَهْنَأُ؟
كما قال بعض العلماء: أي عيش يطيب وليس للموت طيب؟^(٤).
لَمَّا مرض الربيع بن خثيم - رضي الله عنه - قالوا له: ألا ندعو لك طبيباً؟ فتفكّر وقال: «أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون بين ذلك كثيراً؟ قد كانت فيهم الأدوية والأطباء، فلا أرى المداوي بقي ولا المداوي، كلُّ قد قضى ومضى»^(٥).

(١) العاقبة، ص ٥٢.

(٢) الزهر الفائح، ص ٢٧.

(٣) العاقبة، ص ١٣١.

(٤) العاقبة، ص ٤٣.

(٥) العاقبة، ص ١١٩.

يأتي القضاء ولا ينفع الاستشفاء ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَ﴾ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾
وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفَرَّاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْفَتَى السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿[القيامة: ٢٦-٣٠]﴾.

أخي المسلم:

وَحَدَّثْتُكَ اللَّيَالِي إِنَّ شِمَتَهَا
تَفْرِيقُ مَا جَمَعْتَهُ فَاسْمَعْ الْخَبَرَ
وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْهَا فَقَدْ نَصَحْتُ
وَانْظُرْ إِلَيْهَا تَرَى الْآيَاتِ وَالْعِبَرَ
فَهَلْ رَأَيْتَ جَدِيداً لَمْ يَعُدْ خَلْقاً
وَهَلْ سَمِعْتَ بَصْفِوٍ لَمْ يَعُدْ كَدْرًا^(١)

أَيُّهَا الْحَبِيبُ . . اسْمَعْ صَوْتَ الْمَنَادِي وَهُوَ يَسْتَحُثُّ خَطَاكَ:
أَيُّهَا الزَّائِرُونَ بَعْدَ وَفَاتِي
جَدَثُاً ضَمْنِي وَلِحْدُاً عَمِيقاً
سَتَرُونَ السَّذِي رَأَيْتُ مِنَ الْمَوْتِ
عِيَاناً وَتَسْلُكُونَ الطَّرِيقَ^(٢)

وَقِيلَ إِنَّ الْحِجَاجَ الزَّاهِدَ رَأَى بَعْضَ أَصْحَابِهِ فِي النَّوْمِ، فَقَالَ: كَيْفَ
تَرَى حَالَكُمْ؟ فَقَالَ: الْأَمْرُ سَهْلٌ، وَمَا رَأَيْتُ شَيْئاً مِمَّا كُنْتُ أَخَافُ مِنْهُ -
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - .

فَنَحْنُ نَقْدُمُ عَلَى رَبٍّ كَرِيمٍ غَفُورٍ رَحِيمٍ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ،
لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا مَعْبُودَ لَنَا غَيْرَهُ.

(١) المدهش، ص ١٥٥.

(٢) شذرات الذهب ٤/ ١٢٩.

قال مالك بن دينار - رضي الله عنه - : «رأيت ابن بشار في النَّوم بعد موته بسنةٍ فسَلَّمْتُ عليه، فلم يرد عليَّ السَّلَام، فقلت له: ماذا لقيت بعد الموت؟ فدمعت عيناه، وقال: لقيتُ أهوالاً وزلازلَ عظاماً شداداً، فقلت: وما كان بعد ذلك؟ فقال: وما يكون من الكريم، قَبِلَ مِنَّا الحسنات، وعفا عن السيئات، وضمن لنا الدرجات». ثم شهق مالك شهقةً عظيمةً فخرَّ مغشياً عليه.

ونحن نبكي على الموتى، ونتذكر حالهم أخرى بنا أن نتذكر حالنا:
ويبكي على الموتى ويترك نفسه
ويزعمُ أن قد قلَّ عنهم عزاؤه
ولو كان ذا رأي وعقلٍ وفطنة
لَكَانَ عليه لا عليهم بكاؤه^(١)

أخي الحبيب:

كان الحسن يقول: «ابن آدم، إِنَّكَ تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك. ابن آدم، لو أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُم أطاعوا الله وعصيت أُنْتُ لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لم تضرَّك معصيتهم. ابن آدم، ذنبك ذنبك، فَإِنَّمَا هو لحمك ودمك؛ فَإِنْ سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فَإِنَّمَا هي نارٌ لا تُطفأ، وجسمٌ لا يبلى، ونفسٌ لا تموت»^(٢).

فتدارك الذنب بالتوبة فإنه كما قال بعضهم: وقوع الذنب على القلب

(١) حلية الأولياء ٣٥٢/١٠.

(٢) الحسن البصري، ص ١٠١.

كوقوع الدَّهْن على الثَّوب إن لم تعجل غسله وإلا انبسط^(١)
 ووالله إنَّ أيام المعزَّين قليلةٌ . وبعد أيام وشهور ينسى الخليل خليله .
 إذا انقضت عني من العيش مدَّتِي
 فإنَّ عناء الباقيات قليلٌ
 سيعرض عن ذكرى وتنسى مسودَّتِي
 ويحدث بعدي للخيال خليل^(٢)

أخي الحبيب:

ألا كلُّ حيٍّ هالكٌ وابن هالكٍ
 وذو نسبٍ في الهالكين عريق
 فقل لغريب الدَّار إنَّك راحلٌ
 إلى منزل نائي المحل سحيق
 وما تعدُّ الدُّنيا الدَّنيَّة أهلها
 شواظ نارٍ أو دخان حريق
 تجرع فيها هالكاً فقد هالكٍ
 وتشجي فريقاً منهم بفريق
 فلا تحسب الدُّنيا إذا ما سكنتها
 قراراً فما دنيأك غير طريق
 إذا امتحن الدُّنيا ليَّبٌ تكشفت
 له عن عدوٍ في ثياب صديق

(١) المدهش، ص ٣٥٧.

(٢) ترتيب المدارك ١/ ٣٢٤.

عليك بدارٍ لا يُزال ظلالها
ولا يتأذى أهلها بمضيـق
فما يبلغ الرّاضي رضاه ببلغة
ولا ينفع الصّادي صداه برقيق
لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربك، ولا تكحل عينك بنوم
حتى ترى حالك بعد اليوم، ولا تبّت وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة
الأمر.

أخي:

إنّ الموتى لم يبكوا من الموت، ولكنهم يبكون من حسرة الفوت،
فاتتهم - والله - دارٌ لم يتزوّدوا منها، ودخلوا داراً لم يتزوّدوا لها، فأى
ساعة مرّت على من مضى؟ وأي ساعة بقيت علينا؟

أخي:

إن الآمال تُطوى، والأعمار تُفنى، والأبدان تحت التراب تبلى، وإن
الليل والنهار يتراکضان كتراكض البريد، يقربان كل بعيد، ويبليان كل
جديد، وفي ذلك ما يلهي عن الشهوات، ويسلي عن اللذات، ويرغب
في الباقيات الصالحات.

أخي:

اعمل ما وجدت سبيلاً للعمل، وما دمت في فسحةٍ ومَهَلٍ، ومهدّد
المضجع، ووطئاً لذلك المصرع^(١).

(١) فيض القدير ١٨٥/٦.

هديه ﷺ (١)

وكان من هديه ﷺ تعزية أهل الميت، ولم يكن من هديه أن يجتمع للعزاء، ويُقرأ له القرآن، لا عند قبره ولا غيره، وكلُّ هذا بدعةٌ حادثةٌ مكروهةٌ. وكان من هديه السُّكُونُ والرِّضَا بقضاء الله، والحمد لله، والاسترجاع، ويبرأ ممن خرَّق لأجل المصيبة ثيابه، أو رفع صوته بالندب والثَّيَاحَة، أو حلق لها شعره.

وكان من هديه ﷺ أن أهل الميت لا يتكلَّفون الطعام للنَّاس، بل أمر أن يصنع الناس لهم طعاماً يُرسلونه إليهم، وهذا من أعظم مكارم الأخلاق والشِّيم، والحملِ عن أهل الميت؛ فإنَّهم في شغل بمصائبهم عن إطعام الناس.

وكان من هديه ﷺ تركُ نعي الميت، بل كان ينهى عنه، ويقول: «هو من عمل الجاهلية».

أخي الحبيب:

جمعني الله وإياك في دار كرامته، وهوَّن علينا سكرات الموت، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأنس وحشتنا في القبور، وثبتنا على الصُّراط يوم البعث والنُّشور، وحرَّم وجوه آبائنا وأمهاتنا على النار، وجمعنا معهم في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ. والحمد لله ربِّ العالمين.

(١) للاستزادة انظر زاد المعاد ص ٥٢٧.

المصادر

- [١] إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية ط ١، ١٤٠٦هـ.
- [٢] أدب الدنيا والدين، للماوردي، دار الكتب العلمية.
- [٣] إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبدالعزيز السلطان، ص ١، ١٤٠٦هـ.
- [٤] البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.
- [٥] بستان الواعظين، للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، حققه عبدالحجار.
- [٦] تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، مكتبة الرياض الحديثة.
- [٧] تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.
- [٨] تاريخ عمر، لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.
- [٩] التبصرة، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٦هـ.
- [١٠] تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث.
- [١١] التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للإمام القرطبي، دار الرياض، ط ١٤٠٧هـ.
- [١٢] التذكرة في الاستعداد لليوم الآخر، علي صالح الهزاع، ط ٢، ١٤٠٧هـ.

- [١٣] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض، مكتبة الحياة.
- [١٤] تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبد الله محمد بن النجبي، دار الكتب العلمية، ط ١٤٠٦ هـ.
- [١٥] تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠ هـ.
- [١٧] الثبات عند الممات، أبي الفرج جمال الدين بن الجوزي، تحقيق عبد الله الأنصاري، مؤسسة الكتب الثقافية، ط ١٤٠٦ هـ.
- [١٨] جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط ١٤٠٠ هـ.
- [١٩] جنة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضي، أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق د. صلاح جرار دار البشير، ١٤١٠ هـ.
- [٢٠] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
- [٢١] ديوان الإمام علي، جمعة وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥ هـ.
- [٢٢] ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠ هـ.
- [٢٣] الزراري في ذكر الزراري، لابن العديم.
- [٢٤] روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لشمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن قيم الجوزي، تحقيق د. السيد جميل، دار الكتاب العربي، ط ١٤٠٧ هـ.
- [٢٥] زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، حققه

شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة مكتبة المنار الإسلامية، ط ٢، ١٤٠١هـ.

[٢٦] كتاب الزهد الكبير، للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار القلم، ط ٢، ١٤٠٣هـ.

[٢٧] كتاب الزهد، أبي بكر أحمد ابن عمرو بن أبي عاصم، الدار السلفية بالهند، ط ٢، ١٤٠٨هـ.

[٢٨] الزهد، للحسن البصري، تحقيق د. محمد عبدالرحيم محمد، دار الحديث.

[٢٩] كتاب الزهد، أبي عبدالله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٦هـ.

[٣٠] الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد بن يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٦هـ.

[٣١] سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.

[٣٢] شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

[٣٣] شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٤هـ.

[٣٤] صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

[٣٥] صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٤٠٧هـ.

[٣٦] طبقات الحنابلة، للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية، وأخرى دار المعرفة، بيروت.

[٣٧] العاقبة في ذكر الموت والآخرة، الإمام أبي محمد عبدالحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى، ط ١، ١٤٠٦هـ.

[٣٨] كتاب العزلة، للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، ط ١، ١٣٥٦هـ. نشرة عزت العطار.

[٣٩] عقول اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

[٤٠] محاسبة النفس، للحافظ ابن أبي الدنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن.

[٤١] مختصر منهاج القاصدين، الإمام أحمد بن محمد المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط ٧، ١٤٠٦هـ.

[٤٢] مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٠٨هـ.

[٤٣] المدهش لأبي الفرج جمال الدين الجوزي، ضبطه وصحّحه د. مروان قباني، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٠٥هـ.

[٤٤] مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا، حققه ونشره جميز أ. بلمي، مكتبة ابن تيمية.

- [٤٥] مكاشفة القلوب، لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط ١، ١٤٠٣هـ.
- [٤٦] موارد الظمان لدروس الزمان، عبدالعزيز السلطان، ط ١٣، ١٤٠٣هـ.
- [٤٧] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ.
- [٤٨] الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٥هـ.



والثمن الجنة

المقدمة

الحمد لله الذي وعد من أطاعه جنات عدن تجري من تحتها الأنهار فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، خير من صلى وصام وعبد الله حتى أتاه اليقين، وبعد:

بين يديك - أخي القاريء - الجزء الثاني من سلسلة «أين نحن من هؤلاء؟» تحت عنوان «والثمن الجنة» الذي يتحدث عن موضوع مهم ألا وهو الصلاة، التي فرط فيها بعض الناس وتهاون بها البعض الآخر.

ونحن في زمن الضعف والتكاسل والتشاغل أحببت ذكر همم من كان قبلنا ومسارعتهم لأداء هذه الفريضة العظيمة حتى تكون محية للقلوب محركة للنفوس مقوية للعزائم.

جعل الله أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

عبد الملك بن محمد بن عبد الحميد القاسم

الصلاة

للصلاة في الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة أي عبادة أخرى، فهي عماد الدين الذي لا يقوم إلا به، قال ﷺ: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»^(١).

وهي فريضة دائمة مطلقة، لا تسقط حتى في حال الخوف، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٢) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

وهي أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات، وهي أول ما يحاسب عليه العبد، وهي آخر وصية وصى بها رسول الله، ﷺ، أمته عند موته فقال: «الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم»^(٣).

وهي آخر ما يُفقد من الدين، فإن ضاعت ضاع الدين كله، قال ﷺ: «لَتُنْقُضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّهَ النَّاسُ بِالتِّي تَلِيهَا، فَأُولَئِهِنَّ نَقْضُ الْحُكْمِ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ»^(٣).

وقد ذكرها الله تعالى من الشروط الأساسية للهداية والتقوى فقال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ﴾^(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ^(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ [البقرة: ١ - ٣].

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه وأحمد وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه الألباني.

واستثنى تبارك وتعالى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) [المعارج: ١٩ - ٢٣].

وقال - عز وجل - وهو يحكي عن أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (١٢) قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (١٣) [المدثر: ٤٢، ٤٣] (١).

وقد توعد الله تارك الصلاة بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) [الماعون: ٤، ٥]، والسهو: هو تركها حتى يخرج وقتها. وحذر - جل وعلا - من إضاعة الصلاة وتوعد مضيعها بالعذاب الشديد فقال - تعالى -: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (٥٩) [مريم: ٥٩] والغى: واد في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر جعله الله لمن أضاع الصلاة واتبع الشهوات.

ولقد اهتم المسلمون بهذه الصلوات أيما اهتمام وحافظوا عليها أشد المحافظة وكان قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ، كما ذكرت ذلك عائشة - رضي الله عنها -: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم يعرفه».

هذا هو قدوتنا ﷺ نسير على طريقه ونقتفي أثره..

إذا نحن أدجننا وأنت إمامنا

كفى بالمطايا طيبُ ذكراك هادياً (٢)

(١) معلومات مهمة من الدين ١٧.

(٢) جامع العلوم والحكم ٢٢٩.

وسار السلف الصالح من هذه الأمة على هذا المنهج النبوي الشريف، فهذا سعيد بن المسيب من شدة حرصه على الصلاة حافظ على دخول المسجد قبل الأذان لمدة تزيد عن أربعين سنة، قال برد مولى سعيد بن المسيب: ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد^(١).

وقال ربيعة بن يزيد: «ما أذن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد إلا أن أكون مريضاً أو مسافراً»^(٢).

وأرشد ﷺ، للمحافظة على هذا الخير العظيم فقال: «اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^(٣).

وشهد أهل الخير لأهل الخير فقد قال يحيى بن معين عن يحيى بن سعيد إنه لم يفته الزوال في المسجد أربعين سنة^(٤).

أولئك قومٌ قلوبهم معلقة بالمساجد وقد جاءتهم البشائر في قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...» وذكر منهم: «رجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه»^(٥).

وقد حث سفيان بن عيينة على السير إلى الصلاة حتى قبل النداء فقال: «لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي حتى يُدعى، إئت الصلاة قبل النداء»^(٦).

وذلك استجابة لقوله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا،

(١) طبقات الحنابلة ١/١٤١، حلية الأولياء ٢/١٦٣، صفة الصفوة ٢/٨٠.

(٢) السيرة ٥/٢٤٠.

(٣) أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه الألباني.

(٤) السير ٩/١٨١، تذكرة الحفاظ ١/٢٢٩، الزهد ص ٥٣٠.

(٥) متفق عليه.

(٦) التبصرة ١/١٣٧.

ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» [رواه مسلم].

الحنين إلى الصلاة:

ضرب سلفنا الصالح أروع الأمثلة وأصدق الاستجابة حتى في حالات المرض الشديد، فعندما سمع عامر بن عبدالله، المؤذن وهو يجود بنفسه ومنزله قريب من المسجد قال: «خذوا بيدي، فقل له: إنك عليل فقال: أسمع داعي الله فلا أجيبه، فأخذوا بيده، فدخل في صلاة المغرب فركع مع الإمام ركعة ثم مات»^(١).

وهذا فاروق هذه الأمة - رضي الله عنه - ينتبه بعدما ذُكر بالصلاة وهو في حالة الإغماء الشديد. فقد ذكر المسور بن مخرمة - رضي الله عنه - أن عمر بن الخطاب لما طعن جعل يُغمى عليه فقل: إنكم لن تُفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كان به حياة، فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، قد صليت؟! فانتبه فقال: الصلاة ها الله، فلا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلي وإن جرحه ليثعب دماً^(٢).

رضي الله عنه وأرضاه، لقد علم الصحابة شدة اهتمامه وحرصه على الصلاة فعلموا أنه إن ذكرت الصلاة على مسمعه وبه حياة فإنه سيفيق من الإغماء التي كان فيها. وقد كان ذلك، فلما ذكروا له الصلاة أفاق. أما في زماننا فلا يحلو للبعض النوم إلا وقت الصلاة، والبعض يسمع

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٣١، السير ٥/ ٢٢٠.

(٢) تاريخ عمر ٢٤٣، الزهد للإمام أحمد ١٨٢.

صوت المنبه للصلاة ولكن لا يستيقظ، وآخرون يوقظون للصلاة ولا يستجيبون - وكأنهم إلى الموت أقرب منهم للحياة - ولكن لو سمعوا بأن لصاً في الدار أو أن صافرة الإنذار انطلقت، لرأيت سرعة الانتباه وقوة الوثبة.

لا تعرضن لذكرنا في ذكرهم
ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد^(١)

أخي المسلم:

سطر الربيع بن خيثم موقفاً عظيماً في حياته فما هو بعدما سقط شقه يهادى بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان أصحابه يقولون: يا أبا يزيد لقد رخص لك، لو صليت في بيتك، فيقول: إنه كما تقولون، ولكني سمعته يُنادى: حي على الفلاح، فمن سمعه منكم ينادى حي على الفلاح فليجبه ولو زحفاً، ولو حبواً^(٢).

لقد كان هناك دافع يدفعهم ويستحثهم لتحمل المشاق في سبيل إقامة الصلاة طاعة لله - عز وجل -، وامثالاً لأوامره، ورغبة فيما عنده.

فهذا عدي بن حاتم يقول: «ما جاء وقت الصلاة إلا وأنا إليها بالأشواق، وما دخل وقت صلاة قط إلا وأنا لها مستعد»^(٣).

لقد حرّك الداعي إلى الله وإلى دار السلام النفوس الأبية والهمم العالية، فأسمع منادي الإيمان من كانت له أذان واعية. وأسمع الله من كان حياً

(١) صفة الصفوة ٤/٢٦٦.

(٢) حلية الأولياء ٢/١١٣.

(٣) الزهد للإمام أحمد ٢٤٩.

فهذه النداء إلى منازل الأبرار وحدا به في طريق سيره فما حطّت به رحاله إلا بدار القرار^(١).

أَحِنُّ اشْتِاقاً لِلْمَسَاجِدِ لَا إِلَى

قَصُورٍ وَفَرَشٍ بِالطَّرَازِ مَوْشُحٍ

وهذا الاهتمام بالصلاة تحول إلى فرح وسرور بدخول وقتها وهو فرح وبهجة بالعطاء العظيم من الله الكريم المنان فهو كما ذكر أبو بكر بن عبد الله المزني: «من مثلك يا ابن آدم؟ خُلي بينك وبين الماء والمحراب، متى شئت تطهرت ودخلت على ربك - عز وجل - ليس بينك وبينه ترجمان ولا حاجب»^(٢).

فهذه والله الحمد من نعمه علينا نقصده متى شئنا فترُفع بالصلاة الدرجات وتخط الخطيئات، فسبحانه ما أكرمه وجل جلاله ما أعظمه. ولا شك أنه يُتأسف على فوات هذه النعم وضياع الأوقات بدون فائدة ورأس مال المسلم عمره.. أفلا يتأسف على ضياعه؟ قال أبو رجاء العطاردي: «ما أنفَسَ علي شيء أخلفه بعدي إلا أني كنت أعفر وجهي في كل يوم وليلة خمس مرات لربي - عز وجل -»^(٣).

أخي المسلم:

لقد أعطوا الصلاة حقها وأنزلوها منزلتها، ولذلك كانت عندهم المقياس الأول، كما أكد ذلك عمر بن الخطاب بقوله: «إذا رأيت الرجل

(١) رهبان الليل، ٣٩.

(٢) البداية والنهاية ٢٥٦/٩.

(٣) حلية الأولياء ٣٠٦/٢.

يضيع من الصلاة فهو والله لغيرها أشد تضييعاً^(١). وسار على هذا المنهج أبو العالية فقال: «كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقد من أمره صلاته، فإن وجدته يُقيمها ويُتمها أقمت وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه وقلت: هو لغير الصلاة أضيع».

وامتداداً لهذا التواصل الخير امتد هذا الحرص ليصل إلى أطفالهم امتثالاً لقوله، ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع»^(٢).

فكان زيد الأياشي يقول للصبيان: «تعالوا فصلوا أهب لكم الجوز، فكانوا يحيئون ويصلون ثم يحوطون حوله، ف قيل له: ما تصنع بهذا؟ قال: وما علي، أشتري لهم جوزاً بخمسة دراهم ويتعودون على الصلاة»^(٣). والكثير الآن اهتم بتربية أبنائهم تربية دنيوية بحتة، فحرص على المأكّل والمشرب وتوفير وسائل الترفيه واللهو ولكنه ترك المهمة الأولى والمسئولية الكبرى للآباء ألا وهي تربية أبنائهم التربية الإسلامية الصحيحة وتعويدهم على الصلاة وتفقدتهم حال غيابهم عنها والله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَوْأَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

الصلاة مع الجماعة:

أوجب الله - سبحانه وتعالى - أداء الصلاة المفروضة مع الجماعة فقال تعالى: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكِيِّينَ﴾ [البقرة: ٤٣]. ودأوم عليها ﷺ، وأصحابه

(١) تاريخ عمر: ٢٠٤.

(٢) أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم وحسنه الألباني.

(٣) حلية الأولياء ٣١/٥.

مداومة شديدة حتى كأنها جزء من الصلاة، ولم يتركها ﷺ في السلم ولا في الحرب، ولا في مرضه الذي مات فيه .

وفي مساجدنا اليوم اختفى هذا الأمر ولم يحرص الجميع على أدائها مع الجماعة، فإننا نرى حضور المصلين لصلاة الجمعة وامتلاء المساجد بهم، ثم لا نراهم في الصلوات الخمس، أيجسبون أنهم لا يجاسبون على هذا التقصير والتهاون؟ أم بأي عذر سقطت عنهم صلاة الجماعة حتى يتخلفوا عنها لا سيما وهم يسمعون ذلك النداء الذي يرتفع على المسامع خمس مرات كل يوم .

أخي الحبيب:

لَكُمْ نَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، فكم من مسلم في بلاد الكفار يُحْرَم من سماع هذا النداء، وكم من ميت لم يعد يجب نداء التوحيد، وكم من مريض يحنُّ إلى تلبية الدعوة ويحول بينه وبينها المرض . فإن لنداء التوحيد رنة في الأذن وفرحة في القلب . . كيف لا، وهي دعوة من الله جل وعلا للسير في ركب الصالحين الراكعين الساجدين .

ولهذا كان أبو عمران الجوني إذا سمع الأذان تغير لونه وفاضت عيناه . وقبله كان سيد المرسلين كما قالت عائشة - رضي الله عنها - «كان رسول الله ﷺ، يحادثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه» صلوات ربي وسلامه عليه .

وكان علي بن الحسن - رحمه الله - إذا توضأ يصفر لونه فيقول له أهله: ماهذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول: تدرّون بين يدي من أريد أن أقوم؟! (١) .

وحين استيقظ سليمان بن الأعمش من النوم لحاجة فلم يُصب ماء، وضع يده على الجدار فتيّم، ثم نام، فقليل له في ذلك قال: أخاف أن أموت على غير وضوء^(١).

وذلك امتثالاً لقول الرسول ﷺ: «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^(٢).

ليس الطريق سوى طريق محمد

فهو الصراط المستقيم لمن سلك

من يمشي في طرقاته فقد اهتدى

سبل الرشاد ومن يزغ عنها هلك^(٣)

* توضاً منصور بن زاذان يوماً فلما فرغ دمعت عيناه ثم جعل يبكي حتى ارتفع صوته فقليل له: رحمك الله ما شأنك؟ فقال: «وأي شيء أعظم من شأني أريد أن أقوم بين يدي من لا تأخذه سنة ولا نوم، فلعله أن يُعرض عني»^(٤).

وما ذاك إلا لصلاح قلوبهم وصفاء سرائرهم. فعندما قيل ليزيد بن عبد الله: ألا نسقف مسجدنا؟ قال: «أصلحوا قلوبكم يكفيكم مسجدكم»^(٥).

فإن من صلح قلبه وأخلص نيته لم ينظر إلى سقف ولا إلى نقش بل اهتم

(١) حلية الأولياء ٤٩/٥.

(٢) أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه الألباني.

(٣) ذيل تذكرة الحفاظ ١٧٥.

(٤) صفة الصفوة ١٢/٢.

(٥) حلية الأولياء ٣١٢/٢.

بصلاته وتأديتها على الوجه الأكمل رجاء قبولها .
 وهذا عدي بن حاتم - رضي الله عنه - يقول : ما أقيمت الصلاة منذ
 أسلمت إلا وأنا على وضوء^(١) .
 وتلبية النداء في حياتهم تتم بصورة عملية لا تراخ فيها ولا تكاسل ، فهو
 نداء يعني لهم التوجه إلى المسجد وترك ما في أيديهم من أعمال الدنيا .
 لنرى إبراهيم بن ميمون المروزي ومهنته الصياغة وطرق الذهب
 والفضة ، كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردّها .
 إنهم رجال تفرغوا لتلبية هذا النداء طاعة لرب العالمين وامثالاً لأمر سيد
 المرسلين ، تركوا الدنيا جانباً وقاموا عن أعمالهم متجهين إلى الله - جل وعلا - .
أخي المسلم :

صلاة المرء في أخراه ذخراً
 وأول ما يحاسب بالصلاة
 فإن يمت فطوبى ثم طوبى
 له الفوز فيها بالصلاة
 وإلا النار مثواه وتبّاً
 له تبّاً بعد الممات
 وكانوا من شدة الحرص على الصلاة وعلى الطاعات نراهم يتسابقون إلى
 المساجد حال النداء فهو كما قال الشاعر :
 تراه يمشي في الناس خائفاً وجلاً
 إلى المساجد هوناً بين أطمار

وحالنا اليوم خلاف ذلك، ونرى البون الشاسع والفارق الكبير بين عبّاد الأُمس ورجال اليوم، فهناك الكثير اليوم ممن لم يدخل المسجد قبل الأذان أو معه، بل إن البعض قد يموت وهو لم يدخل المسجد بل قد يُدخل به للصلاة عليه مع أنه لا تجوز الصلاة على من لا يصلي.

وهذا الاهتمام بأمر الصلاة الذي نراه في واقع حياتهم من حضورهم إلى المساجد مبكرين ومحافظتهم على الصف الأول نراه استجابة لقوله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لا يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه»^(١).

وحافظ على هذا الخير الكثير من سلف الأمة. فكان بشر بن الحسن يقال له (الصفّي) لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة. وانقلبت الأمور وتغيرت المفاهيم ونذر من يحافظ على هذا الواجب العظيم والخير العميم.

أما عن الحرص على حضور التكبيرة الأولى مع الإمام التي لا يدركها الكثير من الناس اليوم فحدث ولا حرج.

قال سعيد بن المسيب: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة^(٢).

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

هو مطلب يستحق المنافسة، وهو أفق يستحق السباق، وهو غاية تستحق الغلاب.

(١) متفق عليه.

(٢) وفیات الأعيان ٢/ ٣٧٥ وحلية الأولياء ٢/ ١٦٣.

والذين يتنافسون على شيء من أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم، إنما يتنافسون في حقير قليل فإن قريب، الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة^(١).

بقي سليمان بن مهران سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى^(٢). رحمنا الله برحمته، فالبعض قد لا يدرك التكبيرة الأولى في السنة كاملة إلا مرة أو مرتين. . وانظر إلي الصفوف بعد انتهاء الإمام من الصلاة ترى أن من أدرك الصلاة كاملة هم القلة القليلة.

أين نحن من هؤلاء؟

هذا أسيد بن جعفر يقول: ما رأيت عمي بشر بن منصور فاتته التكبيرة الأولى ولا رأيته قام في مسجدنا سائل قط إلا أعطاه^(٣).

وقال وكيع بن الجراح: كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى^(٤).

بل إن بعضهم - رحمهم الله - لم تفته التكبيرة الأولى مع الإمام إلا في يوم واحد منذ أربعين سنة ولعذر.

فقد قال ابن سماعة: مكثت أربعين سنة لم تفتني التكبيرة الأولى إلا يوم ماتت أُمِّي^(٥).

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٣٨٦٠.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٤.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ٣٧٦.

(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٤ والسير ٦/ ٢٢٨ وصفة الصفوة ٣/ ١١٧.

(٥) السير ١٠/ ٦٤٦.

وإذا كان هذا ما عرفناه من اهتمامهم بالصلاة وبتكبيره الإحرام خصوصاً، فلا غرابة إذا قال إبراهيم النخعي: إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبير الأولى فاغسل يديك منه^(١).

وهذا إبراهيم التيمي يؤكد هذا الاهتمام وأنه عنوان صاحبه بقوله: «إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبير الأولى فاغسل يديك منه»^(٢).

وقد أدرك السلف - رحمهم الله - ذلك فاهتموا بالتكبير إلى الصلاة فقال سفيان بن عيينة: إن من توقير الصلاة أن تأتي قبل الإقامة^(٣).

هذا هو شدة حرصهم واهتمامهم ما بالك إذا فاتتهم الصلاة في الجماعة مع شدة عنايتهم بها واستعدادهم لها.

قال قاضي الشام سليمان بن حمزة المقدسي: «لم أصل الفريضة منفرداً إلا مرتين، وكأني لم أصلهما قط، مع أنه قارب التسعين»^(*).

وكانوا يتألمون لفوات هذا الخير العظيم والأجر الجزيل.

قال محمد بن المبارك الصوري: كان سعيد بن عبدالعزيز إذا فاتته صلاة الجماعة بكى^(٤).

ولم تكن صلاة الجماعة تعدل عندهم شيئاً من أمور الدنيا التي أصبحنا نلهث وراءها وربما نؤخر الصلاة من أجلها، فقد أتى ميمون بن مهران

(١) السير ٦٥/٥ وصفة الصفوة ٨٨/٣.

(٢) السير ٦٢/٥.

(٣) صفة الصفوة ٢٣٥/٢.

(*) حدثني أحد المشايخ الفضلاء... إنه لم تفته صلاة الجماعة إلا مرة واحدة عندما كان عمره تسع سنوات وأضاف كأي لم أصلها مطلقاً.

(٤) تذكرة الحفاظ ٢١٩/١.

المسجد فقيل له: إن الناس قد انصرفوا فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون،
لفضل هذه الصلاة أحب إلي من ولاية العراق»^(١).

والبعض منا يفوت صلاة الجماعة لأمر بسيط وشغلٍ قليل من أمور
الدنيا لا يعدل شيئاً يذكر، فما بالك بولاية العراق؟!
وقومٌ أمرهم كذلك لا بد أن هناك نوعاً من التأثير على فوات الجماعة
فهذا ابن عمر إذا فاتته العشاء في جماعة، أحيا بقية ليلته.

اغتنم في الفراغ فضل ركوع
فغسى أن يكون موئلك بغتة
كم صحيح رأيت من غير سقم
ذهبت نفسه الصحيحة فلتته

أخي الحبيب:

صلاة الجماعة عند هؤلاء الأخيار لها منزلة عظيمة وفقدتها كفقد عزيز
لديهم؛ لعظم أمرها ولعرفتهم بحقيقتها وهو كما جرى لحاتم الأصم عندما
قال: «فاتتني الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحق البخاري وحده، ولو
مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف، لأن مصيبة الدين أهون عند
الناس من مصيبة الدين دنيا»^(٢).

وهذا من درر الكلام ونفيسه: فما أكثر ما نرى من المعزين بفقد عزيز
وذهاب قريب، ولكننا لا نرى من يعزي في فقد جانب من جوانب الدين،
فاللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر هماً.

(١) مكاشفة القلوب ٣٦٤.

(٢) مكاشفة القلوب ٣٦٤.

قال يونس بن عبدالله: «ما لي تضيع لي الدجاجة فأجد لها وتفوتني الصلاة فلا أجد لها»^(١).

كم لدينا ممن يغتمون بهوم العمل وزيادة المراتب، ومتى يحين موعد الترقية، ويسهرون الليالي وربما تطاول بهم الهم لا ينامون إلا قليلاً، وفي النهار يتعبون ويجرون هنا وهناك بهمة ونشاط ويحسبون حساباً لكل شاردة وواردة من أمر الدنيا، وتفوتهم الصلاة مع الجماعة وهم لا يألمون ولا يتألمون، وقد يتعذر البعض بكثرة المشاغل ومتطلبات الحياة وأمور الدنيا.

أخي الحبيب:

وأنت تهب من فراشك مسرعاً، تركت لذة النوم ولين الفراش... تردد مع المؤذن ما يقول ثم تسير إلى صلاة الفجر بخطوات مطمئنة... في برد قارس وظلام دامس.

لا حرمك الله الإِجْر وكتب خطواتك... ألا فأبشر بخير عظيم بشرك به نبي هذه الأمة ﷺ بقوله: «بشروا المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة» [رواه أبو داود والترمذي].

لا يغلبنك الشيطان ولا تتردد في القيام... سر إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر... بلغك الله ما قصدت وجعل الجنة مثواك...

أخي المسلم:

لنرى كيف كان اهتمام السلف الصالح بالطاعات والعبادات رغم

(١) حلية الأولياء ١٩/٣ و صفة الصفوة ٣٠٧/٣.

الأعباء التي يجملونها، فهذا القاضي أبو يوسف يصلي بعد ما ولي القضاء في كل يوم مائتي ركعة^(١).

بل إن خليفة المسلمين هارون الرشيد بعد أن تولى الخلافة يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن يعرض له علة^(٢).

وكان للمسجد عندهم اهتمام خاص لكونه مكاناً للعبادة فعندما رأى عطاء بن يسار رجلاً يبيع في المسجد دعاه فقال له: هذه سوق الآخرة فإن أردت الدنيا فأخرج إلى سوق الدنيا.

ونتمثل بقول الشاعر حين نرى التهاون والتكاسل:

أيا عجباً كيف يُعصى الإلـ

ـه أم كيف يحجده جاحـدٌ

ولله في كل تحريكة

وفي كل تسكينة شاهـدٌ

وفي كل شيء له آية

تدلُّ على أنه واحدٌ^(٣)

* * *

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٩٣.

(٢) تاريخ بغداد ١٤/ ٦.

(٣) تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٣.

الوقوف بين يدي الله..

كان من تمام محافظتهم على الصلاة القيام بأركانها وواجباتها وسنتها ومُستحباتها على الوجه الأكمل. بخشوع وخضوع لله - عز وجل - وحضور قلب وتدبر وقد مدحهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

وقال ﷺ: «إن الرجل لينصرف ما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»^(١).

وقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على المنبر: «إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل الله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يُتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله - عز وجل - فيها»^(٢).

هذا قول عمر بن الخطاب في صدر الإسلام، ماذا عن واقعنا نحن اليوم، والكثير - إلا من رحم ربي - تذهب به أحوال الدنيا كل مذهب، فهو يصلي ببدنه ولكنه يذهب بفكره إلى الدنيا وأسواقها؛ يبيع ويشترى، ويزيد ويُنقص... وما ذاك إلا من الغفلة.

قال الحسن: سمعهم «عامر بن عبد قيس وما يذكرون من ذكر الضيعة في الصلاة، قال: تجدونه، قالوا: نعم، قال: والله لئن تختلف الأُسنة في جوفي أحب إليَّ أن يكون هذا في صلاتي»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود وأحمد وحسنه الألباني.

(٢) الإحياء ٢٠٢/١٠.

(٣) الزهد للإمام أحمد ٣٢١.

كيف يا أخي الحبيب - ترى صلاة من يخشى الوقوع في نار جهنم؟ إنها صلاة خوف من عذاب الله ورجاء لما عنده، وهي صلاة مودع لما في الدنيا راج بعمله الدار الآخرة وما فيها. . . وعليك بوصية معاذ بن جبل لابنه: «يأبني إذا صليت صل صلاة مودع، لا تظن أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنة قدمها وحسنة أخرها»^(٢).

يَا مَنْ لَهُ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَخْشَعُ
وَلَأَمْرُهُ كُلُّ الْخَلَائِقِ تَخْضَعُ
أَعْنُو إِلَيْكَ بِجَبْهَةٍ لَمْ أَحْنَهَا

(١) تذكرة الحفاظ ٢١٩/١ وشذرات الذهب ٢٦٣/١.

(٢) صفة الصفوة ١/٤٩٦.

(۳) دیوان یوسف القرضاوی ص ۳۲.

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٦.

قال سفيان الثوري: «لو رأيت منصور بن المعتمر يصلي لقلت يموت الساعة»^(١).

وما ذاك إلا من شدة المحافظة عليها وتأديتها على أكمل وجه، ومن كان هذا دأبه في كل صلواته فلا بد أن تكون له صلاة لا يصلي بعدها أبداً ويختم له إن شاء الله بخير كما ذكر ذلك عبدالله بن مسعود: «مادمت في صلاة فأنت تقرر باب الملك، ومن يقرر باب الملك يُفتح له»^(٢).

فإن الله أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين لمن أطاعه واستجاب لأوامره واجتنب نواهيه.

قال شبرمة: «صبحنا كرزا الحارثي فكنّا إذا نزلنا إلى الأرض فإنما هو قائل ببصره هكذا ينظر، فإذا رأى بقعة تعجبه ذهب فصلّى فيها حتى يرتحل»^(٣).

لأن قلبه معلق بالطاعات مغتنم للساعات، وقته كله عبادة وجد... وهل في عمر الإنسان وقت للهو والعبث وعمره سنوات معدودة وأنفاس محسوبة:

اغتنم ركَعتين زلَفَى إلى الله

إذا كنت فارغاً مستريحاً

وإذا ما هممت بالنطق بالباطل

فاجعل مكانة تسيحاً

فاغتنم السكوت أفضل من

خوض وإن كنت بالكلام فصيحاً

(١) صفة الصفوة ٣/ ١١٤.

(٢) صفة الصفوة ١/ ٤١٥.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٢٠.

والأيام المحسوبة واللحظات المعدودة استثمروها في الطاعات وعملوا فيها بجد وحزم رغبة فيما عند الله من النعيم المقيم، فحياتهم كلها عبادة وطاعة وصلاح وتقوى وقد قيل لعامر بن عبد الله هل تحدثك نفسك في الصلاة بشيء...؟

قال: «نعم، بوقوفي بين يدي الله - عز وجل - ومنصرفي إحدى الدارين»^(١).

وانظر إلى حالنا اليوم بم تحدثنا أنفسنا في الصلاة؟ بل إن الخواطر والهواجس تتدافع لكثرتها في الصلاة، فلربما استمرت تلك الأفكار طوال الصلاة، وكأن الصلاة متنفس لإطلاق عنان الأفكار والهواجس، فالبيع يزيد في الصلاة والشرء كذلك، وحساب الأرباح والخسائر يعاود مع كل صلاة... بل إن البعض يسافر ويعود وهو يقف أمام الله - عز وجل - ولو كان هذا الوقوف بين يدي مسئول لوجدت قوة التركيز وشدة الإنصات، فلا تفوته كلمة ولا تغيب عنه شاردة ولا واردة. أما في الصلاة فلا يوجد من يؤديها على وجهها الصحيح بدون وساوس وخواطر إلا من رحم ربي وقليل ما هم.

أخي:

إذا أصبح العبد وأمسى وليس هُمة إلا الله وحده تحمّل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهّمه، وفرّغ قلبه لمحبهته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همه، حمّله الله همومها وغمومها، وأنكادها ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق،

ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدر كدر الوحش في خدمة غيره^(١).

قال أبو عبد الرحمن الأيدي: قلت لسعيد بن عبدالعزيز: «ما هذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة؟ فقال: يا ابن أخي، وما سؤالك عن ذلك؟ قلت: لعل الله أن ينفعني به، فقال: ماقت إلى صلاة إلا مثلت لي جهنم»^(٢).

ولهذا كان عاصم بن أبي النجود إذا صلى ينتصب كأنه عود، وكان يكون يوم الجمعة في المسجد إلى العصر، وكان عابداً خيراً، يصلي أبداً، ربما أتى حاجة، فإذا رأى المسجد قال: مُلُّ بنا، فإن حاجتنا لا تفوت، ثم يدخل فيصلي.

ومات رحمه الله - ونحن رحمنا الله - لا نزال ..

نروح ونغدو لحاجاتنا

وحاجة من عاش لا تنقضي

تموت مع المرء حاجاته

وتبقى له حاجة ما بقي

حتى يدركه الموت ويأتيه الأجل وهو يلث وراء الدنيا ويمر خلف الحطام منها ولا يبقى له إلا ما قدم من العمل الصالح ..

قال القاسم بن محمد: «غدوت يوماً، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة - رضي الله عنها - أسلم عليها، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي الضحى

(١) الفوائد ١١٠.

(٢) السير ٢٥٩/٥.

وهي تقرأ: ﴿فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (٢٧) [الطور: ٢٧]. وتبكي وتدعو وتردد الآية فقامت حتى ملكت وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع، ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو^(١).

سنة الضحى:

وسنة الضحى هذه غفل عنها أكثر الناس اليوم.. فلا يؤديها إلا القليل. والنبي ﷺ، أوصى أبا هريرة كما في الحديث: «أوصاني خليلي رسول الله، ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»^(٢).

واليوم نرى حتى من يحافظ على صلاة الفجر لا يذكر الله إلا قليلاً في هذا الوقت الطويل من صلاة الفجر إلى صلاة الظهر.. وهي ساعات طويلة ولحظات غالية نفيسة ربما كانت فيها الغفلة عن الآخرة بذكر الدنيا والتشاغل بها.

يؤمل دنيا لبقى له

فوافي المنية دون الأمل

حيثاً يروي أصول الفسيل(*)

فعاش الفسيل ومات الرجل^(٣)

(١) الإحياء ٤/٤٣٦.

(٢) متفق عليه.

(*) الفسيل - النخلة الصغيرة.

(٣) تاريخ بغداد ١٢/٣١٨.

خشوع السلف:

حب الصلاة والمسارة إليها وأداؤها على أكمل الوجوه وإتمامها ظاهراً وباطناً، هي الآية على قدر ما في القلب من حب الله والشوق إلى لقائه والإعراض عنها والتكاسل والتباطؤ عن تلبية داعيها والتكاسل في القيام إليها أو أداؤها منفردة في غير المسجد مع جماعة المسلمين من غير عذر، آية فراغ القلب حقاً من حب الله والزهد فيما عنده.

ولنرى حال السلف في الصلاة وخشوعهم.

فعن ميمون بن حيان قال: «ما رأيت مسلم بن يسار متلفتاً في صلاته قط خفيفة ولا طويلة، ولقد انهدمت ناحية المسجد ففزع أهل السوق لهدته وإنه في المسجد في صلاته فما التفت»^(١).

وعندما سُئل خلف بن أيوب: «ألا يؤذك الذباب في صلاتك فتطردها قال: لا أعود نفسي شيئاً يفسد علي صلاتي، قيل له: وكيف تصبر على ذلك؟ قال: بلغني أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان فيقال: فلان صبور ويفتخرون بذلك، فأنا قائم بين يدي ربي أفأتحرك لذباب!!»^(٢).

وكان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع..

(١) الزهد للإمام أحمد ص ٣٥٩.

(٢) الإحياء ١/ ١٧٩.

وكان أبو حنيفة يُسمى الودد لكثرة صلاته^(١).

وعن مداومتهم على العبادة وكثرة صلاتهم ما قاله عبيد الله بن سليمان حفيد أبي عبيد الله الوزير: أبلى جدنا سجادتين(*) وشرع في ثلاثة وأبلى موضع ركبتيه ووجهه ويديه من كثرة صلاته - رحمه الله - وكان له كل يوم كر(*) دقيق يتصدق به، فلما وقع الغلاء، تصدق بكرين.

ولم يكن يشغلهم عن الصلاة شاغل، ولم يكن بينهم وبين الله حائل، فالانتباه مقتصر على الصلاة والخشوع لله.

فقد صلى أبو عبد الله النباحي يوماً بأهل طرسوس، فصيح النفير، فلم يخفف لصلاة، فلما فرغوا قالوا: أنت جاسوس، قال: ولم؟ قالوا: صيح بالنفير وأنت في الصلاة فلم تخفف. قال: ما حسبت أن أحداً يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه به الله - عز وجل -^(٢).

وهم كما قال عنهم العلامة ابن رجب في كتابه لطائف المعارف: «لَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ قَوْلَ اللَّهِ - عز وجل - : ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقوله: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] فهموا أن المراد من ذلك أن يجتهد كل واحد منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة، والمسارع إلى بلوغ هذه الدرجة العالية، فكان أحدهم إذا رأى من يعمل عملاً يعجز عنه خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له فيحزن لفوات سبقه، فكان تنافسهم في درجات الآخرة

(١) السير ٤٠٠/٦.

(*) أعرف عابداً توفي قبل سنوات جرى له قريباً من ذلك.

(*) الكر: يشيع خمسة آلاف إنسان.

(٢) صفة الصفوة ٢٧٩/٤.

واستباقهم إليها، ثم جاء من بعدهم قوم فعكسوا الأمر فصار تنافسهم في الدنيا الدنيئة وحظوظها الفانية».

هذا أبو طلحة - رضي الله عنه - : صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسٌ طار في الشجر يلتمس مخرجاً، فأتبعه بصره ساعة، ثم لم يدر كم صلى؟ فذكر لرسول الله ﷺ، ما أصابه من الفتنة، ثم قال يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت^(١).

وصلى رجلٌ في حائط له والنخل مطوقه بشمرها، فنظر إليها فأعجبه ولم يدر كم صلى، فذكر ذلك لعثمان - رضي الله عنه - وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الله - عز وجل - فباعه عثمان بخمسين ألفاً^(٢). وما قدما هذا العمل إلا لعلهما بعظم أمر الصلاة وشأنها.

ونحن يا أخي سنودع هذه الدنيا بين صلاتين، صلاة أديناها وصلاة ننتظر دخول وقتها، فحريٌّ بنا أن نؤدي صلاة مودع في كل صلاة، عسى الله أن يجتم لنا بخير، ويتقبل منا حسناتنا ويتجاوز - بمنه وكرمه - عن سيئاتنا.

* كان محمد بن إسماعيل «الإمام البخاري» يصلي ذات ليلة، فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة، فلما قضى الصلاة، قال: انظروا أيش آذاني^(٣). وهذا الصبر ناتج من عظم خشوعهم واستحضارهم مناجاة ربهم كما قال أبو نصر الفراءدس عن سعيد بن عبدالعزيز: كنت أسمع وقع دموعه على الحصى في الصلاة^(٤).

(١) الإحياء ١/١٩٤.

(٢) الإحياء ١/١٩٤.

(٣) السير ١٢/٤٤١.

(٤) تذكرة الحفاظ ١/٢١٩.

ونحن لقسوة في قلوبنا لا نرى تلك الدموع إلا في شهر رمضان ومن قلة قليلة لانت قلوبهم وخشعوا لربهم وأذلوا جباههم له .

ولم يمنع الصالحين كبر السن وضعف الجسم عن الوقوف الطويل بين يدي الله فهذا أبو إسحاق السبيعي يقول : «ذهبت الصلاة مني ، ضعفت ورق عظمي ، إني اليوم أقوم في الصلاة فما أقرأ إلا البقرة وآل عمران»^(١) .

أما عندما ضعف عن القيام بنفسه فإنه كما قال أبو العلاء العبدى : ضعف أبو إسحاق السبيعي عن القيام فكان لا يقدر أن يقوم إلى الصلاة حتى يُقام ، فإذا أقاموه فاستتم قائماً قرأ ألف آية وهو قائم^(٢) .

أما عطاء بن أبي رباح فهو كما قال عنه ابن جريج . . لزم عطاء ثمانى عشرة سنة ، وكان بعدما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة ، فيقرأ مائتي آية في البقرة وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك^(٣) .

اجتمعت فيه ثلاثة أمور . . كبر سن وضعف وقراءة طويلة ثم هو خاشع لا يزول منه شيء ولا يتحرك .

لنرى حال عبدالله بن الزبير - رضي الله عنه - وهو المعروف بطول صلاته قال عنه مسلم بن بئاق المكي : ركع ابن الزبير ركعة ، فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ، وما رفع رأسه^(٤) .

ويؤكد لنا نشاطهم في العبادة ما قاله الوليد بن علي . . كان سويد بن غفلة يؤمنا في شهر رمضان في القيام وقد أتى عليه عشرون ومائة سنة .

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٠٤ .

(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٠٥ .

(٣) السير ٥/ ٨٧ وصفة الصفوة ٢/ ٢١٣ .

(٤) البداية والنهاية ٨/ ٣٥٩ وصفة الصفوة ١/ ٧٦٧ .

وكان معروف (ابن وصل التيمي) إمام مسجد بني عمر وابن سعد، وكان يختم القرآن في كل ثلاثة سفرأ وحضرأ، أمّ قومه ستين سنة لم يسه في صلاة قط، لأنها تهمه.

وكان طلق بن حبيب يقول: إني لأحب أن أقوم لله حتى أشتكي ظهري، فيقوم فيتديء بالقرآن حتى يبلغ سورة الحجر ثم يركع. وقال ثابت البناني: كنت أمر بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك^(١).

وإلى الله المشتكى، أسرع شيء يؤدي في حياتنا الصلاة فمنا من ينقرها نقراً، ومنا من لا يخشع الخشوع الواجب... ويغلب على الكثرة تأدية الصلاة بلا اهتمام ولا حرص ولو تأملنا في مصالح حياة هذا المصلي، لرأينا الدقة والحرص والتأني والتمهل والأخذ والعطاء، في سبيل دريهمات تزيد له.

ما بالنّا هكذا عن الصلاة معرضون ولواجباتنا مضيّعون.

كان عبدالله بن مسعود إذا قام في الصلاة كأنه ثوب ملقى^(٢).

وكان سعيد بن جبير إذا قام إلى الصلاة كأنه وتد^(٣).

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟.

هذا عبدالله بن الزبير يركع، فيكاد الرخم أن يقع على ظهره، ويسجد فكأنه ثوب مطروح^(٤).

(١) البداية والنهاية ٨/٣٥٨.

(٢) الزهد للإمام أحمد ص ٢٣١.

(٣) صفة الصفوة ٣/٧٧.

(٤) البداية والنهاية ٨/٣٥٩.

إننا نستغرب من ذلك الخشوع وتلك الطمأنينة وما ذاك إلا لأننا لا نرى هذا في واقع حياتنا وإلا فإن . .
العنبر بن عقبة كان يسجد حتى تقع العصافير على ظهره، فكأنه جذم حائط^(١).

ونسير مع الصالحين فهذا أبو بكر بن عياش يقول:
رأيت حبيب بن أبي ثابت ساجداً، فلو رأيته قلت ميت، يعني من طول السجود^(٢).

وكان إبراهيم التيمي إذا سجد كأنه جذم حائط ينزل على ظهره العصافير^(٣).

أما ابن وهب فقد قال: رأيت الثوري في الحرم بعد المغرب، صلى، ثم سجد سجدة، فلم يرفع حتى نودي بالعشاء^(٤).

رُفِعَ لَهُمَ عِلْمُ الْجَنَّةِ فشمروا إليه، ووضح لهم صراطها المستقيم فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم الغن ببع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، في أبد لا يزول ولا ينفد، بصبابة عيش إنما هو كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مشوب بالغصص، ممزوج بالغصص، إن أضحك قليلاً أبكى كثيراً، وإن سر يوماً أحزن شهوراً، آلامه تزيد على لذاته، وأحزانه أضعاف أضعاف مسراته، أوله مخاوف وآخره متالف.

(١) الزهد ص ٤٩٦.

(٢) السير ٢٩١/٥.

(٣) السير ٦١/٥.

(٤) السير ٢٦٦/٧.

قال أبو قطن: مارأيت شعبة بن الحجاج قد ركع إلا ظننت أنه نسي، ولا سجد إلا قلت نسي^(١).

وقال علي بن الفضيل... رأيت الثوري ساجداً فطفت سبعة أسابيع(*) قبل أن يرفع رأسه^(٢).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

موت التقى حياة لا انقطاع لها

قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء^(٣)

ورغم تلك العناية بالصلاة وشدة المحافظة عليها فإن عثمان بن أبي دهرش قال: ماصليت صلاة قط إلا استغفرت الله تعالى من تقصيري فيها.

ولنرى ماذا يقولون عن صلاتهم... ورسم حالهم، فقد قال معاوية بن مرة: «أدركت سبعين رجلاً من أصحاب محمد ﷺ، ولو خرجوا فيكم اليوم ما عرفوا شيئاً مما أنتم عليه اليوم إلا الأذان»^(٤).

أما ميمون بن مهران فقد قال: «لو نشر فيكم رجل من السلف ما عرف إلا قبلتكم». هذا في القرون الأولى - فماذا عنا نحن -

أخي الكريم:

زماننا لاح للعاقل تغييره ولاح للبيب تبدله، ييس ضرعه بعد الغزارة، وذبل فرعه بعد النضارة، ونحل عوده بعد الرطوبة، وبشع مذاقه بعد العذوبة.

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٩٣.

(*) الأسبوع هنا الطواف الكامل حول الكعبة مرة واحدة.

(٢) السير ٧/ ٢٧٧.

(٣) تاريخ بغداد ١٣/ ٢٠٧.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ٢٩٩.

لنرى صورة أخرى معبرة عن أدائهم للصلاة فعندما سُئل حاتم الأصم - رضي الله عنه - عن صلاته فقال: «إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والجنة عن يميني والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، أظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيراً بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجد سجوداً بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدميها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها بالإخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا»^(١).

والناس في الصلاة على مراتب خمسة:

إحداها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثانية: من حافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوسوس والأفكار:

الثالثة: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوسوس والأفكار فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته فهو في صلاة وجهاد.

الرابعة: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يُضَيَّع شيئاً منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، وقد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامسة: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضع بين يدي ربه - عز وجل - ناظراً بقلبه إليه مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده، وقد أضمحلت تلك الوسواس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغولٌ بربه - عز وجل - قرير العين به.

فالقسم الأول: معاقب.

والثاني: محاسب.

والثالث: مكفر عنه.

والرابع: مثاب.

والخامس: مقرب من ربه لأن له نصيباً ممن جعلت قرّة عينه في الصلاة^(١).

فمن قرّت عينه بصلاته في الدنيا قرّت عينه بقربه من ربه - عز وجل - في الآخرة، وقرّت عينه أيضاً في الدنيا، ومن قرّت عينه بالله قرّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله - تعالى - تقطعت نفسه على الدنيا حشرات^(٢).

قال بعض السلف: ابن آدم، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة، وكنت من نصيب الدنيا على خطر، وإن بدأت بنصيبك من

(١) وهو رسول الله ﷺ، ففي الحديث: «حُب إلي من دنيكم الطيب، والنساء جعلت قرّة عيني في الصلاة» [أخرجه النسائي وأحمد وصححه الألباني].

(٢) فضائل الذكر لابن الجوزي ص ٢٧.

الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمتها انتظاماً^(١).

وصداً القلوب **يا أخي الكريم** - بأمرين - بالغفلة والذنب .

وجلاؤها بشيئين : بالاستغفار والذكر ، فمن كانت الغفلة أغلب وقته ، كان الصداً متراكباً على قلبه ، وصدؤه بحسب غفلته ، وإذا صداً القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ماهي عليه ، فيرى الباطل في صورة الحق ، والحق في صورة الباطل ، لأنه لما تراكم عليه الصداً أظلم ، فلم تظهر فيه صورة الحقائق ، كما هي عليه ، فإذا تراكم عليه الصداً وأسود وركبه الران ، فسد تصوره وإدراكه ، فلا يقبل حقاً ولا ينكر باطلاً وهذا أعظم عقوبات القلب ، وأصل ذلك من الغفلة ، واتباع الهوى فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره^(٢) .

وكيف يلذ العيش من هو عالم
بأن إله الخلق لا بد سائله
فأخذ من ظلمه لعباده
ويجزيه بالخير الذي هو فاعله^(٣)

قال طلق بن حبيب : «إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين»^(٤) .

(١) فضائل الذكر لابن الجوزي ص ١٩ .

(٢) فضائل الذكر لابن الجوزي ص ٤٦ .

(٣) شرح الصدور ص ٢٩٥ .

(٤) الإحياء ١٦/٤ .

أخي الحبيب.. قال ﷺ، عند موته يوصي أمته: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم»^(١).

فلا يفقدك الله حيث أمرك ويجدك حيث نهاك.

* * *

(١) رواه أحمد وأبو ماجه وصححه الألباني.

حكم تارك الصلاة

أخي الحبيب:

بعد أن عشنا بين تلك السطور التي يفيض الإيمان بين جوانحها ويزدهر الخير في جذورها .

فلا نرى إلا مصلياً قائماً ولا نلمح إلا ملبياً النداء مسرعاً . . حريٌّ بنا أن نعرف حكم تارك الصلاة لعظم الأمر وخطورته ونهب مسرعين إلى أقاربنا وجيراننا وأحبابنا لإنقاذهم من النار . . قراءة متأنية لتلك الأحكام تجعلك تسارع داعياً من تعرف تهاونه بالصلاة لعل الله أن يفتح على قلبه وينير طريقه . .

سئل الشيخ محمد بن عثيمين السؤال التالي :

* ماذا يفعل الرجل إذا أمر أهله بالصلاة ولكنهم لم يستمعوا إليه هل يسكن معهم ويخالطهم أم يخرج من البيت ؟
فأجاب رحمه الله :

إذا كان هؤلاء الأهل لا يصلون أبداً فإنهم كفار، مرتدون، خارجون عن الإسلام ولا يجوز أن يسكن معهم ولكن يجب عليه أن يدعوهم ويلح ويكرر لعل الله يهديهم لأن تارك الصلاة كافر - والعياذ بالله - بدليل الكتاب والسنة، وقول الصحابة والنظر الصحيح .

أما من القرآن فقوله تعالى عن المشركين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

وَأَتُوا الزَّكَاةَ فَخَوْصُكُمُ فِي الدِّينِ ﴿١٠﴾ مفهوم الآية أنهم إذا لم يفعلوا ذلك فليسوا إخواناً لنا، ولا تنتفي الأخوة الدينية بالمعاصي وإن عظمت ولكن تنتفي عند الخروج عن الإسلام.

أما من السنة فقول النبي ﷺ: «بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة» ثابت في صحيح مسلم، وقوله في حديث بريدة - رضي الله عنه - في السنن: «والعهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر».

أما أقوال الصحابة: قال أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه -: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة» والحظ: النصيب، وهو هنا نكرة في سياق النفي فيكون عاماً لا نصيب لا قليل ولا كثير. وقال عبدالله بن شقيق: «كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة».

أما من جهة النظر الصحيح فيقال: هل يعقل أن رجلاً في قلبه حبة خردل من إيمان يعرف عظمة الصلاة وعناية الله بها ثم يحافظ على تركها؟ هذا شيء لا يمكن وقد تأملت الأدلة التي استدلل بها من يقول أنه لا يكفر، فوجدتها لا تخرج عن أحوال أربع:

- ١ - إما أنها لا دليل فيها أصلاً.
- ٢ - أو أنها قيدت بوصف يمتنع مع ترك الصلاة.
- ٣ - أو أنها قيدت بحال يعذر فيها من ترك هذه الصلاة.
- ٤ - أو أنها عامة فتخصص بأحاديث كفر تارك الصلاة.

وإذا تبين أن تارك الصلاة كافر فإنه يترتب عليه أحكام المرتدين - وليس في النصوص أن تارك الصلاة مؤمن أو أنه يدخل الجنة أو ينجو من النار ونحو ذلك مما يوجبنا إلى تأويل الكفر الذي به على تارك الصلاة بأنه كفر نعمة أو كفر دون كفر - ومنها:

أولاً: أنه لا يصح أن يزوج فإن عقد له وهو لا يصلي فالنكاح باطل ولا تحل له الزوجة به لقوله تعالى عن المهاجرات: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠].

ثانياً: أنه إذا ترك الصلاة بعد أن عقد له فإن نكاحه ينفسخ ولا تحل له الزوجة. . للآية التي ذكرناها سابقاً، على حسب التفصيل المعروف عند أهل العلم بين أن يكون ذلك قبل الدخول أو بعده. .

ثالثاً: إن هذا الرجل الذي لا يصلي إذا ذبح لا تؤكل ذبيحته لماذا؟ . . لأنها حرام، ولو ذبح يهودي أو نصراني فذبيحته يحل لنا أن نأكلها، فيكون - والعياذ بالله - ذبحه أخبث من ذبح اليهود والنصارى.

رابعاً: أنه لا يحل له أن يدخل مكة أو حدود حرمها لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

خامساً: أنه لو مات أحد من أقاربه فلا حق له في الميراث، فلو مات رجل عن ابن له لا يصلي (الرجل مسلم يصلي والابن لا يصلي) وعن ابن عم له بعيد (عاصب)، من الذي يرثه؟ ابن عمه البعيد دون ابنه لقوله ﷺ، في حديث أسامة: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» [متفق عليه]، ولقوله ﷺ: «الحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكره» [متفق عليه] وهذا مثال ينطبق على جميع الورثة. .

سادساً: أنه إذا مات لا يُغسل ولا يُكفن ولا يُصلى عليه ولا يدفن مع المسلمين، إذاً ماذا نصنع به؟. نخرج به إلى الصحراء ونحفر له وندفنه بثيابه لأنه لا حرمة له وعلى هذا فلا يحل لأحد مات عنده ميت وهو يعلم أنه لا يصلي أن يقدمه للمسلمين يصلون عليه.

سابعاً: أنه يحشر يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف، وأئمة الكفر - والعياذ بالله - ولا يدخل الجنة ولا يحل لأحد من أهله أن يدعو له بالرحمة والمغفرة، لأنه كافر لا يستحقها لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِيَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

فالمسألة يا أخواني خطيرة جداً.. ومع الأسف فإن بعض الناس يتهاونون في الأمر ويقرون في البيت من لا يصلي وهذا لا يجوز.

هذا حكم من ترك الصلاة رجلاً أو امرأة يا من تركت الصلاة أو تساهلت بها تدارك بقية العمر بالعمل الصالح فلا تدري كم بقي من عمرك هل بقي شهور أو أيام أو ساعات العلم إلى الله وتذكر دائماً قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ (٢٧) **وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٢٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٢٩)** [النازعات: ٣٧ - ٣٩].

وفقك الله لكل خير وفلاح وجعل الله أيامك سعادة وهناء في ظل شريعة الله علماً وعملاً ودعوة.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر

- ١ - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي - دار الكتب العلمية ط ١ / ١٤٠٦ هـ.
- ٢ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.
- ٣ - تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.
- ٤ - تاريخ عمر لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.
- ٥ - التبصرة لابن الجوزي، دار الكتب العلمية ط ١، ١٤٠٦ هـ.
- ٦ - تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي، دار إحياء التراث العربي.
- ٧ - جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط ٥، ١٤٠٠ هـ.
- ٨ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
- ٩ - ديوان يوسف القرضاوي «نفحات ولفحات» دار الضياء للنشر، ط ١، ١٤٠٥ هـ.
- ١٠ - ذيل تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي، دار إحياء التراث العربي.
- ١١ - رهبان الليل، سيد ابن الحسين العفاني، مكتبة ابن تيمية، ط ١ / ١٤١٠ هـ.
- ١٢ - سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١ هـ.
- ١٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

- ١٤ - شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي دار الكتب العلمية ط ١، ١٤٠٤هـ.
- ١٥ - صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق، محمود فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.
- ١٦ - صلاة الجماعة حكمها وأحكامها د. صالح السدلان، دار الوطن ط ١، ١٤١٣هـ.
- ١٧ - طبقات الحنايلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية.
- ١٨ - فضائل الذكر لابن الجوزي، دار الجيل ط ٢، ١٤٠٥هـ.
- ١٩ - الفوائد لابن القيم الجوزية، دار النفائس.
- ٢٠ - في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط ٩، ١٤٠٠هـ.
- ٢١ - كتاب الزهد للإمام أحمد، دراسة وتحقيق محمد السعيد، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٦هـ.
- ٢٢ - معلومات مهمة من الدين، محمد جميل زينو.
- ٢٣ - مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط ١، ١٤٠٣هـ.
- ٢٤ - وفيات الأعيان وأنباء الزمن، لابن خلكان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ.

أولئك الأخيار

المقدمة

الحمد لله الذي جعل جنة الفردوس لعباده المؤمنين، ويسر لهم للأعمال الصالحة الموصلة إليها، فلم يتخذوا سواها شغلاً، وسهل لهم طرقها فسلكوا السبيل الموصلة إليها ذلاً، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين الذي قام من الليل حتى تفترت قدماه.

وبعد:

فإن صحبة الأخيار ومجالسة الصالحين، وسماع أخبارهم تغرس في النفوس حب الخير والرغبة في مجاراتهم والوصول إلى ما وصلوا إليه من الجِد والاجتهاد في الطاعة.. فإن القلوب تحتاج إلى تذكير وترغيب خاصة مع ما نراه من طول الأمل واللهث وراء حطام الدنيا.

وهذه هي المجموعة الثالثة من سلسلة «أين نحن من هؤلاء؟» تحت عنوان «أولئك الأخيار» نتحدث عن قيام الليل.. وهو جانب مضيء مشرق من أعمال سلفنا الصالح. لعل قلوبنا تستيقظ من غفلتها وتصحو من غفوتها.

جعل الله أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

قيام الليل

قال - تعالى - : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ إِنَّهُ لَيَلَّيْلٌ سَاجِدٌ أَوْقَايْمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال - جل وعلا - : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [١٥] ءَاخِذِينَ مَا ءَانَدَهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].

وعندما سُئِلَ رسول الله ﷺ، عن رجل نام الليل حتى أصبح قال : «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه»^(١).

وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - قيام الليل بقوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل: ٦]. وفسر ابن كثير قوله : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [٦] بأنه أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش^(٢).

وقيام الليل مرحلة صراع ومجاهدة مع النفس فلا شيء أعظم أثراً في النفس البشرية من الاستمرار في الطاعة والعبادة خاصة وقت الراحة والدعة والسكون، ولذلك شهد الله - سبحانه وتعالى - لقوام الليل بالإيمان الصادق ووعدهم بالخير الجزيل فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [١٥].

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٦.

لَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١١﴾
فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ [السجدة: ١٥-١٧].
أخي الحبيب:

إن قيام الليل عبادة تصل القلب بالله، وتجعله قادراً على التغلب على مغريات الحياة وعلى مجاهدة النفس، في وقت هدأت فيه الأصوات ونامت العيون وتقلّب النّوأم على الفرش، ولكن قُوام الليل يهبون من فرشهم الوثيرة وسررهم المريحة ويكابدون الليل لا ينامون إلا القليل، ولذا كان قيام الليل من مقاييس العزيمة الصادقة وسمات النفوس الكبيرة وقد مدحهم الله وميّزهم عن غيرهم بقوله - تعالى -: ﴿أَمَنَ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ آتَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ﴾ [الزمر: ٩].

وقيام الليل سنة مؤكدة حثّ النبي، ﷺ على أدائها بقوله: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم ومطردة للداء عن الجسد»^(١).

وقال، ﷺ مبيناً فضل قيام الليل: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل»^(٢)، وقد حافظ عليه، ﷺ، ولم يتركه لا سفراً ولا حضراً وقام، ﷺ، وهو سيد ولد آدم وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - حتى تفتّرت قدماه - فقيل له: أما قد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٣).

(١) أخرجه الترمذي وأحمد وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) متفق عليه.

وقد رَغِبَ ﷺ في قيام الليل لما فيه من الخير العظيم والإحسان الجزيل بقوله: «إن في الليل ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إيَّاه»^(١).

وهذا من منِّه وكرمه - جلَّ وعلا -.

* هذا عمر بن ذر يذكرنا بتلك الساعات والليالي فيقول: «اعملوا لأنفسكم رحمكم الله في هذا الليل وسواده، فإن المغبون من غُبن خير الليل والنهار، والمحروم من حرم خيرهما، وإنما جعلاً سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم، ووبالاً على الآخرين للغفلة عن أنفسهم، فأحيوا الله أنفسكم بذكره، فإنما تحيا القلوب بذكر الله، كم من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله - عز وجل - للعابدين غداً، فاعتنموا عُمر الساعات والليالي والأيام يرحمكم الله»^(٢).

فيا أخي:

اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة والثلث موجود والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يومٌ لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧]^(٣).

قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: «صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور»^(٤).

وقد عَجِبَ أحمد بن حرب - رضي الله عنه - من نوم النائمين وغفلة

(١) أخرجه مسلم.

(٢) حلية الأولياء ١٠٩/٥.

(٣) الفوائد ص ٦٤.

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٤.

الغافلين فقال: «عجبت لمن يعلم أن الجنة تزين فوقه، والنار تُضرم تحته، كيف ينام بينهما»^(١).

ولذلك تجدهم يستعدون لليل ويفرحون بإقباله ويغتمون بإدباره، فكان عمر بن ذر إذا نظر إلى الليل قد أقبل قال: جاء الليل، ولليل مهابة، والله أحق أن يُهاب^(٢).

وما ذاك إلا من توقير الله ورغبة فيما عنده، وهم أقوام وصفهم الفضيل بن عياض بقوله: «أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة، إنما هو على الجنب فإذا تحرك قال: ليس هذا لك، قومي خذي حظك من الآخرة»^(٣).

وهو كما ذكر عبدالرحمن بن يزيد - جابر حين قال: «كنا نُغازي عطاء الخراساني وننزل متقاربين، فكان يحبي الليل، ثم يخرج رأسه من خيمته فيقول: يا عبدالرحمن، يا هشام بن الغار، يا فلان، قيام الليل وصيام النهار أيسر من شرب الصديد، ولبس الحديد، وأكل الزقوم، فالنجاء النجاء...»^(٤).

أخي..

سفر الليل لا يطيقه إلا مُضْمَرُ المجاعة، النجائب في الأوّل وحاملات الزاد في الأخير^(٥).

(١) الإحياء ٤/٤٣٥.

(٢) حلية الأولياء ٥/١١١.

(٣) صفة الصفوة ٢/٢٤١.

(٤) السير ٦/١٤٣.

(٥) الفوائد ص ٦٧.

لبست ثوب الرجاء والناس قد رقدوا
وقمت أشكو إلى مولاي ما أجْدُ
وقلت يا عُدتي في كل نائبة
ومن عليه لكشف الضر أَعتمدُ
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها
مالي على حملها صبرٌ ولا جلدُ
وقد مددتُ يدي بالضر مبتهلاً
إليك يا خير من مُدت إليه يدُ
فلا تردنها يا رب خائبة
فبحرُ جودك يروي كل من يَرُدُّ^(١)

* قال الحسن - رحمه الله - : ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة المال، فقيل له ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره^(٢).

وهذه المجاهدة والمكابدة في أول الأمر ثم تتبدل إلى محبة وشوق، فقد عُرِف عن ثابت البناني أنه يقوم الليل ويصوم النهار، وكان يقول: ماشيء أجده في قلبي ألد عندي من قيام الليل.

وقوَام الليل يحبون - مثلنا - النوم والراحة والدعة ولكنهم نفضوا غبار الكسل واستحثوا الخطى وقروا العزائم انظر إلى عبدالعزيز بن رواد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمر يده عليه ويقول: «إنك لليت، والله إن في الجنة

(١) طبقات الشافعية ٤/ ٢٢٥.

(٢) الإحياء ١/ ٢٢٠.

لألين منك، ولا يزال يصلي الليل كله»^(١).

ويسبق حلول الليل استعداد مبكر ونية صادقة لقيام الليل فهذا معاوية بن قرّة يذكر نصيحة أبيه لهم إذا صلّوا العشاء... يا بنيّ ناموا لعل الله أن يرزقكم من الليل خيراً.

ولا يكن نهار المسلم كما قال الشاعر:

نهارك يا مغرورٌ سهوٌ وغفلةٌ

وليلُك نومٌ والردى لك لازمٌ

وتتعبُ فيما سوف تكره غبه

كذلك في الدنيا تعيشُ البهائم

فكن - يا أخي - من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الولد

يتبع الأم^(٢).

* خرج سليمان التيمي إلى مكان يصلي الصبح بوضوء عشاء الآخرة

وكان يأخذ بقول الحسن؛ إنه إذا غلب النوم على قلبه توضأ^(٣).

إن جهاد النفس جهاد طويل وطريق صعب يحتاج إلى صبر ومثابرة، فقد

كان صفوان بن سليم في الصيف يصلي في البيت، وإذا كان في الشتاء صلى

في السطح لئلا ينام^(٤).

وهذا الجهاد والحرص على القيام يكون بأجل هيئة وأحسن زينة..

(١) الإحياء ١/ ٤٢٠.

(٢) الفوائد ص ٦٨.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ٢٩.

(٤) حلية الأولياء ٣/ ١٥٩.

فكان الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - له قلنسوة خاطها بيده، فيها قطن
فإذا قام الليل لبسها. ^(١)

قم في الدجى واتل الكتاب ولا تنم
إلا كنومة حائرٍ ولهان
فلربما تأتي المنيئة بغتة

فتساق من فرشٍ إلى الأكفان
ياحبذا عينان في غسق الدجى
من خشية الرحمن باكيان

ومجاهدة النفس صعبة المنال في البداية ولكنها سهلة الانقياد بالإصرار
والعزيمة في النهاية، كما ذكر ذلك ثابت البناني بقوله: «كابدت الصلاة(*)
عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة» ^(٢).

وكانت أم سليمان - رضي الله عنها -، على نبينا وعليه أفضل الصلاة
والسلام، تقول له: «يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل
تدع الرجل فقيراً يوم القيامة، يا بني.. من يرد الله لا ينم الليل، لأن من
نام الليل ندم بالنهار» ^(٣).

ياكثر الرقـاد والغفـلات
كثرة النوم تورث الحشرات ^(٤)

(١) السير ٢٠٦/١١.

(*) أي صلاة آخر الليل.

(٢) السير ٢٢٤/٥، صفة الصفوة ٢٦٠/٣.

(٣) الزهر الفائح ص ١٩.

(٤) الزهر الفائح ص ١١١.

* كانت أم الربيع بن خيثم إذا رأت قلقه بالليل قالت: «يا بني لعلك قتلت قتيلاً، فيقول: . يا أماه قتلت نفسي»^(١).

وقالت أم غزوان له: «أما لفراشك عليك حق؟! أما لنفسك عليك حق؟ قال: يا أماه. . إنما أطلب راحتها، أبادر طي صحيفتي»^(٢).

أما شداد بن أوس فإنه إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم، فيقول: «اللهم إن النار أذهبت النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح»^(٣).

يَنَاجُونَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِلَهُهُمْ

فتسري هموم الدنيا والناس نَوْمٌ^(٤)

ورغبة في الخير العظيم والجزاء الأكمل. . صام منصور بن المعتمر أربعين سنة وقام ليلها وكان يبكي، فتقول له أمه: يا بني، قتلت قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعت بنفسي، فإذا كان الصبح، كحل عينيه، ودهن رأسه، وبرق شفثيه(*) وخرج إلى الناس^(٥).

قال عمرو بن ذر: «لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم، ونظروا إلى أهل الغفلة قد سكنوا إلى فرشهم ورجعوا إلى ملاذهم من النوم، قاموا إلى الله فرحين مستبشرين بما قد وهب لهم من حُسن عادة السهر وطول التهجد، فاستقبلوا الليل بأبدانهم وباشروا الأرض بصفاح وجوههم،

(١) المدهش ص ٤٤٣.

(٢) مختصر قيام الليل ٢٧.

(٣) صفة الصفوة ١/ ٧٠٩.

(٤) صفة الصفوة ٣/ ٣٨٠.

(*) وذلك حتى لا يظهر عليه أثر الجهد والسهر خوفاً من الرياء.

(٥) السير ٥/ ٤٠٦، صفة الصفوة ٣/ ١٦٢.

فانقضى عنهم الليل وما انقضت لذتهم من التلاوة، ولا ملّت أبدانهم من طول العبادة، فأصبح الفريقان وقد ولىّ عنهم الليل بريح وغبن، أصبح هؤلاء قد ملّوا النوم والراحة، وأصبح هؤلاء متطلعين إلى مجيء الليل للعادة، شتّان ما بين الفريقين».

* حين سألت ابنة الربيع بن خيثم أباها: يا أبتاه الناس ينامون ولا أراك تنام؟ قال: يا بنية إن أباك يخاف السيئات^(١).

والآن تقلبت الأمور وتغيّرت الأحوال فمن لم ينم فهو غالباً قائم على منكر أو محرم. . . ولربما كان مهموماً مغموماً من نقصان مال وأمر تجارة أو عارض من عوارض الدنيا، ولنرى ما كان يهتمهم ويشغلهم. . . فقد كان أحدهم وهو بشر الخافي لا يزال مهموماً، فقليل له في ذلك، فقال: إني مطلوب، وكان لا ينام الليل. . . وكان يقول: أخاف أن يأتيني أمره وأنا نائم^(٢).

وقالت ابنة لعامر بن عبد قيس: مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام. . . فقال: يا بنية إن جهنم لا تدع أباك ينام^(٣).

ألا يـاعين ويحك أسعديني
بطول الدمع في ظلم الليالي
لعلك في القيامة أن تفوزي
بخير الدهر في تلك العاللي^(٤)

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٤٦٩.

(٢) الزهر الفاتح ص ١٨.

(٣) الزهد ص ٣١٦.

(٤) صفة الصفوة ٥٩/٤.

ولنسمع مالك بن دينار وهو يقول: لو استطعت أن لا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرقتهم ينادون في منار الدنيا كلها يا أيها الناس: **النار، النار** ^(١).

وحتى سماع هذا النذير إذا بقي الأمر دون جدٍّ ووثبة قوية فهو كما قال هَرَم بن حبان: لم أر مثل النار نام هاربها ولم أر مثل الجنة نام طالبها ^(٢).

تَقِظْ لِسَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ يَافِتَى
لَعَلَّكَ تَحْظَى فِي الْجَنَانِ بِحُورِهَا
فَقِمْ فَتَقِظْ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ

عَسَاكَ تُوفِّي مَا بَقِيَ مِنْ مَهْوَرِهَا
وقيام الليل مَنَّةٌ من الله - سبحانه وتعالى - وفضل منه على عباده الصالحين الذين يسر لهم أسباب القيام على عبادة الصالحين الذين يسر لهم أسباب القيام وأعانهم عليه.

وقيام الليل مَنَّةٌ من الله - سبحانه وتعالى - وفضل منه على عباده الصالحين الذي يسر لهم أسباب القيام وأعانهم عليه.

* قال أبو سفيان الدارني: «من صَفَى صُفْيَ لَه، وَمَنْ كَدَّرَ كُدَّرَ عَلَيْهِ. وَمَنْ أَحْسَنَ فِي لَيْلِهِ كُوفِيَ فِي نَهَارِهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ كُوفِيَ فِي لَيْلِهِ» ^(٣).

ومن أهم الأسباب المانعة التي تعوق عن قيام الليل:
المعاصي والذنوب، فإن قيام الليل منحة ربانية للصالحين من عباده.

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٨٦.

(٢) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٣٣٢.

(٣) صيد الخاطر ص ٣٤.

ذكر ذلك الحسن بقوله: «إن الرجل ليزنب الذنب فيحرم به قيام الليل»^(١).

وقال سفيان الثوري: «حرمت قيام الليل بذنب أحدثته منذ خمسة أشهر»^(٢).

ومن حُرِّم من خير القيام ومناجاة رب العالمين فإنه بسبب ذنوبه ومعاصيه.

ونبه إلى ذلك الفضيل بن عياض فقال: «إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار فاعلم أنك محروم كبلتك خطيئتك»^(٣).

وحين اشتكى شاب إلى الحسن عدم قيامه الليل قال له الحسن: قَيِّدْكَ خطاياك^(٤).

فمن ترك المعاصي والذنوب أعانه الله على فعل الخيرات والطاعات، فقيام الليل دأب الصالحين، بعيد عن الفاسقين قريب للتائبين.

وفسر ذلك بشر بن الحارث عندما قال: «لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات سدًّا»^(٥).

فإن من تحرى الخير وجده، ومن بحث عن الطريق لقيه، ومن أقبل على الله أعانه وسدده.

(١) الإحياء ١٠/٤٤٢٠.

(٢) حلية الأولياء ٧/١٧.

(٣) السير ٨/٤٣٥، الإحياء ١/٤٢٠.

(٤) صفة الصفوة ٣/٢٣٥.

(٥) السير ١٠/٤٧٣.

أخي:

همتك احفظها بقيام الليل، فإن الهمة مقدمة الأشياء فمن صلحت له همته وصدق فيها، صلح له ما وراء ذلك من الأعمال ويمثل لها ابن القيم بمثل لطيف فيقول مثل القلب مثل الطائر، كلما علا، بعد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات^(١).

* قال أبو عصمة بن عصام البيهقي: «بتُّ ليلة عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء فوضعه فلما أصبح، نظر في الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله رجل يطلب العلم لا يكون له وردٌ بالليل!!»

ونلتفت قليلاً إلى رجال اليوم وكهول الغد.. إلى الشباب أصحاب القوة والنشاط والهمة والعزيمة ونناديهم بنداء سفيان الثوري الذي كان يصلي ثم يلتفت إلى الشباب فيقول: إذا لم تصلوا اليوم فمتى؟!^(٢)
وقد ذكر إبراهيم بن شماس أحمد بن حنبل فقال: كنت أعرف أحمد بن حنبل: وهو غلام وهو يحيي الليل^(٣).

من لم يقيم للجهد قبل مشييه

وخمود سريره، فليس بقائم^(٤)

وبمقارنة سريعة نرى أن أكثر القَوَّام هم من الشيوخ والكهول.. فأين نصيب الشباب من ذلك.. وهو سن الصحة والقوة والنشاط.. مقارنة بذلك الجسم النحيل الضعيف، الذي احدودب ظهره، وضعفت قوته،

(١) الجواب الكافي ص ٧٠.

(٢) حلية الأولياء ٥٩/٧.

(٣) السير ٨/١١.

(٤) عقد اللؤلؤ والمرجان ص ٢٦٩.

وارتعشت أطرافه . . ورغم كل ذلك نجده يقوم لله عابداً، راکعاً، ساجداً .
قال شميظ بن عجلان موضعاً ذلك التفاوت : إن الله - عز وجل -
جعل قوة المؤمن في قلبه ولم يجعلها في أعضائه، ألا ترون أن الشيخ يكون
ضعيفاً يصوم الهواجر ويقوم الليل، والشاب يعجز عن ذلك . . (١)
وكان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو ممتّع بقوته وعقله، فوثب
يوماً وثبة شديدة، فعوتب في ذلك فقال: هذه جوارح حفظناها عن
المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر (٢) .
وقال بعض العلماء في كلمات صادقة : ليس في الدنيا وقتٌ يشبه نعيم
أهل الجنة، إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة (٣) .
وكان ابن مسعود - رضي الله عنه - إذا هدأت العيون قام فيسمع له دويٌّ
كدويّ النحل حتى يصبح (٤) .
ويروى أن طاؤساً جاء في السحر يطلب رجلاً، فقالوا: هو نائم،
قال : ما كنت أرى أن أحداً ينام في السحر (٥) .
إذا ما الليل أظلم كابدوه
فيسفر عنهم وهمٌ وهمٌ ركوع
أطار الخوفُ نومهم فقاموا
وأهلُ الأمنِ في الدنيا هجوع

(١) صفة الصفوة ٣/ ٣٤١، حلية الأولياء ٣/ ١٣٠ .

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٢٦ .

(٣) الإحياء ١/ ٤٢٣ .

(٤) الإحياء ١/ ٤١٩ .

(٥) السير ٥/ ٤٢، صفة الصفوة ٢/ ٢٨٥ .

لهم تحت الظلام وهم سجودٌ

أني من تنفرج الضلع (١)

أما عمرو بن دينار فإنه جزأ الليل ثلاثة أجزاء، ثلثاً ينام، وثلثاً يدرس حديثه، وثلثاً يصلي (٢).

وهذا كمال الاستفادة من الوقت، ونرى اليوم من أضاع نهاره ثم هو في الليل بين نائم أو قائم على منكر تاركٍ لواجب، لأن النوم والسهر فيما لا فائدة منه مضيعة لأوقات محسوبة باللحظات والأنفاس.

قال محمد بن عبدالعزيز بن سليمان: حدثني أمي قالت: قال أبوك: ما للعابدين وما للنوم؟ لا نوم والله في دار الدنيا إلا نوم غالب، قال فكان والله لا يكاد ينام إلا مغلوباً.

وفي أيامنا هذه يشتكي الكثير من الأرق ومن السهر، ولا يفكر أن يستفيد من هذا الوقت بصلاة أو قراءة قرآن.. بل تجده يتقلب يمناً ويسره بدون فائدة، فالنوم بعيد والتفكير في صلاة الليل والاستفادة من الوقت غير وارد.

ورحم الله طاووساً كان إذا اضطجع على فراشه يتقلّب عليه كما تتقلّب الحبة على المقلاة، ثم يثب ويصلي إلى الصباح، ثم يقول: طيرٌ ذكر جهنم نوم العابدين (٣).

أخي:

لما علم الصالحون قصر العمر، وحثهم حادي ❀ وسارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ

(١) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٢٧٠.

(٢) السير ٣٠٢/٥.

(٣) الإحياء ٤٢٠/١.

مَنْ رَزَقَكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴿ طُوبَى

مراحل الليل من النهار إنتهاباً للأوقات .

أصغ سمعك لنداء ربك، ﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠] وبادر طيِّ صحيفتك، وأحسر عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الموتى، وشمِّر للسباق غداً، فإن الدنيا ميدان المتسابقين^(١).

عن نافع أنه قال: كان ابن عمر - رضي الله عنه - يحجي الليل صلاة ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة إلى أن أقول: نعم، فيقعد ويستغفر ويدعو حتى يصبح.

وهاهو الحسن بن علي لا يزال مصلياً ما بين المغرب والعشاء، فقليل له في ذلك فقال: إنها ناشئة الليل.

أما منصور بن المعتمر فكان يصلي في سطحه، فلما مات، قال غلام لأُمه: يا أُمّاه: الجذع الذي كان في سطح آل فلان ليس أراه؟ قالت: يا بني ليس ذاك بجذع.. ذاك منصور قد مات^(٢).

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟

كَرَّرَ عَلَيَّ حَدِيثَهُمْ يَا حَادِي
فَحَدِيثُهُمْ يَجْلُو الْفَوَادِ الصَّادِي^(٣)

كان أسيد - رضي الله عنه - إذا آوى إلى فراشه يتقلب كالحبة على المقلي

(١) رهبان الليل ص ٣٧.

(٢) السير ٤٠٦/٥، صفة الصفوة ٣/١١٣.

(٣) بستان العارفين ص ٤.

ويقول: إنك لين، وفراش أَلين منك^(١)، ولا يزال راکعاً وساجداً إلى الصباح^(٢).

ولم يكن أمام أعينهم هدف سوى الوصول إلى مرضاة الله ودخول جنات عدن، فانظر إلى صنيعهم كما قال عبدالله بن داود: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه، كان لا ينام الليل^(٣) وهم كما قال فيهم القائل:

أَلستم خير من ركب المطايا

وأنادي العالمين بطـون راح^(٤)

ونحن ينطبق علينا قول إبراهيم التيمي: «كم بينكم وبين القوم، أقبلت عليهم الدنيا فهربوا، وأدبرت عنكم، فاتبعتموها»^(٥).

فالدنيا مضمار سباق وقد انعقد الغبار وخفي السابق، والناس في المضمار بين فارس وراجل وأصحاب حُر معقرة.

قس على نفسك أخي انظر أين أنت منهم. واعلم أن من علامات الشقاء ما قاله مالك بن دينار. أربع من علم الشقاء قسوة القلب وجود العين وطول الأمل والحرص على الدنيا^(٦).

* ذات ليلة زار قيس بن مسلم، محمد بن جحادة، فأتاه وهو في المسجد بعد صلاة العشاء، ومحمد قائم يصلي، فقام قيس بن مسلم في

(١) يعني في الجنة.

(٢) الزهر الفاتح ص ٢٠.

(٣) الإحياء ٤/ ٤٣٥.

(٤) شذرات الذهب ١/ ١٤١.

(٥) الفوائد ص ٦٥.

(٦) السير ٥/ ٦١، حلية الأولياء ٤/ ٢١٢.

الناحية الأخرى يصلي، فلم يزالا على ذلك حتى طلع الفجر، وكان قيس بن مسلم إمام مسجده، فرجع إلى الحي فأمهم، ولم يلتقيا، ولم يعلم محمد مكانه، فقال بعض أهل المسجد: زارك أخوك قيس بن مسلم البارحة فلم تنفثل إليه. قال: ما علمته، فغدا عليه فلما رآه قيس بن مسلم مُقبلاً، قام إليه فاعتنقه، ثم خلوا جميعاً فجعلوا يبيكان^(١).

وحالنا اليوم تبدلت فما أن يسلم الإمام حتى ترى من يتفحص الوجوه ويلتفت يمنة ويسرة بدون داعٍ فيؤثر على سكونه وهدوئه وربما غفل عن الأذكار الواردة بعد الصلاة.

حدث المغيرة بن حبيب فقال: يموت مالك بن دينار وأنا معه في الدار لا أدري ما عمله! قال: فصليت معه العشاء الآخرة ثم جئت فلبست قطعة في أول ما يكون الليل، قال: وجاء مالك فقرَّب رغيفه فأكل ثم قام إلى آخر الصلاة فاستفتح ثم أخذ بلحيته فجعل يقول: إذا جمعت الأولين والآخرين فحرّم شبيهه مالك بن دينار على النار، فوالله ما زال كذلك حتى غلبتني عيني، ثم انتبهت فإذا هو على تلك الحال يقدّم رجلاً ويؤخر رجلاً، ويقول: يا رب إذا جمعت الأولين والآخرين فحرّم شبيهه مالك بن دينار على النار، فما زال كذلك حتى طلع الفجر^(٢).

لله قـومٌ خلصوا في حُبِّه

فاختارهم ورضي بهم خداماً

قـومٌ إذا جن الظلام عليهم

أبصرت قـوماً سجداً وقياماً

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٢٧.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٦١.

فسيغنمون عرائساً بعرائس
ويُسَوَّءون من الجنان خياماً
وتقرُّ أعينهم بما أخفي لهم
ويسمعون من الجليل سلاماً
يتلذذون بذكره في ليلهم
ويكابدون لدى النهار صياماً^(١)

وذكر أن أبا حنيفة قام ليلة هذه الآية: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ﴾ [القمر: ٤٦]. يرددها ويبكي ويتضرع^(٢).

وهذا معمر مؤذن سليمان التيمي يقول: صلى إلى جنبي سليمان التيمي بعد العشاء الآخرة وسمعتة يقرأ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فلما أتى على هذه الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٧٢]، جعل يرددها حتى خفَّ أهل المسجد فانصرفوا، فخرجت وتركته، وغدوت لأذان الفجر فنظرت فإذا هو في مقامه فسمعت فإذا هو يجزها وهو يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٣).

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلباً لحياة الأبد، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق فلمحوا المقصد، ف قرب عليهم البعيد، وكلما أمرت لهم الحياة حلي لهم تذكر: ﴿هَذَا

(١) عقود اللؤلؤ ص ٧٩.

(٢) تاريخ بغداد ١٣/٣٥٧.

(٣) حلية الأولياء ٢٩/٣.

يَوْمَكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ^(١).

وقال القاسم بن أبي أيوب: «سمعت ابن جبير يردد هذه الآية في الصلاة بضعاَ وعشرين مرة: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] ^(٢).

لله ساء هرُّ ليله ما يهجع
وجلُّ الفؤاد من الذنوب مُصدعُ
يبكي بدمع ساكب هفواته
والليل في جلباتِه متبرقعُ
ندماً على ما كان من عصيانه
ملكاً تذلُّ له الملوك وتحصعُ
ياربُّ، ما للذنوب غيرك غافرُ
وإليك منه يا إلهي المفزعُ
يا ربُّ عبدك ضارعٌ فاغفر له
ما لم يزل يدعوك فيه ويضرعُ ^(٣)
قل لبعضهم: كيف الليل عليك؟ فقال: ساعة أنا فيها بين حالتين،
أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتمُّ بفجره إذا طلع، ما تم فرحي به قط ^(٤).
وقال وهب بن الورد في نداء حار وكلمات مؤثرة: إن استطعت ألا
يسبقك إلى الله أحد فأفعل ^(٥).

(١) الفوائد ص ٦٠.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ٧٧.

(٣) عقود الوُلُو ص ٥١.

(٤) الإحياء ١/ ٤٢٣.

(٥) رهبان الليل ص ٣٦.

أخي الحبيب.. في هذه الأمة سباق إلى الخير أين أنت منه؟

قال قتادة: إن الملائكة تفرح بالشتاء للمؤمن، يقصر النهار فيصومه ويطول الليل فيقومه.

وذكر أن عامراً لما حضر جعل يبكي.. فقالوا: ما يبكيك يا عامر؟! قال ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكنني أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الشتاء^(١).

ولما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل لأربابه، وتملأ الشيطان وقياد النفوس، ورأوا الدولة للنفس الأمارة، لجأوا إلى حصن التضرع والالتجاء^(٢).

قال إبراهيم بن أدهم أفضل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان، ومن وفى العمل وفى له الأجر، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير^(٣).

ولما لقيام الليل من الأجر العظيم والثواب الجزيل حثَّ، ﷺ أن يعُم هذا الخير أهل البيت جميعهم فقال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله امرأة قامت من الليل، ثم أيقظت زوجها فصلّى، فإن أبى نضحت الماء في وجهه»^(٤).

وقال ﷺ: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين، كتباً من الذاكرين كثيراً والذاكرات»^(٥).

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٣٢٣.

(٢) الفوائد ص ٦٢.

(٣) كتاب الزهد للبيهقي ص ٢٨٢.

(٤) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

(٥) أخرجه أبو داود والنسائي.

واهتم السلف الصالح بأمر أسرهم وساروا على نهجه، ﷺ في الحث على الخير والتذكير به .

فعن القاسم بن راشد الشيباني قال . . كان رفعة بن صالح نازلاً عندنا، وكان له أهلٌ وبنات وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته . .

يا أيها الـركب المـعرّسـونا
أكـُلْ هـذا الـليل تـرقـدونا
ألا تـقـومـون فتـصلـوننا

قال . . فيتواثبون؛ من هنا باكٍ، ومن ههنا داع، ومن ههنا قاريء، ومن ههنا متوضيء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى^(١) .

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟!

امنـع جـفـونـك أن تـذوق مـناماً
وذـر الـدمـوع عـلى الخـدود سـجـاماً
واعـلم بـأنـك مـيت ومـحـاسـب
يـامـن عـلى سـخـط الجـليل أـقـامـا
لـلـه قـوم أـخـلـصـوا فـي جـبـه
فـرضـي بـهـم واخـتـصـهـم خـدـامـا
قـوم إذا جـنّ الظـلام عـلـيـهـم
بـاتـوا هـنـالك سـجّـداً وقـياماً

خَصَّ الْبَطُونُ مِنَ التَّعَفُّفِ ضَمْرًا

لَا يَعْرِفُونَ سِوَى الْحَلَالِ طَعَامًا

وحين تزوّج رباح القسي امرأة فبنى بها، فلما أصبح قامت إلى عجيتها، فقال: لو نظرت إلى امرأة تكفيك هذا، فقالت: إنما تزوّجت رباحاً القسي ولم أُرني تزوّجت جباراً عنيداً، فلما كان الليل نام ليختبرها، فقامت ريع الليل ثم نادته، قم يا رباح، فقال: أقوم، فلم يقم، فقامت الربع الآخر ثم نادته فقالت: قم يا رباح، فقال أقوم. فلم يقم، فقامت الربع الآخر ثم نادته فقالت: قم يا رباح، فقال أقوم. فقالت: مضى الليل وعسكر المحسنون وأنت نائم، ليت شعري من غرّني بك يا رباح، قال: وقامت الربع الباقي^(١).

وانتبهت امرأة حبيب العجمي بن محمد ليلة وهو نائم، فأنبهته في السحر، وقالت له: قم يا رجل فقد ذهب الليل وجاء النهار وبين يديك طريقٌ بعيد وزادٌ قليل، وقوافل الصالحين قد سارت، ونحن قد بقينا^(٢).

فطالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيرة وطلبه إلا بحسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقي ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع قضاء وأطيه^(٣).

قالت امرأة حسان بن أبي سنان: كان يجيء فيدخل معي في فراشي، ثم

(١) صفة الصفوة ٤٤٤.

(٢) صفة الصفوة ٣٥/٤.

(٣) الفوائد ص ٧١.

يخادعني كما تخادع المرأة حبيبها، فإذا علم أني نمت سل نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلي، فقلت له: يا أبا عبد الله كم تعذب نفسك؟ ارفق بنفسك، فقال: اسكتي ويحك يوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زماناً^(١).
أخي:

إنما يقطع السفر ويصل المسافر.. بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده^(٢)؟
عباد ليلٍ إذا جن الظلامُ بهم
كما عابِدِ دمعَه في الخد أجراًهُ
وأشدُّ غابٍ إذا نادى الجهادُ بهم
هَبّوا إلى الموتِ يستجدون رؤيَاه
يا ربّ فابعث لنا من مثلهم نفرأ
يُشَيِّدون لنا مجسداً أضعناهُ
كان للحسن بن صالح جاريةً فباعها من قوم، فلما كان جوف الليل، قامت الجارية، فقالت: يا أهل الدار الصلاة، فقالوا: أصبحنا؟ أطلع الفجر؟ فقالت: وما تصلُّون إلا المكتوبة؟ قالوا: نعم، فرجعت إلى الحسن فقالت: يا مولاي بعثني من قوم لا يصلُّون إلا المكتوبة، ردني فردها^(٣).
عن إبراهيم بن وكيع قال: كان أبي يُصلي، فلا يبقى في دارنا أحدٌ إلّا صلىّ حتى جارية لنا سوداء^(٤).

(١) حلية الأولياء ١١٧/٣، الزهر الفاتح ص ١٨.

(٢) الفوائد ص ١٣١.

(٣) الإحياء ٤٢٠/١.

(٤) السير ١٤٩/٩، صفة الصفوة ١٧١/٣.

أرأيت يا أخي الكريم .. كيف أن الخير عم منازلهم حتى الخدم تأثروا
بصلاحهم وعبادتهم ..

والنفسُ راغبة إذا رَغِبَتْها

وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

ولننظر في ليلة من ليالي أبي هريرة - رضي الله عنه - كيف يقضيها، فعن
أبي عثمان النهدي قال: تضيفت أبا هريرة سبعاً، فكان هو وامرأته وخادمه
يتعقبون الليل أثلاثاً، يُصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويُصلي هذا ثم يوقظ
هذا. (١)

أرأيت يا أخي .. كيف يقضون ليلتهم وكيف يحافظون على أوقاتهم ..
ونحن نهدر أيامنا ونُضيّع أعمارنا ولا نبالي ولا نحرص على ذلك وأرخص
شيء عندنا الوقت .. الدقائق تمر والأنفاس لا تعود وعُمرك محاسب
عليه .. فأعد حساباتك .. واغتنم ساعاتك ..

فرحم الله امرأاً كان قوياً فاستعمل قوته في طاعة الله، وكان ضعيفاً فعجز
عن معاصي الله (٢).

* كان زيد بن الحارث يُجزئ الليل إلى ثلاثة أجزاء: جزءٌ عليه، وجزءٌ
على ابنه، وجزءٌ على ابنه الآخر عبدالرحمن، فكان هو يصلي ثم يقول
لأحدهما: قم، فإن تكاسل، صلى جزأه، ثم يقول للآخر: قم، فإن
تكاسل، صلى جزأه، ثم يقول للآخر: قم، فإن تكاسل أيضاً صلى جزأه،
فيصلي الليل كله (٣).

(١) صفة الصفوة ١/ ٦٩٢، الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٢٥٩.

(٢) كتاب الزهد الكبير لليهقي ص ٢٨٤.

(٣) السير ٥/ ٢٩٦.

وكان الحسن بن علي - رضي الله عنه - يأخذ بنصيبه من القيام من أول الليل، وكان الحسين يأخذه من آخر الليل.

يا نائم الليل كم ترقد
قُم يا حبيبي قد دنسا الموعدُ
وخذ من الليل وأوقاته
وردًا إذا ما هجع السرُّ قد
قل لذوي الأبواب أهل التقى

قنطرة العرض لكم موعد
ودعا سليمان التيمي أهله ليتنافسوا في ليلهم: هلموا حتى نُجْزِيء
الليل، فإن شئتم كفيتكم أوله، وإن شئتم كفيتكم آخره^(١).

وقال وكيع بن الجراح: «كان علي والحسن ابنا صالح بن حي، وأمهم،
قد جزءوا الليل ثلاثة أجزاء، فكان علي يقوم الثلث ثم ينام، ويقوم الحسن
الثلث ثم ينام، وتقوم أمهما الثلث، فماتت أمهم، فجزءوا الليل بينهما،
فكانا يقومان به حتى الصباح، ثم مات علي فقام الحسن به كله^(٢).
يا راقد الليل انتبه

إن الخطوب لهما سُري
ثقة الفتى بزمأنه
ثقة محللة العرى^(٣)

ونحن نعيش معهم في جو العبادة ونرى طول صبرهم ومدى فرحتهم

(١) حلية الأولياء ٢٩/٣.

(٢) صفة الصفوة ١٥٢/٣.

(٣) حلية الأولياء ٣٣٨/٢.

تذكّر قول قتادة بن دعامة: قلما ساهر الليل منافق^(١).

فالمنافق تشق عليه الطاعة وترهقه العبادة... ولكن أهل الخير والصلاح لا ينامون. وكيف ينام من يترقّب حلول المساء ويفرح بانقطاعه في العبادة، كما قال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشمس فرحتُ بالظلام لحلوي بربي، وإذا طلعت، حزنت لدخول الناس عليّ^(٢).
وروي عن ابن أبي ذئب أنه كان يصلي الليل أجمع، ويجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غداً، ما كان فيه مزيداً من الاجتهاد...

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

يروى أن ضيغم قد تعبّد قائماً حتى أقعد، ومقعداً حتى استلقى، ومستلقياً حتى مات وهو ساجد، وكان يقول في دعائه: «اللهم إني أحب لقاءك لقاءً»^(٣).

والعجب أن الكثير منا وهبهم الله من الصحة والقوة والنشاط ما لا يوجد في غيرهم ولكن تتفاوت الأعمال، فالبعض لا يصلي حتى ثلاث ركعات كل ليلة، وهو لو قام الليالي المتتابة لما ضُعب ولا هُزل... بل إن بعض الشباب يفتخر أنه يمشي رياضة كل يوم ثلاثة أو أربعة كيلومترات... وتراه يغفل عن صلاة ركعتين كل ليلة...

وكان عثمان - رضي الله عنه - يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعه من أوله^(٤).

(١) الإحياء ١/٤٢٣.

(٢) السير ٧/١٤١.

(٣) الزهر الفائح ص ١٨.

(٤) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ١٨٩.

أما الإمام أبو حنيفة فقد كان يُحيي نصف الليل، فمر بقوم، فقالوا إن هذا يُحيي الليل كله، فقال: إني أستحي أن أوصف بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يُحيي الليل كله، ويروي أنه ما كان له فراش^(١).

وهذا الصبر على الطاعة إعانة من الله للصالحين فتراهم كما قال الفضيل: إني لأستقبل الليل من أوله فيهلوني طوله، فأفتح القرآن، فأصبح، وما قضيتُ نهمتي^(٢).

يا رجال الليل جـدُّوا
رُبَّ داعٍ لا يُـرَدُّ
ما يقـومُ اللَّـيل إلا
مـن لـه عـزْمٌ وجـدُّ
ليس شيءٌ كصلاة الـ
ليل للـقبر يُعـدُّ^(٣)

لننظر بتأمل ما ذكره ابن جريج عندما قال: لزمْتُ عطاء بن أبي رباح. ثماني عشرة سنة وكان بعدما كبر وَضَعُفَ يقوم إلى الصلاة، فيقرأ مائتي آية من البقرة وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك^(٤).

وكان بشر بن المفضل يُلقِي للفضيل حصيراً بالليل في مسجده، فيُصلي من أول الليل ساعة، حتى تغلبه عينه، فيُلقي نفسه على الحصير فينام قليلاً

(١) الإحياء ١/ ٤٢٠.

(٢) الإحياء ١/ ٤٢٠.

(٣) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٢٩٥.

(٤) السير ٥/ ٨٧.

ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم، وهكذا حتى يُصبح^(١).
أخي:

إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً ولأيامك وأنفاسك أمداً ومن كل ما سواه بُدّ ولا بُدَّ لك منه^(٢).

لهاك النومُ عن طلب الأمانِ
وعن تلك الكواتس في الجنانِ
تعيش مُخلداً لا موت فيها
وتلهو في الخيام مع الحسانِ
تقظ من منامك إن خيراً

من النوم التهجد بالقرآن^(٣)

قال أبو الجويرية: لقد صحبتُ أبا حنيفة - رضي الله عنه - ستة أشهر فما رأيته فيها ليلة وضع جنبه على الأرض^(٤).

أما إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله - فهو كما قال عنه ابنه عبدالله: كان أبي يقرأ كل يوم سبعاً، وكان ينام نومة خفيفة بعد العشاء، ثم يقوم إلى الصباح يُصلي ويدعو...^(٥).

ونحن نلحظ عبادة الصالحين، وتتوالى علينا صور الأخيار العابدين - نرى المزيد من حياتهم ومخافتهم على هذه الحياة والاستفادة منها الاستفادة

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٣٨.

(٢) الفوائد ص ١٢٩.

(٣) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٢٢٥.

(٤) الإحياء ١/ ٤٢٠.

(٥) السير ١١/ ٢١٤.

الكاملة.. لعلمهم أنها دار العمل.. فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل..

* أشتهر بقيام الليل كله، وصلاة الفجر بوضوء العشاء، الكثير من خيار هذه الأمة لا يعرفون ولم يذكروا وبعضهم ذكروا بذلك فمنهم سعيد بن المسيب، وصفوان بن سليم، ومحمد بن المنكدر المدنيون، وفضيل ووهب المكيان، وطاووس ووهب اليمانيان، والربيع بن خيثم والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني وأبو جابر الفارسيان، وسليمان التيمي ومالك بن دينار ويزيد الرقاشي وغيرهم^(١).

أخي المسلم:

قم الليل يا هذا لعلك ترشد
إلى كم تنام الليل والعمر ينفدُ
أراك بطول الليل ويحك نائمٌ
وغيرك في محرابه يتهججُ
أترقدُ يا مغرور والنار توقدُ
فلا حرها يُطفئ ولا الجمرُ يخمدُ
ألا إنها نارٌ يقال لها لظى
فتظلمُ أحياناً وحيناً توقدُ
فيا راكب العصيان ويحك خلها
ستحشرُ عطشاناً ووجهك أسودُ

ولو علم البطال ما نال زاهدٌ
 من الأجر والإحسان ما كان يرقدُ
 فصام وقام الليل والناسُ نومٌ
 ويخلو بربٍّ واحدٍ يتعبدُ
 فلو كانت الدنيا تدومُ لأهلها
 لكان رسول الله حيًّا يخلدُ

عن ابن إسحاق قال: قدم علينا عبدالرحمن الأسود حاجًا، فاعتلت
 رجله، فصلى على قدم حتى أصبح^(١).
 وقالت امرأة مسروق: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفخان من
 طول الصلاة.

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة
 ركعة، فلما مرض من تلك الأسوا(*) أضعفته، فكان يصلي في كل يوم
 وليلة مائة وخمسين ركعة، وقال كان قرب الثمانين، وكان يقرأ في كل يوم
 سبعاً، يختم في كل سبعة أيام، وكانت له ختمة في كل سبع ليالٍ سوى صلاة
 الظهر، وكان ساعة يصلي العشاء الآخر ينام نومة خفيفة ثم يقوم إلى
 الصباح يصلي ويدعو^(٢).

وكان سليمان التيمي يسبح الله في كل سجدة سبعين تسبيحة^(٣).
 ونحن في زماننا هذا نتساءل... ونشكو إلى الله ضعفنا وخورنا..

(١) المدهش ٤٣١.

(*) الأصوات التي أصابته في فتنة القول بخلق القرآن.

(٢) مناقب الإمام أحمد ٣٥٧.

(٣) تذكرة الحفاظ ١٥١.

فكم بين مشغولٍ بطاعة ربه
 وآخر بالذنوب الثقيل مقيّد
 فهذا سعيدٌ بالجنان منعمٌ
 وذاك شقيٌّ في الجحيم مُخلّد
 كأنني بنفسي في القيامة واقفٌ
 وقد فاض دمعِي والمفاصل ترعد
 ومن محبة الله القيام لمناجاته في ظلم الليالي وهي مناجاة لا يعدلها فرح
 ولا سرور ذكر ذلك أبو سليمان عندما قال: أهل الليل في ليالهم ألد من
 أهل الهوى في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا^(١).
 وقال ابن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث.. قيام الليل،
 ولقاء الإخوان، والصلاة في الجماعة^(٢).
 وكيف حالنا اليوم وقد أصبح الناس يتثاقلون في العبادة ويبتعدون عن
 الطاعة.
 فأخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل
 عن نفسه بالناس^(٣).
 ولنرى ليالينا التي أضعناها فيما لا فائدة منه كيف كانوا يغتمون بطلوع
 الفجر وكيف كانوا يفرحون بقيام الليل وصيام النهار.

(١) الإحياء ١/٤٢٣.

(٢) الإحياء ١/٤٢٣.

(٣) الفوائد ١٠٨.

فهذا علي بن البكار يؤكّد الحزن بقوله: منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء سوى طلوع الفجر^(١)

صلاتك نورٌ والعبادة رقود
ونومك ضدٌّ للصلاة عني^(٢)

يا ترى كيف كانت محبتهم للطاعات ومداومتهم عليها حتى جعلها الله عندهم من لذات الدنيا ..

كان ثابت البناني يقول: ماشيء أجده في قلبي ألدّ عندي من قيام الليل^(٣)

إنه ليل العبادة والطاعة، ليلٌ ينجي فيه رب السموات والأرض ..
يفرحون به إذا أتى ويحزنون إذا رحل .

يروى عن محمد بن المنكدر - رحمه الله - أنه لما نزل به الموت بكى، ف قيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكي حرصاً على الدنيا ولا جزعاً من الموت، ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وقيام ليالي الشتاء ..

وصيام ليالي الشتاء وقيامها هي التي سماها النبي ﷺ الغنيمة الباردة^(٤)

بكى الباكون للرحمن ليلاً
وباتوا وهم لا يسأموننا

(١) الإحياء ٤٢٣/١ .

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٥ .

(٣) صفة الصفوة ٢٦٢/٣ .

(٤) أخرجه الترمذي وأحمد .

بقاع الأرض من شوق إليهم
 تحن متى عليها يسجدونا^(١)
 قال الخلدی: رأيت أحد العباد في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال:
 طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم،
 ونفدت تلك الرسوم وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسفار.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!!

من كان يرغب في النجاة فما له
 غير اتباع المصطفى فيما أتى...
 ذاك السبيل المستقيم وغيره
 سبيل الضلالة والغواية والردى
 فاتَّبِعْ كتابَ الله والسنن التي
 صَحَّحتَ فذاك إن اتبعت هو الهدى^(٢)

من أراد قيام الليل والقرب من الله ومن أراد أن ينال هذه المنزلة الرفيعة
 فعليه أن يأخذ نفسه بهذه الأسباب التي تعين المسلم على قيام الليل ومنها:

- ١ - لا تكثر الأكل فيكثر الشرب، فيغلب النوم ويثقل عليك القيام.
- ٢ - لا تتعب نفسك بالنهار في الأعمال التي تعياها الجوارح، وتضعف
 بها الأعصاب، فإن ذلك أيضاً مجلب للنوم.
- ٣ - لا تترك القيلولة بالنهار، فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل.
- ٤ - سلامة القلب من الحقد على المسلمين، ومن البدع والخرافات ومن

(١) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٣٣١.

(٢) السير ٣١٤/٢٣.

هموم الدنيا، فإن هذه الأمراض تصرف عن طاعة الله.

٥ - لا تتركب الأوزار بالنهار، فإن ذلك مما يقسي القلب، ويحول بينك وبين أسباب الرحمة.

٦ - خوف يلزم القلب مع قصر الأمل ، والتفكر في أهوال يوم القيامة ودركات جهنم .

وأخيراً يا أخي الكريم: تذكّر أن النبي ﷺ قام من الليل حتى تفتطرت قدماه.

وقام السلف الصالح والأخيار الصالحون من هذه الأمة . . أفلا تحب أن تكون بجوارهم في جنات عدن . . مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

أخي المسلم: وأنت خيرٌ من يخلفُ سلف الأمة الصالح بطول القيام وبصدق المناجاة فأنت صاحب القلب الحي العامر بالإيمان الصادق .. لا تنسانا من صالح دعائك .

جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١٥)
 ءَاخِذِينَ مَا ءَأْتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْآلِ مَا يَهْجُمُونَ ﴿١٧﴾
 وَإِلَّا لَأَشْعَارُهُمْ حَسَفَرُونَ ﴿١٨﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].

هديه ﷺ في قيام الليل^(١)

لم يكن ﷺ يدع قيام الليل حضراً ولا سफراً، وكان قيامه، ﷺ بالليل إحدى عشرة ركعة، أو ثلاث عشرة.

وكان ﷺ يصلي أول الليل أربع ركعات أو ست ركعات ثم يأوي إلى فراشه، وكان إذا استيقظ بدأ بالسواك، ثم يذكر الله ويقول عند استيقاظه: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»، ثم يتطهر، ثم يصلي ركعتين خفيفتين، وكان ﷺ يقوم تارة إذا انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، وربما كان يقوم إذا سمع الصارخ وهو الديك وهو إنما يصيح في النصف الثاني، وكان يقطع ورده تارة ويصله تارة وهو الأكثر.

قيامه بالليل ووتره أنواع فمنها:

النوع الأول: أنه ﷺ يقطع ورده تارة ويصله تارة كما قال ابن عباس في حديث بيته عنده، أنه ﷺ استيقظ فتسوك، وتوضأ، وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة، ثم قام فصلً ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف، فنام حتى نفخ، ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات، كل ذلك يستاك ويتوضأ، ويقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث، فأذن المؤذن، فخرج إلى الصلاة وهو يقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً، ومن أمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً،

(١) زاد المعاد ١/ ٣٢٢ باختصار.

ومن تحت نوراً، اللهم أعطني نوراً»، [رواه مسلم]. ولم يذكر ابن عباس افتتاحه بركتين خفيفتين كما ذكرته عائشة، فإما أنه كان يفعل هذا تارة، وهذا تارة، وإما أن تكون عائشة حفظت ما لم يحفظه ابن عباس.

النوع الثاني: الذي ذكرته عائشة، أنه كان يفتح صلاته بركتين خفيفتين، ثم يتم ورده إحدى عشرة ركعة يُسلم من كل ركعتين ويوتر بركة. **النوع الثالث:** ثلاث عشرة ركعة كذلك.

النوع الرابع: يصلي ثمان ركعات، يُسلم من كل ركعتين، ثم يوتر بخمس سرداً متوالياً، لا يجلس في شيء إلا في آخرهن.

النوع الخامس: تسع ركعات، يسرد منهن ثمانياً لا يجلس في شيء منهن إلا في الثامنة، يجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يُسلم، ثم يُصلي التاسعة، ثم يقعد، ويتشهد، ويُسلم، ثم يصلي ركعتين جالساً بعدما يسلم.

النوع السادس: يصلي سبعاً كالتسع المذكورة، ثم يُصلي بعدها ركعتين جالساً.

النوع السابع: أنه كان يُصلي مثني مثني، ثم يُوتر بثلاث لا يفصل بينهن.

النوع الثامن: ما رواه النسائي، عند حذيفة، أنه صلى عند النبي ﷺ في رمضان، فركع، فقال في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» مثل ما كان قائماً، ثم جلس يقول: «رب اغفر لي، رب اغفر لي»، مثل ما كان قائماً، ثم سجد، فقال: «سبحان ربي الأعلى» مثل ما كان قائماً، فلما صلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعوه إلى الصلاة.

وأوتر أول الليل، ووسطه، وآخره، وقام ليلة تامة بآية يتلوها ويردها حتى الصباح وهي: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨].

المصادر

- ١ - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي - دار الكتب العلمية ط ١، ١٤٠٦هـ.
- ٢ - بستان العارفين للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، حققه محمد الجار.
- ٣ - تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.
- ٤ - تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي، دار إحياء التراث العربي.
- ٥ - تفسير ابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر ١٤٠١هـ.
- ٦ - جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط ٥، ١٤٠٠هـ.
- ٧ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية ط ١، ١٤٠٧هـ.
- ٨ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
- ٩ - رهبان الليل سيد بن الحسين العفاني، مكتبة ابن تيمية ط ١، ١٤١٠هـ.
- ١٠ - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ.
- ١١ - الزهد للإمام أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد، دار الكتاب العربي ط ١، ١٤٠٦هـ.
- ١٢ - الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن

محمد بن يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي ط ١، ١٤٠٦هـ.

١٣ - سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

١٤ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٥ - صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق، محمود فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.

١٦ - صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط ٢/ ١٤٠٧هـ.

١٧ - طبقات الشافعية لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق محمود محمد طنّاحي ورفيقه، دار إحياء الكتب العربية.

١٨ - عقد الأول والمراجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

١٩ - الفوائد لابن القيم الجوزية - دار النفائس.

٢٠ - كتاب الزهد الكبير للإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي،

حققه الشيخ عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية ط ١، ١٤٠٨هـ.

٢١ - مختصر قيام الليل، شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن نصر

المروزي، اختصرهما العلامة أحمد بن علي المقرئ.

٢٢ - المدهش لأبي الفرج جمال الدين الجوزي، ضبطه وصححه د.

مروان قباني، دار الكتب العلمية ط ٢، ١٤٠٥هـ.

٢٣ - مناقب الإمام أحمد للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

١٣٩٩هـ، مكتبة الخاني.



اصبر واخشب

الإهداء

* إلى من تكالبت عليه الأيام . . وقلب الله له الدهر ظهر المجن . .
 * إلى من ادلهمت السماء فوقه تنذر بالخطوب . . وأُغلقت في وجهه
 المسالك والدروب . . فإذا به صابراً محتسباً .
 * ما اهتز له قلب .
 * وما رف له جفن .

* * *

* إلى من نامت قريرة العين برضا الله وقدره . . متوسدةً عاصفة
 هوجاء . . تتخطفها الأسنة وتنالها الرماح . .
 * ما عرف الحزن إلى قلبها مدخلا
 * وما استقرت الدمعة في عينها زمناً

* * *

* إلى من فقد الأبناء والأحباب . . والآباء والأصحاب
 * إلى كل مؤمن مهموم . . وكل مبتلى مغموم

* * *

* عظم الله أجرك . . ورفع درجتك . . وجبر كسرك .

* * *

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وحصناً حصيناً لا يُثلم.. والصلاة والسلام على خير الصابرين والشاكرين والحامدين محمد بن عبدالله.. وبعد:

في هذه الدنيا سهام المصائب مُشرعة ورماح البلاء مُعدة مرسله.. فإننا في دار ابتلاء وامتحان ونكد وأحزان، وقد بلغ الضعف والوهن ببعضنا إلى التجزع والتسخط من أقدار الله..

فأضحى الصابرون الشاكرون الحامدون هم القلة القليلة.

وسُنن الله في خلقه ثابتة لم تتغير وقضاؤه على عباده سائر لم يتبدل.. نلاحظ أن النوازل تنزل والقوارع تطرق والناس في هذا الزمن غلبت عليهم أمورٌ أربعة:

الأول: عدم الرضا والصبر والاحتساب.. بل البعض يسلو كما تسلو البهائم.

الثاني: الجزع والتسخط.. وكأن الدنيا ما خلقت إلا للصفو والنعيم..

الثالث: عدم احتساب الأجر سوى في المصائب الكبيرة كالموت وغيره وتناسوا أن الأمر سواء على كل ما يسوء المرء حتى الشوكة تُصيب قدمه..

الرابع: ظن الكثير أن الامتحان والابلاء هو زمن المصيبة فحسب، وما عدوا النعمة والغنى بليّة وطامة إن لم تُعن على الطاعة والعبادة.

وهذا هو الجزء الرابع من سلسلة «أين نحن من هؤلاء؟» نرى فيه كيف

كان رضا وصبر وشكر من كانوا قبلنا وقد أُبتلي بعضهم بأشد مما يُصينا .
وهذا الكتاب فيه تعزية للمُصاب وتسلية للمُبتلى وإعانة على الصبر
والاحتساب .

جعلنا الله من الصابرين الشاكرين ممن تُنادي يوم القيامة : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٤] .

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

الحالة الأولى

إن العبد في تنقلاته في هذه الحياة وأطواره فيها لا يخلو من حالتين: إما أن يحصل له ما يُحِبُّ ويندفع عنه ما يكره، فوظيفته في هذه الحالة الشكر والاعتراف بأن ذلك من نعم الله عليه، فيعترف بها باطناً ويتحدث بها ظاهراً، ويستعين بها على طاعة الله وهذا هو الشاكر حقاً .

الحالة الثانية . . أن يحصل للعبد المكروه أو يفقد المحبوب، فيحدث له، همًا وحزنًا وقلقًا فوظيفته الصبر لله، فلا يتسخط ولا يضجر ولا يشكو للمخلوق ما نزل به، بل تكون شكواه لخالقه سبحانه وتعالى، ومن كان في الضراء صابراً وفي السراء شاكرًا فحياته كلها خير وبذلك يحصل على الثواب الجزيل ويكتسب الذكر الجميل^(١).

والبلاء الذي يصيب العبد لا يخرج عن أربعة أقسام: إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يُحِبُّ، والناس مشتركون في حصولها، فغير المؤمن التقي يلقي منها أعظم مما يلقي المؤمن كما هو مشاهد^(٢).

ورأيت جميع الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجاً يزيد على الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذلك وضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا

(١) الصبر وأثره ص ٥ .

(٢) الصبر وأثره ص ١٢ .

السقم، والكبير إلا الهرم والموجود سوى العدم^(١).
والإبد أن يعلم المصاب أن الذي ابتلاه بمصيبته أحكم الحاكمين وأرحم
 الراحين، وأنه سبحانه لم يرسل البلاء ليهلكه به ولا ليعذبه، ولا ليجتاحه،
 وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه
 وابتهاله وليراه طريقاً على بابه لا تذاً بجناحه، مكسور القلب بين يديه رافعاً
 قصص الشكوى إليه^(٢) قال - تعالى - : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
 وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].
 وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].
 وقال - تعالى - : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾
 [محمد: ٣١].

وقد ذكر الله الصبر في القرآن في نيف وتسعين موضعاً وأضاف أكثر
 الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له، وجمع للصابرين بين أمور
 لم يجمعها لغيرهم، فقال - تعالى - : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ
 وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧]، فالهدى والرحمة والصلوات
 مجموعة للصابرين^(٣).

وقرنه بالصلاة في قوله - تعالى - : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
 إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال - تعالى - : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]^(٤).

(١) الثبات عند الملمات ص ١٩.

(٢) تسلية أهل المصائب ص ٢٢٥.

(٣) عدة الصابرين، ٩٨ مكاشفة القلوب ٢٣٧.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٩/١٠.

وقال - عليه الصلاة والسلام - : «من يرد الله به خيراً يُصَب منه»^(١) .
والحمد لله على فضله وجزيل عطائه فقد بشرنا الرسول ﷺ بقوله : «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصبٍ ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٢) .
والأنبياء - عليهم السلام - يتوالى عليهم البلاء مثل كافة الناس وإن كانوا أشد بلاءً فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قلت يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال : «الأنبياء» قلت : ثم من؟ قال : «الصالحون إن كان أحدهم ليُبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحتويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدهم بالرخاء»^(٣) .
والصبر - أخي الكريم - مقامٌ من مقامات الدين ومَنْزِل من منازل السالكين^(٤) .
وقد قال أبو الدرداء : «ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضاء بالقدر»^(٥) .
وفي حديث عن النبي ﷺ : «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»^(٦) .

(١) رواه البخاري .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه ابن ماجه .

(٤) الإحياء ٦٥ / ٤ .

(٥) الإحياء ٥٦ / ٤ .

(٦) ضعيف الجامع الصغير ص ٣٥٣٨ .

والحسن - رحمه الله - يقول: «الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله - عز وجل - إلا لعبد كريم عنده»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٢).

والخير الحاصل للشاكرين هو الزيادة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُمْ لِيْنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦].

والخير الحاصل للصابرين هو الأجر والثواب والمغفرة والرحمة^(٣).

قال الفضيل: «إن الله - عز وجل - ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير»^(٤).

وقال رحمه الله: «لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يُعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وحتى لا يجب أن يُحمد على عبادة الله»^(٥).

وسأل رجل الإمام الشافعي فقال: يا أبا عبد الله، أيهما أفضل للرجل أن يُمكن أو يُبتلى؟ فقال الشافعي: لا يُمكن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم ألبتة^(٦).

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٥.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الصبر وأثره ص ٥.

(٤) الإحياء ١٣٩/٤.

(٥) السير ٤٣٤/٨.

(٦) الفوائد ص ٢٦٩.

وجعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) [السجدة: ٢٤].

والمصائب - أخي الكريم - تتفاوت ولكن أعظمها المصيبة في الدين فهي أعظم مصائب الدنيا والآخرة، وهي نهاية الخسران الذي لا ربح معه، والحرمان الذي لا طمع معه (٢).

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه

فما فاتته منها فليس بضائر

وأصل كلمة الصبر هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الحدود وشق الثياب ونحوهما (٣).

وحقيقة الصبر خلقٌ فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به من فعل ما لا يُحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها وحين سُئل الجنيد عن الصبر قال تجرع المرارة من غير تعبس .
وقال ذو النون: هو التبعاد عن المخالفات، والسكون عن تجرع عُصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .
وقيل: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب (٤).

أخي الكريم

لا بد من الإبتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه ألبتة،

(١) مجموع الفتاوى ٣٩/١٠.

(٢) تسلية أهل المصائب ص ٢٤.

(٣) عدة الصابرين ص ٢٧.

(٤) عدة الصابرين ص ٢٩.

ولهذا ذكر الله - تعالى - في غير موضع أنه لابد أن يبتلى الناس، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، ولابد أن يبتلى الإنسان بما يسره وما يسوءه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً. قال - تعالى -: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ﴾ [الكهف: ٧].

وقال - تعالى -: ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) [الأعراف: ١٦٨].

ولو تبصر الإنسان فيمن حوله لوجدهم بين أمرين وفي أحد حالين: إما سراء أو ضراء، ولكن النفوس البشرية تغفل عن فتنة السراء ولا ترى إلا فتنة الضراء وهي الظاهرة في شكاوي البشر. فما من إنسان إلا له ألم أو فجيعة أو وهم أو غم أو نكد، ولا يكاد يمر يوم في هذه الدنيا دون تنكيد، وتنغيص قال - تعالى -: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤].

قال ابن كثير - رحمه الله في تفسير هذه الآية: يكابد أمراً من أمر الدنيا وأمرأ من أمر الآخرة وفي رواية يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة (٢).
عن عبد الملك بن أبجر قال: ما من الناس إلا مبتلى بعافية، لينظر كيف شكره أو مبتلى ببليّة لينظر صبره (٣).

أما نعمة الضراء... فاحتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء (٤).

(١) الفوائد ص ٢٧١.

(٢) تفسير ابن كثير ٥١٣/٤.

(٣) حلية الأولياء ٨٥/٥.

(٤) الفتاوى ٣٠٥/١٤.

والفقر يصلح عليه خلق كثير، **والغنص** لا يصلح عليه إلا أقل منهم، ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة وفي الضراء الألم اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء^(١).

وقد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمّت

ويبتلي الله بعض القوم بالنعيم^(٢)

أخي الكريم: إذا فجعتك المصائب ونزلت بك الهموم وادلهمت بك الطرق وأظلمت عليك الدروب من حوادث الدنيا المقدره.. فإن عليك بمنزلة الرضا لما قدر الله وقضى فإنها المنزلة الأولى..

فأرض بقضاء الله وقدره ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾

[التوبة: ٥١].

والدرجة الثانية: الصبر على البلاء وهذه لمن لم يستطع الرضا بالقضاء،

فالرضا فضل مندوب إليه مستحب، والصبر واجب على المؤمن حتم.

والفرق بين الرضا والصبر أن الصبر كف النفس وحبسها عن السخط مع

وجود الألم وتمني زوال ذلك، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع،

والرضا انشراح الصدر وسعته بالقضاء وترك تمني زوال الألم وإن وجد

الإحساس بالألم، لكن الرضا يخففه ما يياشر القلب من روح اليقين

والمعرفة، وإذا قوي الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية^(٣).

- وينقسم الصبر إلى: واجب:، ومندوب، ومحذور، ومكروه، ومباح.

(١) الفتاوى ٣٠٥/١٤.

(٢) موارد الظمآن ٧٥/٢.

(٣) جامع العلوم والحكم باختصار ص ١٩٤.

فالصبر الواجب ثلاثة أنواع:

أحدها: الصبر عن المحرمات.

والثاني: الصبر على أداء الواجبات.

والثالث: الصبر على المصائب التي لا صنع للعبء فيها، كالأمراض والفقر وغيرها.

أما الصبر المندوب: فهو الصبر عن المكروهات والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله^(١).

والصبر المحمود: أنواع: منه صبر على طاعة الله - عز وجل - ومنه صبر عن معاصي الله - عز وجل - ومنه صبر على أقدار الله - عز وجل -^(٢).

قال الفضيل بن عياض في قوله: ﴿سَلِّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

قال: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهوا عنه^(٣).

ويذكر عن علي - رضي الله عنه - أنه قال: الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة.

ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاء ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة^(٤).

(١) عدة الصابرين ص ٥٠.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٦.

(٣) تسلية أهل المصائب ص ١٩٣.

(٤) عدة الصابرين ص ٩٧.

وقال ميمون بن مهران: الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية^(١).

واحتمال الأذى فهو الصبر ولكنه أشق، وهو بضاعة الصديقين، وشعار الصالحين وحقيقته أن يؤذى المسلم في ذات الله - تعالى - فيصبر ويتحمل، فلا يرد السيئة بغير الحسنة، ولا ينتقم لذاته^(٢).

والله - جل وعلا - يجازيه على صبره: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

أخي المسلم:

إن الشخص البالغ العاقل مادام في دار التكليف والأقلام جارية عليه، لا يستغني عن الصبر في حالة من الأحوال، فإنه بين أمرٍ يجب عليه امتثاله، والصبر لا بد منه قولاً وفعلاً، وبين نهى يجب عليه الصبر فيهما، وبين نعمة عليه شكر المنعم عليها والصبر عليه، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه، فالصبر لازم له إلى الممات.

ولما كان الصبر مأموراً به، جعل الله - سبحانه - له أسباباً تعين عليه وتوصل إليه **فمما يسلي المصاب**: أن يوطن نفسه على أن كل مصيبة تأتيه هي من عند الله وأنها بقضائه وقدره، وأنه - سبحانه - لم يقدرها عليه ليهلكه بها، ولا ليعذبه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره ورضاه، وشكواه إليه وابتهااله ودعائه، فإن وفق لذلك كان أمر الله قدراً مقدوراً، وإن حرم ذلك كان ذلك خسراناً مبيناً.

(١) تسلية أهل المصائب ص ١٩٣.

(٢) الصبر وأثره ص ١٩.

وعلاج المصائب بأمر منها:

- الأول: أن يعلم أن الدنيا دار ابتلاء، والكرب لا يرجى منه راحة.
- الثاني: أن يعلم أن المصيبة ثابتة.
- الثالث: أن يقدر وجود ما هو أكثر من تلك المصيبة.
- الرابع: النظر في حال من ابتلي بمثل هذا البلاء، فإن التأسى راحة عظيمة.
- الخامس: النظر في حال من ابتلي أكثر من هذا البلاء، فيهنون عليه هذا.
- السادس: رجاء الخلف إن كان من مضى يصح عنه الخلف كالولد والزوجة.
- السابع: طلب الأجر بالصبر في فضائله وثواب الصابرين وسرورهم في صبرهم، فإن ترقى إلى مقام الرضا فهو الغاية.
- الثامن: أن يعلم العبد كيف جرى القضاء فهو خير له.
- التاسع: أن يعلم أن تشديد البلاء يخص الأخيار.
- العاشر: أن يعلم أنه مملوك، وليس للمملوك في نفسه شيء.
- الحادي عشر: أن هذا الواقع، وقع برضى المالك، فيجب على العبد أن يرضى بما رضى به السيد.
- الثاني عشر: معاتبة النفس عند الجزع، أن هذا الأمر لا بد منه فما وجه الجزع مما لا بد منه.
- الثالث عشر: إنما هي ساعة فكأن لم تكن^(١).

(١) تسلية أهل المصائب ص ٢٩ باختصار.

أخي الحبيب:

متى ما أصابك مكروه في بدنك أو مالك أو حبيبك فاعلم أن الذي قدره حكيم عليم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا يقدر شيئاً سدى، وأنه تعالى رحيم قد تنوعت رحمته على عبده، يرحمه فيعطيه، ثم يرحمه فيوفقه للشكر، ويرحمه فيبتليه، ثم يرحمه فيوفقه للصبر، فرحمة الله متقدمة على التدابير السارة والضارة ومتأخرة عنها، ويرحمه أيضاً بأن يجعل ذلك البلاء مكفراً لذنوبه وآثامه ومنمياً لحسناته ورافعاً لدرجاته^(١).

وهنا توجيه نبوي كريم بكتمان المصيبة وعدم التحدث بها قال ﷺ: «من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة».

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نعم الله - عز وجل - الخفية.. وهذا سر من أسرار الرضا وعدم التضجر والانزعاج.

قال الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد^(٢).

ولما نزل في إحدى عيني عطاء الماء، مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله^(٣).

رحمه الله لو رأى زماننا لعجب من كثرة الحديث في المصائب.. بل إن البعض حتى قبل أن تسأله عن صحته وحاله.. يبادر بالشكوى.. ويكثر التسخط.. يتحدث بما فيه من الأمراض.. وبما في أبنائه وأهله.. حتى ليخيل إليك أن هذا الإنسان ما مر به خيرٌ ونعمةٌ ورخاءٌ قط.. والله لو نظر بعين الرضا لرأى الخير في حياته يحف به من جميع الجوانب.. نعم لا تحصي ولا تعد.

(١) الصبر وأثره ص ٨.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٩.

(٣) تسلية أهل المصائب ص ٢٢٦.

قال عليه السلام: «من كنوز البر كتمان المصائب، وما صبر من بث» وحين سأل يونس بن زيد ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه^(١).

وقال بكر بن عبدالله المزني: كان يقال من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة^(٢).

وقال خالد بن أبي عثمان: مات ابن لي فرآني سعيد بن جبير مقتنعاً، فقال لي: إياك والتقنع فإنه من الاستكانة^(٣).

وليس الجزع - أخي الحبيب - أن تدمع العينين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء^(٤).

ومن آداب الصبر استعماله في أول الصدمة وحين وقوع الفاجعة لقوله عليه السلام: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(٥).

ومن الآداب سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز.

قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفائت ولكن يسر الشامت.

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب^(٦).

وأما البكاء والحزن من غير صوت ولا كلام محرم، فهو لا ينافي الصبر والرضا.

(١) تسلية أهل المصائب ص ١٩٤.

(٢) عدة الصابرين ص ٣٢٦.

(٣) تسلية أهل المصائب ص ٢٢٤.

(٤) عدة الصابرين ص ٣٢٦.

(٥) متفق عليه.

(٦) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٩.

قال تعالى حكايةً عن يعقوب - عليه السلام: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤) [يوسف: ٨٤].

قال قتادة: كظيم على الحزن، فلم يقل إلا خيراً، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وقوله تعالى عنه في أول السورة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

وقد جاء في أثر مرفوع إلى النبي ﷺ: «من بث لم يصبر» لكن يعقوب - عليه السلام - ابيضت عيناه من البكاء ولم يناف حُزنه وصبره، فإنه - عليه السلام - ما شكاه بثه وحزنه إلى مخلوق، وإنما شكاه إلى الله (١).

وحكي عن شريح أنه قال: إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات وأشكره، إذ لم تكن أعظم مما هي، وإذ رزقني الصبر عليها، وإذ وفقني الاسترجاع لما أرجوه فيه من الثواب، وإذ لم يجعلها في ديني (٢).

ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة، ولطم الوجه، والضرب بإحدى اليدين على الأخرى، وحلق الشعر، والدعاء بالويل (٣).

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمر الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها» [الحديث].

وقد جعل الله كلمات الاسترجاع وهي قول المصاب «إنا لله وإنا إليه راجعون» ملجأً وملأذاً لذوي المصائب، وعصمة للممتحنين من الشيطان

(١) تسلية أهل المصائب ص ٢٢٣.

(٢) تسلية أهل المصائب ص ٢٩٠.

(٣) عدة الصابرين ص ٣٢٥.

لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة، فيهيج ما سكن، ويظهر ما كمن^(١).

وليعلم المصاب أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها، وهو في الحقيقة يزيد في مصيئته، بل يعلم المصاب أن الجزع يشمتُ عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أخزى شيطانه، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه، فهذا هو الثبات في الأمر الديني قال النبي ﷺ: «اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر» فهذا هو الكمال الأعظم، لا لطم الخدود وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والتسخط على المقدور.

قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلوا البيهائم^(٢).

قال عبدالله بن المبارك - رحمه الله - أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وابنه في الموت، فقال: ابنك يقضي وأنت تصلي؟! فقال: إن الرجل إذا كان له عمل يعمل فتركه يوماً واحداً كان ذلك خللاً في عمله^(٣).

قال ابن عبدالعزيز لأم مات ابنها: إتقي الله واحتسبيه عند الله واصبري، فقالت: مصيبتني به أعظم من أن أفسدها بالجزع^(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة

(١) تسلية أهل المصائب ص ١٦.

(٢) تسلية أهل المصائب ص ٣٩.

(٣) تسلية أهل المصائب ص ٢٢٤.

(٤) تسلية أهل المصائب ص ٢٢٤.

الدين، وإنما اختلفوا في وجوب الرضا^(١).

ومما يقدر في الصبر والرضا وينافيهما: إظهار المصيبة، والتحدث بها وإشاعتها، سواء كان كلامًا بها بين الأصحاب أو غيرهم، اللهم إلا أن يقول لأصحابه أو لأقاربه: مات فلان، يعني والده أو ولده، ونحو ذلك، وما يريد به إظهار المصيبة وإنما يريد إعلامهم لأجل الصلاة عليه وتشيعه ونحو ذلك مما هو من فروض الكفايات، ويحصل لهم بذلك القراريط من الأجر^(٢).

قال سقيق البلخي: من شكَا مصيبة به إلى غير الله، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا^(٣).

وما يصيب الإنسان محن وابتلاء من الله - جل وعلا - فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ فْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(٤) [النكبت: ٣]. فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث فمن صبر عليها، كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها^(٥).

قال ثابت: أصيب عبدالله بن مطرق بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارة وأطيبه^(٥).

(١) الفتاوى ١١/ ٢٦٠.

(٢) تسلية أهل المصائب ص ٢٢٦.

(٣) منهاج القاصدين ص ٣٠١.

(٤) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٢.

(٥) تسلية أهل المصائب ص ٢٢٤.

وكان علي بن أبي طالب يقول: من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك^(١).

وعندما سأل رجل الإمام أحمد: كيف تجددك يا أبا عبد الله؟ قال: بخير في عافية، فقال له: حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا في عافية فحسبك، لا تخرجني إلى ما أكره^(٢).

وما يكرهه - رحمه الله - التحدث عن المرض وعدم كتمانته، وذلك لما يرجوه من كتمان المرض. فكيف يشتكي العبد ربه إلى مخلوق مثله، وأما إذا كان الإخبار على سبيل الاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرره، لم يقدر ذلك في الصبر.

* بعث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - برسالة إلى أبي موسى الأشعري جاء فيها: عليك بالصبر وأعلم أن الصبر صبران، أحدهما أفضل من الآخر، الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله - تعالى -^(٣).

وإذا تأملت - أخي - حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات، التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله، كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة، ومنة

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٩.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٩.

(٣) الإحياء ٤/٦٥.

عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان^(١).

قال وهب بن منبه: **رؤوس النعم ثلاثة:**

فأولها: نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها.

والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها.

والثالثة: نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا به^(٢).

ولو رأيت في نفسك وفيمن حولك حمدت الله الذي أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ولا نخرج في حالنا عمّا قال عبدالمملك بن إسحاق: مامن الناس إلا مُبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لينظر كيف صبره^(٣).

والبلاء والمصائب في عمر الإنسان أيام معدودة.. لحظات ثم تنجلي كان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء قال: سحابة صيف ثم تنقشع^(٤).

فالحمد لله على نعمه وعلى ما قضى.. ذكر ابن أبي الدنيا: أن داود قال: يارب، أخبرني ما أدنى نعمك عليّ، فأوحى الله إليه: يا داود، تنفس، فتنفس، قال: هذا أدنى نعمي عليك^(٥).

وتمام النعمة وكمال العطاء ما قاله رسول الله ﷺ: «إن تمام النعمة فوز من النار ودخول في الجنة».

وقال ابن أبي الحواري: قلت لأبي معاوية: ما أعظم النعمة علينا في التوحيد، نسأل الله أن لا يسلبنا إياه، قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة

(١) مفتاح دار السعادة ص ٢٩٩.

(٢) عدة الصابرين ص ١٨١.

(٣) عدة الصابرين ص ١٧٢.

(٤) عدة الصابرين ص ١٢٥.

(٥) عدة الصابرين ص ١٧٦.

على من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قبله^(١).

وذكر عن هلال بن بساق قال: كنا قعوداً عند عمار بن ياسر، فذكروا الأوجاع، فقال أعرابي: ما أشكت قط، فقال عمار: ما أنت منا أو لست منا، إن المسلم يُبتلى ببلاء، فتحط عنه ذنوبه، كما يحط الورق من الشجر، وإن الكافر أو قال الفاجر يُبتلى ببلية، فمثله مثل البعير إن أطلق لم يدر لم أطلق، وإن عقل لم يدر لم عقل^(٢).

والحمد لله على هذا الفضل العظيم والإحسان الجزيل قالت عائشة - رضي الله عنها -: «إن الحمى تحط الخطايا كما تحط الشجرة ورقها».

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة».

قال ابن أبي الدنيا: كانوا يرجون في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب^(٣).

أخي الحبيب:

أرأيت ما نكرهه ونتأذى من وجوده... يرحمنا الله به ويحط به ذنباً سلفت لا إله إلا هو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

قال معروف الكرخي: إن الله ليبتلي عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع، فيشكو إلى أصحابه، فيقول الله - تبارك وتعالى - وعزتي وجلالي ما ابتليتك

(١) عدة الصابرين ص ١٧٥.

(٢) عدة الصابرين ص ١١٤.

(٣) عدة الصابرين ص ١١٦.

بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلك من الذنوب فلا تشتكيني^(١).
 وحين مرض كعب، عاده رهط من أهل دمشق، فقالوا: كيف تجددك يا
 أبا اسحاق؟ قال: بخير، جسدٌ أخذ بذنبه وإن شاء ربه عذبه وإن شاء
 رحمه، وإن بعثه بعثه خلقاً جديداً، لا ذنب له^(٢).
 وقال وهب بن منبه: لا يكون الرجل فقيهاً كامل الفقه حتى يعد البلاء
 نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء،
 وصاحب الرخاء ينتظر البلاء^(٣).
 وفسر الفضيل قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] بقوله:
 صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهوا عنه^(٤).
 أما بكر بن عبدالله فقد سأل أخاً له أن يوصيه فقال: ما أدري ما أقول
 غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والاستغفار^(٥).
فإن ابن آدم بين نعمة وذنوب، ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا
 يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار وقد يظن القاريء أن المصيبة هي موت
 قريب أو فقد حبيب، وربما كانت مرضاً عارضاً أو حادثاً مروعاً. . . ولكن
 نعمة الله وسعت كل شيء. . . حتى الشوكة يشاكها المؤمن له فيها سهم من
 الخير.
 وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المؤمن من وصبٍ ولا

(١) عدة الصابرين ص ١٢٢.

(٢) عدة الصابرين ص ١١٨.

(٣) عدة الصابرين ص ١٢٢.

(٤) عدة الصابرين ص ٩٧.

(٥) عدة الصابرين ص ١٧٧.

نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها».

قتلمس أخى موضع قدمك ومكان أملك ومتى ما أصبت بأقل شيء فقل: «إنا لله وإنا إليه راجعون».. واحد الله الذي رزقنا هذا الفضل وهذا الإحسان.

كان شميطة بن عجلان يقول: إن العافية سترت البر والفاجر، فإذا جاءت البلى استبان عندها الرجلان، فجاءت البلى إلى المؤمن، فأذهبت ماله وخادمه ودابته، حتى جاع بعد الشبع، ومشى بعد الركوب، وخدم نفسه بعد أن كان مخدوماً، فصبر ورضى بقضاء الله - عز وجل - وقال: هذا نظر من الله - عز وجل - هذا أهون لحسابي غداً.

وجاءت البلى إلى الفاجر فأذهبت ماله وخادمه ودابته، فجزع وهلع وقال: والله مالي بهذا طاقة، والله لقد عودت نفسي عادة، مالي عنها صبر في الحلو والحامض والبارد ولين العيش. فإن هو أصابه من الحلال وإلا طلبه في الحرام والظلم ليعود إلى ذلك العيش^(١).

وعاد رجل من المهاجرين مريضاً، فقال: **إن للمريض أربعاً**: يرفع عنه القلم، ويكتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته، وتبع المرض كل خطيئة من مفصل من مفاصله فيستخرجها، فإن عاش عاش مغفوراً له، وإن مات مات مغفوراً له، فقال المريض: اللهم لا أزال مضطجعاً^(٢).

وكانت امرأة من العابدات بالبصرة تصاب بالمصائب فلا تجزع، فذكروا

(١) صفة الصفوة ٣/٣٤٦.

(٢) عدة الصابرين ص ١٢٣.

لها ذلك، فقالت: ما أصابُ بمصيبة فأذكر معها النار إلا صارت في عيني أصغر من الذباب^(١).

وقال أحمد بن حاتم: بلغني أن عروة بن الزبير قطعت رجله من الأكلة فقال: إن مما يطيب نفسي عنك، أي لم أنقلك إلى معصية الله قط^(٢).

وحينما دخل رجلٌ على داود الطائي في فراشه فرآه يرفف فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقال: مه، لا تعلم بهذا أحداً، وقد أقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد^(٣).

أخي المسلم:

الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه ولو عرف الناس لما شكوا إليهم^(٤).

قال بعض السلف: رأيت جمهور الناس ينزعجون لتزول البلاء انزعاجاً يزيد على الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم. على ذا مضى الناس اجتماعٌ وفرقةٌ

وميتٌ ومولودٌ وبشرٌ وأحزانٌ

ثم قال: ولعمري أن أصل الانزعاج لا ينكر، إذا الطبع مجبول على الأمن من حلول المنايا، وإنما الإفراط فيه والتكليف، كمن يخرق ثيابه

(١) تسلية أهل المصائب ص ٤٠.

(٢) الورع لابن أبي الدنيا ص ٩٦.

(٣) عدة الصابرين ص ٣٢٧.

(٤) الفوائد ص ١١٤.

ويلطم وجهه ويعترض على القدر، فإن هذا لا يرد فائتاً، لكنه يدل على خور الجازع ويوجب العقابة^(١).

وكتب ابن نجيج يعزي بعض الخلفاء: إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاء له، واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك، واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه^(٢).

وقال حسان بن أبي جبلة في قوله تعالى: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا﴾ [يوسف: ١٨] قال: لا شكوى فيه^(٣).

والصبر مكانته عظيمة ومنزلته رفيعة كما قال علي بن أبي طالب: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسم، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له^(٤).
وقال عمر بن الخطاب: وجدنا خير عيشنا بالصبر^(٥).

وذكر سلمان الفارسي أن رجلاً بسط له من الدنيا، فانتزع ما في يديه فجعل يحمد الله - عز وجل - ويشني عليه حتى لم يكن له فراش إلا بوري، فجعل يحمل الله ويشني عليه وبسط للآخر في الدنيا فقال لصاحب البوري: أرأيتك أنت على ما تحمد الله - عز وجل -؟ قال: أحمد الله على ما لو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه، قال: وماذا؟ قال: أرأيت بصرك؟

(١) تسلية أهل المصائب ص ٣٣.

(٢) الإحياء ٧٧/٤.

(٣) عدة الصابرين ص ١٢٧.

(٤) عدة الصابرين ص ١٢٤.

(٥) عدة الصابرين ص ١٢٤.

أرأيت لسانك؟ أرأيت يدك؟ أرأيت رجلك؟^(١).

ومر وهب بمبتلى أعمى مجزوم، مقعد عريان، به وضع، وهو يقول الحمد لله على نعمه، فقال رجل كان مع وهب: أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ فقال له المبتلى: ارم ببصرك إلى أهل المدينة، فانظر إلى كثرة أهلها، أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري^(٢).
أي أن الله - جل وعلا - خصه بالبلاء ليمحصه ويظهره.

قال أبو الدرداء: «من يتفقد يفقد، ومن لا يعد الصبر لفواجع الأمور يعجز»^(٣).

واعلم - أني - أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن.

وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقد في الأحيان بأنواع المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت

ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه - سبحانه وتعالى - يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٩٤.

(٢) عدة الصابرين ص ١٨١.

(٣) حلية الأولياء ١/ ١٨١.

وبغوا وعتوا وتجبروا في الأرض، وعاثوا فيها بالفساد، فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمرٌ ونهيٌ، وصحةٌ وفراغٌ، وكلمةٌ نافذةٌ من غير زاجرٍ شرعي يزجرها، تمرت وسعت في الأرض فساداً مع علمهم بما فعل بمن قبلهم، فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال؟! ولكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بعبده خيراً سقاه دواءً من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ منه الأدوية المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه، وصفّاه، أهله لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته، ورقاه أرفع ثواب الآخرة وهي رؤيته^(١).

وهذا أبو الدرداء يُعلمنا بثلاثة أمور تُضعف الإنسان وتجعله قريباً إلى خالقه فقال: ثلاثة أحبهن ويكرههن الناس: الفقر والمرض والموت، أحب الفقر تواضعاً للرب، والموت اشتياقاً للرب، والمرض تكفيراً لخطيئتي^(٢). وقال بعض السلف: ثلاثة يُمتحن بها عقول الرجال: كثرة المال، والمصيبة، والولاية^(٣).

وقال يزيد بن مسيرة: إن العبد ليمرض المرض، وماله عند الله من عمل خير، فيذكّره الله سبحانه بعض ما سلف من خطاياها، فيخرج من عينه مثل رأس الذباب من الدمع من خشية الله، فيبعثه الله إن بعثه مطهراً، أو يقبضه إن قبضه مطهراً^(٤).

ولا يصيب العبد من المصائب إلا بذنوبه قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ

(١) تسلية أهل المصائب ص ٣٤.

(٢) السير ١٤٩/٢٠.

(٣) تسلية أهل المصائب ص ١٧.

(٤) عدة الصابرين ص ١٥٠.

مَنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

هذا محمد بن سيرين يقول لما ركبته الدين وأغتم لذلك: إني لأعرف هذا الغم بذنب أحدثته منذ أربعين سنة^(١). وهو سبحانه بمنه وكرمه يعفو عن كثير وإلا لو كانت مصائبنا على قدر ذنوبنا لعظمت وكثرت.

أخي المسلم:

ينبغي للعبد أن لا ينكر في هذه الدنيا وقوع هذه المصائب على اختلاف أنواعها، وما استخبر العقل والنقل أخباره بأن الدنيا مارستان المصائب، وليس فيه لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر، فكل ما يظن في الدنيا أنه شراب فهو شراب وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، وجمعها فهو للذهاب، ومن خاض الماء الغمر لم يخل من بلل، ومن دخل بين الصفيين لم يخل من وجل، فالعجب كل العجب ممن يده في سلة الأفاعي كيف ينكر اللسع، وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضر النفع.

أخي:

طبعْتَ على كَدْرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا

صَفَوُا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ

قال أبو الفرج ابن الجوزي: ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تعتور فيها الأمراض والأكدار، ولم يضق العيش فيها على الأنبياء والأخيار، فآدم يعاني المحن إلى أن خرج من الدنيا، ونوح بكى ثلثمائة عام، وإبراهيم يكابد النار وذبح الولد، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره، وموسى يقاسي

فرعون ويلقى من قومه المحن، وعيسى ابن مريم لا مأوى له إلا البراري في العيش الضنك، ومحمد - صلى الله عليه وعليهم أجمعين - يصابر الفقر، وقُتل عمه حمزة وهو من أحب أقربائه إليه، ونفور قومه عنه، وغير هؤلاء من الأنبياء والأولياء مما يطول ذكره، ولو خلقت الدنيا للذة لم يكن حظ للمؤمن منها^(١).

قال شفيق البلخي: ذهب بصر عبد العزيز بن أبي راود عشرين سنة فلم يعلم به أهله ولا ولده فتأمله ابنه ذات يوم فقال له: يا أبت ذهبت عيناك؟ قال: نعم يا بني، الرضا عن الله أذهب عين أبيك منذ عشرين سنة^(٢).

وقال علي بن الحسن: كان رجل بالمصيصة ذاهب نصفه الأسفل لم يبق منه إلا روحه في بعض جسده، ضريراً على سرير مثقوب، فدخل عليه داخل فقال له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: ملك الدنيا منقطع إلى الله - عز وجل - مالي إليه من حاجة إلا أن يتوفاني على الإسلام^(٣).

أخي الحبيب: أين نحن من هؤلاء؟!

إن من جواهر البر كتمان المصيبة حتى يُظن أنك لم تصب قط. فالمؤمن الموفق - نسأل الله تعالى حسن التوفيق - من يتلقى المصيبة بالقبول، ويعلم أنها من عند الله لا من عند أحدٍ من خلقه، ويجتهد في كتمانها ما أمكن^(٤).

(١) تسلية أهل المصائب ص ٣١.

(٢) حلية الأولياء ١٩١/٨.

(٣) صفة الصفوة ٢٨٧/٤.

(٤) تسلية أهل المصائب ص ٢٤.

فمن كمال الصبر، كتمان المرض وسائر المصائب، ومن كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة^(١).

نقل عن الحسن بن عرفة قال: دخلت على أحمد بن حنبل بعد المحنة، فقلت له: يا أبا عبدالله قمت مقام الأنبياء، فقال لي: اسكت، فإني رأيت الناس يبيعون أديانهم، ورأيت العلماء ممن كان معي يقولون ويميلون فقلت: من أنا وما أنا؟

وما أقول لربي غداً إذا وقفت بين يديه - جل جلاله - ؟ فقال لي: بعث دينك كما باعه غيرك، ففكرت في أمري ونظرت إلى السيف والوسط فأخترتهما، وقلت: إن أنا مت صرت إلى ربي - عز وجل - فأقول: دعيت إلى أن أقول في صفة من صفاتك مخلوقة، فلم أقل فالأمر إليه، إن شاء عذب وإن شاء رحم فقلت: وهل وجدت لأسواطهم ألماً؟

قال لي: نعم، وتجلدت إلى أن تجاوزت العشرين، ثم لم أدر بعد ذلك، فلما حل العاقبان كأني لم أجد له ألماً، وصلبت الظهر قائماً، قال الحسن: فبكيت فقال لي: ما يبكيك؟ قلت: بكيت مما نزل بك، قال: أليس لم أكفر؟ ما أبالي لو تلفت^(٢).

وقال عنه - رحمه الله - شائب التائب: لقد ضرب أحمد بن حنبل ثمانين سوطاً لو ضربت على فيل لهدته^(٣).

وإمام أهل السنة أحمد بن حنبل صبر فظفر وهو في حال كما قال

(١) الإحياء ٧٨/٤.

(٢) طبقات الختابة ١٤٠/١.

(٣) السير ٢٩٥/١١.

عون بن عبدالله: الخير الذي لا شر معه: الشكر مع العافية والصبر مع المصيبة^(١).

ولقد فقد الأول وضَعَفَ الثاني.. فالكثير الآن ينسى شكر النعم قولاً وفعلاً، والكثير ينزعج لتزول البلاء انزعاج من لا يرى أنها من الله - جل وعلا - ويجب الرضا عن قضائه وقدره والصبر على ابتلائه وتمحيصه.

هذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت^(٢).

وقدم سعيد الجريري من الحج فجعل يقول: أنعم الله علينا في سفرنا بكذا وكذا، ثم قال: تعداد النعم من الشكر^(٣).

وعن عمارة بن سعيد بن وهب قال: دخلت مع سلمان - رضي الله عنه - على صديق له من كندة يعود فقال له سلمان: إن الله تعالى يبتلي عبده المؤمن بالبلاء ثم يعاقبه فيكون كفارة لما مضى. فيستعقب فيما بقي، وإن الله عز اسمه يبتلي عبده الفاجر بالبلاء ثم يعاقبه، فيكون كالبعير عقله ثم أطلقوه فلا يدري فيم عقلوه حين عقلوه، ولا فيما أطلقوه حين أطلقوه^(٤).

وحين ضربت أم إبراهيم العابدة دابة فكسرت رجلها، فأتاها قوم يعزونها فقالت: لولا مصائب الدنيا وردنا مفاليس^(٥).

(١) تسلية أهل المصائب ص ٢٤.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٧٦.

(٣) عدة الصابرين ص ١٨١.

(٤) حلية الأولياء ١/ ٢٠٦.

(٥) صفة الصفوة ٤/ ٣٨.

أخي:

لئن ساءني دهر سري دهر
وإن مسني عسر فقد مسني سر
لكل من الأيام عندي عادة

فإن ساءني صبر وإن سري شكر^(١)

قال ابن المبارك: من صبر فما أقل ما يصبر، ومن جزع فما زقل ما يتمتع^(٢).

وتأمل في قول أبي سعيد الخزاز: العافية سرت البر والفاجر، فإذا جاءت البلوى يتبين عندها الرجال^(٣).

وانظر إلى - رحمة الله - بالعباد وعظيم إحسانه.. قال عمر بن عبدالعزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة، فانتزعها منه، فعاذه مكانها الصبر، إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه^(٤).

ويجب على المؤمن أن يكون شاكراً في نعمائه صابراً في ضرائه منيباً إلى ربه في جميع أحواله وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

فمن تعرف إلى الله في النعمة والرخاء عرفه الله وحفظه حين الضراء والبأساء ولكن..

(١) ديوان الإمام علي ص ٨٧.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ١٩٥.

(٣) صفة الصفوة ٢/ ٤٣٨.

(٤) عدة الصابرين ص ٢٤.

نحن ندعو الإله في كل كرب

ثم ننساه عند كشف الكرب^(١)

قال سلمان الفارسي: إذا كان الرجل دعاء في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة صوتٌ معروف فشفعوا له، وإذا كان ليس بدعاء في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوتٌ ليس بمعروف، فلا يشفعون له.

وقال رجلٌ لأبي الدرداء أوصني، فقال: أذكر الله في السراء يذكرك الله - عز وجل - في الضراء^(٢).

فمن خاف الله وحفظه في صحته، حفظه في مرضه، ومن راقب الله في خطر حرسه الله في حركاته وسكناته^(٣).

وقال بعض السلف: يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة، أكثرت فيها قرع باب سيدك^(٤).

قال أبو الدرداء: ادع الله في يوم سرائك لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك، وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا الموت وما بعده أشد منه إن لم يكن مصير الصبر إلى خير^(٥).

فالسعادة كلها في طاعة الله، والأرباح كلها في معاملته، والمحن والبلايا كلها في معصيته ومخالفته فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته، إن

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٣٠.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ١٨٩.

(٣) تسلية أهل المصائب ص ٣٨.

(٤) تسلية أهل المصائب ص ٢٣٦.

(٥) جامع العلوم والحكم ص ٢٣١.

ربنا لغفور شكور، أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة.
يطاع فيشكر، وطاعته من توفيقه وفضله. ويُعصى فيحلم، ومعصية
العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له، الحسنه عنده
بعشر أمثالها، أو يضاعفها بلا عدد ولا حساب، والسيئات عنده بواحدة
ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات
والأرض إلى آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور، باب الكريم مناخ الآمال
ومحط الأوزار، وسما عطاء لا تقلع عن الغيث، بل هي مدرار، ويمنه
ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، لا يلقي وصاياه إلا الصابرون،
ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يهلك عليه إلا الهالكون، ولا يشقى
بعذابه إلا المتمردون.

أهل شكره أهل زيادته، وأهل ذكره أهل مجالسته، وأهل طاعته أهل
كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته^(١).
أخي الكريم: وطَّن نفسك على الشكر حين الشكر وعلى الصبر حين
المصيبة. فإن الدنيا لا تخلو من أمرين حلٌّ ومُر وسعادة وشقاء.. وصفاء
وكَدَر.

لابد للمرء من ضيق ومن سعة
ومن سرور يوافيه ومن حزن
والله يطلب منه شكر نعمته
مادام فيها ويبغي الصبر في المحن

فما على شدة يبقي الزمان يكن

وما على نعمة تبقي على الزمن^(١)

قال سفيان الثوري: ما كان الله ليُنعم على عبدٍ في الدنيا فيفضحه في الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه^(٢).

وفي الحديث عن أبي يحيى صهيب بن سنان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» [رواه مسلم].

وما ننعم به من نعم الأمن وسعة العيش وتيسر المواصلات وكثير لا يحصيه إلا الله إنما هي بلية إذا لم تكن مما يقرب إلى الله وإذا لم تكن وسيلة إلى الطاعة والعبادة.

قال سلمة بن دينار: كل نعمة لا تقرب من الله - عز وجل - فهي بلية^(٣).

ويجب أن نستفيد من هذه النعم في الدعوة إلى الله وإلى نشر العلم الشرعي بين الناس وإلى كل عمل يحبه الله ويقربنا إليه زلفى.

قال يونس بن محمد المكي: زرع رجل من أهل الطائف زرعاً، فلما بلغ أصابته آفة فاحترق فدخلنا عليه لنسليه فيه، فبكى وقال: والله ما عليه أبكي ولكن سمعت الله - تعالى - يقول: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

(١) البداية والنهاية ١٣/٨٣.

(٢) عدة الصابرين ص ١٧٥.

(٣) صفة الصفوة ٢/١٥٧.

فأخاف أن أكون من أهل هذه الصفة، فذلك الذي أبكاني^(١).
 أحمـدُ الله على كل حال
 إنما الدنيا كفيء الظلال
 إنما الدنيا منـاخٌ لراكب
 يسرع الحث بشد الرحال
 ربّ مغتـرٍ بهـا قد رأينا
 نفسه فوق رقاب الرجال^(٢)

قال ثابت البناني: انطلقنا مع الحسن إلى صفوان بن محرز نعوذه، فخرج إلينا ابنه، وقال: هو مبطون لا يستطيعون أن تدخلوا عليه، فقال الحسن: إن أباك إن يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيوجد فيه، خير من أن يأكله التراب^(٣).

وليعلم المصاب أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يُبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه على مصيبته، فلينظر أي المصيبتين أعظم، مصيبته العاجلة بفوات محبوه، أو مصيبته بفوات بيت الحمد في جنة الخلد.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «يود ناسٌ لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا لما يرون من ثواب أهل الدنيا».

وليعلم المصاب الجازع، وإن بلغ به الجزع غايته ونهايته فأخر أمره إلى

(١) تسلية أهل المصائب ص ٥٨.

(٢) أبو العتاهية ص ٣٦١.

(٣) عدة الصابرين ص ١٢٠.

صبر الاضطراب وهو غير محمود ولا مثاب عليه . فإنه استسلم للصبر وانقاد إليه على رغم أنفه^(١) .

وقد نظر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى عدي بن حاتم كئيباً فقال: يا عدي مالي أراك كئيباً حزينا؟ قال: وما يمنعني وقد قتل أبنائي وفقت عيني، فقال: يا عدي، من رضي بقضاء الله كان له أجر ومن لم يرض بقضاء الله حبط عمله^(٢) .

وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد وكان من أحسن الناس وجهاً، فدخل يوماً على الوليد في ثياب وش، وله غدیرتان، وهو يضرب بيديه، فقال الوليد: هكذا تكون فتیان قریش، فعانه فخرج من عنده متوسناً. فوقع في إصطبل الدواب، فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات. ثم إن الأكلة وقعت في رجل عروة، فبعث إليه الوليد الأطباء فقالوا: إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك، فعزم على قطعها فشروها بالمنشار فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة، فغشي عليه، ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر، فأخذها وجعل يقلبها في يده، ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام، ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي الله. ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين، فلما قدم من عند الوليد إلى المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقائه يعزونه، فجعل يقول: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولم يزد عليه ثم

(١) تسلية أهل المصائب ص ٣٦ .

(٢) تسلية أهل المصائب ص ٣٠٥ .

قال : لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامت بنكبة أو حاسد لنعمة ، فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام هناك . فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة : لا أباً لسانئك ، أرنى هذه المصيبة التي نعزيك فيها ، فلما كشف عن ركبه فقال له عيسى : أما والله ما كنا نعدك للصراع ، قد أبقي الله أكثرك ، عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى رجليك . فقال له : يا عيسى : ما عزاني أحدٌ بمثل ما عزيتني به .

ولما أرادوا قطع رجله قالوا له : لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع فقال : إنما إبتلاني ليرى صبري ، أفأعارض أمره^(١) .

وقال مسلمة بن محارب : وقعت في رجل عروة بن الزبير الأكلة وقطعت ، ولم يدع تلك الليلة ورده وقطعت ولم يمسه أحد^(٢) .

رحمنا الله .. أين نحن من هؤلاء؟! ..

قال عبيد الله بن أبي نوح : قال لي رجل على بعض السواحل : كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملتك بما تحب؟ قلت : ما أحصي ذلك كثرة ، قال : فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟ قلت : لا والله . ولكنه أحسن إلي وأعانني قال : فهل سألته شيئاً فلم يعطكه؟ قلت : وهل منعني شيئاً سألته؟ ما سألته شيئاً قط إلا أعطاني ، ولا استعنت به إلا أعانني ، قال : أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت : ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء ، قال فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك والله لشكره أيسر من

(١) عدة الصابرين ص ١٢٥ وانظر البداية والنهاية ٩/ ١١٤ .

(٢) صفة الصفوة ٢/ ٨٦ .

مكافأة عباده إنه تبارك وتعالى رضي من العباد بالحمد شكرًا^(١).
وعندما سئل سفيان بن عيينة عن الزهد في الدنيا فقال: إذا أنعم عليه
فشكر، وإذا ابتلي ببلية فصبر، فذلك الزهد^(٢).
وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ
وَالصَّابِرِينَ وَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] يبكي ويردها ويقول: إنك إن
بلوتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا^(٣).

فاللهم ارحمنا برحمتك والطف بنا في قضائك وارحم ضعفنا واجبر
كسرنا.

أخي.. عندما نسمع ما حصل بالقوم ورضاهم عن الله - جل وعلا -
وصبرهم على المصائب واحتسابهم الأجر.. نرى البون الشاسع بين حالنا
وحالهم.. لنستمع إلى هذه الواقعة.. ونقيسها على ما بنا من مصائب
ومحن.. إنها نقطة في بحر.. ورذاذ من مطر.

قال حكيم من الحكماء: مررت بعريش مصر وأنا أريد الرباط فإذا
برجل في مظلة قد ذهب عيناه ورجلاه، وبه أنواع البلاء وهو يقول: الحمد
لله حمداً يوافي محامد خلقك بما أنعمت عليّ وفضلتني على كثير ممن خلقت
تفضيلاً، فقلت: لأنظرن شيئاً يملكه أم ألهمه الله إلهاماً؟ فقلت: على أي
نعمة من نعمه تحمده أم على أي فضيلة تشكره، فوالله ما أرى شيئاً من
البلاء إلا هو بك، فقال: ألا ترى ما قد صنع بي؟ فوالله لو أرسل السماء
عليّ ناراً فأحرقتنني، وأمر الجبال فدكتني وأمر البحار فغرقتنني، ما أزددت

(١) عدة الصابرين ص ١٧٤.

(٢) السير ٤٦٨/٨.

(٣) الإحياء ٣٨٤/٤.

له إلا حمداً وشكراً، وإن لي إليك حاجة: بنيتُ كانت تخدمني وتتعاھدني عند إفطاري انظر هل تحس بها؟ فقلت: والله إني لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قربةً إلى الله - عز وجل - فخرجت أطلبها بين تلك الرمال فإذا السبع قد أكلها فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون من أين آتي هذا العبد الصالح فأخبره بموت ابنته؟ فأتيته فقلت له: أنت أعظم عند الله منزلة أم أيوب - عليه السلام - ابتلاه الله في ماله وولده وأهله وبدنه حتى صار عرضاً للناس، فقال: لا، بل أيوب، قلت: فإن ابنتك التي أمرتني أن أطلبها أصبتها وإذا السبع قد أكلها. فقال: الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا وفي قلبي منها شيء فشقق شهقة فمات^(١).

أعلم - أخى - أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفو عند النوازل^(٢).

تنكر لي دهري ولم يدرك أنني
أغر وأحداث الزمان تهون
وظل يريني الدهر كيف اغتراره
وبت أريه الصبر كيف يكون^(٣)

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل **بين أمرين**: إما أن يقول أحدهم آمنا وإما أن لا يقول آمنا، بل يستمر على عمل السيئات، فمن قال آمنا، امتحنه الرب عز وجل وابتلاه، وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا، فلا يحسب أنه يسبق الرب لتجربته، فإن أحداً

(١) صفة الصفوة ٤/٣٣٤.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٧٦.

(٣) البداية والنهاية ١١/١٩٠.

لن يعجز الله تعالى ، هذه سنته تعالى يُرسل الرسل إلى الخلق فيكذبهم الناس ويؤذونهم قال - تعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال - تعالى - : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقال تـ على - : ﴿ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣].
ومن آمن بالرسول وأطاعهم عادوه وآذوه، فابتلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم عوقب فحصل له ما يؤلمه أعظم لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والكافر تحصل له النعمة ابتداءً ثم يصير في الألم^(١).

والمصائب لا تكون فقط في موت حبيب أو قريب بل وليست مخصوصة بمرضى ونحوه بل كل ما أصابك حتى وإن صغر فهو مصيبة تُحسب عند الله.

انقطع شسع نعل عمر بن الخطاب فاسترجع وقال: كل ما ساءك مصيبة^(٢).

فليتنا ندأوم على الاسترجاع في كل ما أساءنا لعل الله أن يعوضنا خيراً منها.

وليعلم العبد أن ما أصابه هو بسبب ذنوبه ويعفو جل وعلا عن كثير.
قال عبدالله بن السري، قال لي ابن سيرين: إني لأعرف الذنب الذي

(١) الفوائد لابن القيم ص ٢٦٩.

(٢) تاريخ عمر ص ٢١٢.

حمل علي به الدين ، قلت لرجل من أربعين سنة يا مفلس .
قال أبو سليمان الداراني : قُلْتُ ذُنُوبُهُمْ فَعَرَفُوا مِنْ أَيْنَ يُؤْتُونَ . وكثرت
ذنوبنا فليس ندري من أين نؤتي ^(١) .

وشكا ابن أخ للأحنف بن قيس وجع ضرسه فقال له الأحنف بن قيس
لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتها لأحد ^(٢) .
ونستمع إلى التوجيه النبوي الكريم : « إذا أصاب أحدكم همّ أو لأواء
فليقل : الله الله ربي لا أشرك به شيئاً » .

وقال ﷺ : « المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء » .
ومن عرف حقيقة الدنيا وعرف أن الله يختار للعبد ما فيه خير له رضي
بذلك فإن الله أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين .
قال عمر - رضي الله عنه - ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأنني لا
أدري أيهما خير لي ^(٣) .

وفي الأثر : يا ابن آدم : البلاء يجمع بيني وبينك ، والعافية تجمع بينك
وبين نفسك ^(٤) .

والله - تبارك وتعالى : يتلى عبده لسمع شكواه وتضرعه ودعاءه وصبره
ورضاه بما قضاه عليه ، فهو سبحانه وتعالى يرى عباده إذا نزل بهم ما
يختبرهم به من الصائب وغيرها ، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفي صدورهم ،
فيثيب كل عبد على قصده ونيته ، وقد ذم الله تعالى من لم يتضرع إليه ولم

(١) حلية الأولياء ٢/٢٧٢ .

(٢) الزهد ص ٣٣٧ .

(٣) الإحياء ٣/٣٣٦ .

(٤) تسلية أهل المصائب ص ٢٣٧ .

يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ﴾ (١) [المؤمنون: ٧٦].
أخي الحبيب:

عليك بالصبر إن نابتك نائبة
من الزمان ولا تركزن إلى الجزع
وإن تعرضت الدنيا بزيتها

فالصبر عنها دليل الخير والورع (٢)
قال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة مخزنة
ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر وجرعة غيظ ردها بحلم (٣).
قال بعض السلف فقد الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة (٤).
وقد قال الفضيل بن عياض: إذا أحب الله عبداً أكثر غمه، وإذا أبغض
عبداً وسع عليه دنياه (٥).

ومن تسلية أهل المصائب: أن ينظر المصاب ويفرق بين أعظم اللذتين
والمتعتين تمتع الحياة الدنيا الفانية، وتمتع الدار الآخرة الباقية، وأدومهما
لذة وتمتعاً بما أصيب به، ولذة تمتعه بثواب الله له على قوله وفعله من
استرجاع وصبر ونحوه، فإن ظهر له الرجحان فآثر الرجح فليحمد الله على
توفيقه له. وإن آثر المرجوع من كل وجه فليعلم أن مصيبته في عقله وقلبه

(١) تسلية أهل المصائب ص ٢٢٩.

(٢) مكاشفة القلوب ص ١٣٢.

(٣) عدة الصابرين ص ١٢٧.

(٤) تسلية أهل المصائب ص ١٧٣.

(٥) شذرات الذهب ١/٣١٨.

ودينه، أعظم من مصيبتة التي أصيب بها في دنياه^(١).

وعن سفيان قال: ليس بفقير من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة^(٢).

وهذا عكس فهمنا اليوم فنحن نعد الرخاء نعمة والبلاء مصيبة.. وماذا إلا من ضعف علمنا وقصر فهمنا وحبنا للدنيا الفانية ورغبتنا في الراحة والدعة.

قال سفيان - رحمه الله - قد أنعم الله على عبدٍ في حاجة أكثر من نضرعه إليه فيها^(٣).

والغالب اليوم ينسى الدعاء حتى تصيبه المصائب، والله - جل وعلا - يحب عبده الداعي.. فيجب - يا أخوتي - الإكثار من الدعاء في حال العافية والسلامة ومتى ما أصيب الإنسان كانت الحاجة إلى الدعاء أكبر لتفريج الهم وإزالة البلاء.

مر الربيع بن أبي شيبة برجل به «زمانه»(*) فجلس يحمد الله ويبيكي، فمر رجل فقال: ما يبكيك رحمك الله؟ فقال: ذكرتُ أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء فذلك الذي أبكاني^(٤).

وقال أبو الدرداء وكأنه يرى حالنا الآن: تلدون للموت وتعمرون

(١) تسلية أهل المصائب ص ٢٨.

(٢) السير ٦٦/٧.

(٣) تسلية أهل المصائب ١٧٢.

(*) الزمانة مرض يدون ولا يرجى برؤه.

(٤) الشكر ص ٢٩.

للخراب وتحرصون على ما يفنى، وتذرون ما يبقى، ألا حبذا المكروهات الثلاث: الموت والمرض والفقر^(١).

والأمر اليوم خلاف ذلك ولكن يا أخي من أحب البقاء فليعد للمصائب قلباً صبوراً ولساناً ذاكراً شكوراً.

جاء أحمد بن صالح يوصي أبا عبدالله «أحمد بن حنبل» يوماً وقد بل أوب عبدالله خرقه فألقاها على رأسه فقال له أحمد بن صالح: يا جدي أنت محموم، قال: أبو عبدالله: وأنى لي بالحمى؟
لم يتجزع - رحمه الله - ولم يخبر بمرض أو يشتكي.

أين نحن من هؤلاء؟!

كثير الآن قبل أن تسأله يروي لك رحلته مع الأطباء وأنه ما نام البارحة ولا ذاق طعاماً ولا شرب شراباً، حديثٌ طويل . . ثم يُعدد بعد ذلك أنواع الأدوية التي يأخذها . . ويُعرج في حديثه على مستوى الأطباء وخدمات المستشفى . . ولا ينسى أن يلوم فلان وفلان . . لأنهم لم يزوروه .
حديثٌ طويل . . الصبر والرضا . . ليسا فيه .

قال الفضيل لرجل يشكو إلى رجل: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟^(٢)

تتلذذ له الشكوى وإن لم يجد بها

صلاحاً كما يتلذذ بالحكّ أجرب^(٣)

ولكن لنود لمريض من سلفنا كيف كان زيارته وماذا يقول لرائيه .

(١) شرح الصدور ص ١٥ .

(٢) السير ٤٣٩/١ .

(٣) موارد الظمان ٤٧/٢ .

قال عبدالعزيز بن أبي رواد: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة، فكانه رأى ماشق عليّ منها، فقال: تدري ما لله علي في هذه القرحة من نعمة؟ قال: فسكت فقال: حيث لم يجعلها علي حدقتي ولا طرف لساني ولا علي طرف ذكري، قال: فهانت علي قرحته^(١).

أخي الحبيب:

ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة ويتجنب المحظورات فحسب، إنما المؤمن هو الكامل، لا يختلج في قلبه اعتراض، ولا يساكن نفسه فيما يجري وسوسة، وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه وقوي تسليمه، وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثراً، وسره لا يتغير لأنه يعلم أنه مملوك ولا مالك يتصرف بمقتضى إرادته، فإن اختلج في قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة، كما جرى لإبليس والإيمان القوي يبين أثره عند قوة البلاء^(٢).

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في شرح مسلم: عند قوله ﷺ: «ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ونُحيت عنه بها خطيئة» وفي رواية: «إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه خطيئة» قال: وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين فإنه قل أن ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها^(٣).

(١) صفة الصفوة ٣/٢٦٨.

(٢) صيد الخاطر ص ٣٦٠.

(٣) تسلية أهل المصائب ص ٢٩٢.

وروي في الخبر أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر - رضي الله عنه -: يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر؟ أأنت تمرض؟ أليس يصيبك الأذى أليس تنصب؟ أليس تحزن فهذا مما تجزون به». يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك.

واعلم أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والأذى وقد أمر الله تعالى نبيه - عليه الصلاة والسلام - بالصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١) [الأحقاف: ٣٥].

وروى عن مالك بن أنس من حديث عطاء بن يسار أن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين فقال: انظرا ماذا يقول لعواده، فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله - وهو أعلم - فيقول لعبدي عليّ إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه سيئاته».

وعندما مرض أبو بكر فعادوه، فقالوا: ألا ندعوك الطبيب؟ فقال: قد رأيي الطبيب، قالوا: فأی شيء قال لك؟ قال: إني فعّال لما أريد (٢).

وقال أبو هريرة: إذا مرض العبد المسلم، نودي صاحب اليمين: أن أجر على عبدي صالح ما كان يعمل وهو صحيح ويقال لصاحب الشمال:

(١) تنبيه الغافلين ص ١٣.

(٢) تسلية أهل المصائب ص ١٩٣.

أقصر عن عبدي ما دام في وثاقي، فقال رجل عند أبي هريرة: ياليتني لا أزال ضاجعاً، فقال أبو هريرة كره العبد الخطايا^(١).

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طلقاً...».

فالحمد لله الذي أجرى الخير لابن آدم وهو لم يعمل فالحمد لله ربّ رحيم جواد كريم.

وقد يحصل للعابد الجاهل بمصيبته من الجزع ما يسوء الناظر إليه، والسامع عنه، من الاعتراض على الأقدار وما ذاك إلا لإدلاله بعبادته، فإنه قد شوهده أن خلقاً كثيراً من أهل الدين والخير عند موت أحبائهم جرى منهم أمورٌ ينكرها العقال من الناس فمنهم من خرق ثيابه، ومنهم من لطم خده، ومنهم من اعترض على القضاء والقدر^(٢).

فلا شيء أنفع من العلم، لأن العالم لو حصل له هلعٌ شديد في مصيبته يعلم أنها زلة منه، فيدري كيف يتنفس، والعابد الجاهل كلما غاص إلى أسفل يظن أنه صاعدٌ إلى فوق فإذا إمتحن الشخص ينبغي له أن يتداوى بالأدوية الشرعية^(٣).

أما علمت - أخي - أنه لا بد من الفرقة، ومن المرض بعد الصحة... ومن البعد بعد القرب... فهذه حال الدنيا وأنت يا أخي:

(١) عدة الصابرين ص ١١٤.

(٢) تسلية أهل المصائب ص ٣٤.

(٣) تسلية أهل المصائب ص ٣٤.

لن تستطيع لأمر الله تعقياً
 فاستجد الصبر أو فاستثمر الحوباً
 وافزع إلى كنف التسليم وارض
 بما قضى المهيمن مكروهاً ومحبوباً^(١)

وروي عن جابر أنه قال: قال رسول الله ﷺ قال جبريل: «يا محمد عش ما عشت فإنك ميت، وأحب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه».

إن الموت قادم بعد الحياة والمرض بعد العافية.. نفارق من نحب ونودع من نغز.. هذه الدنيا لا تبقي على أحد..

ولكن نعوذ بالله من عدم الصبر عند المحنة، ونسأله الثبات في الأمر، فإنه والعياذ بالله يُخاف على الشخص من سوء الخاتمة إذا سخط الأقدار، ونازع القضاء، القدر أهله، فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

كان عبد الأعلى التيمي يقول: أكثروا من سؤال الله العافية، فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن من البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء، إنه رب بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة، فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهد في الدنيا ويفضحه في الآخرة^(٢).

(١) السير ١٤/٢٨٠.

(٢) عدة الصابرين ص ١٧٨.

قال ميمون بن مهران: ما نال أحد شيئاً من ختم الخير فما دونه إلا بالصبر^(١).

وقال بعض السلف: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا صديق^(٢).

لا يفتر لسانك من ذكر وشكر المنعم المتفضل ولا تنس حال المصيبة كلمة الاسترجاع فقد تضمنت كلمة «إنا لله وإنا إليه راجعون» علاجاً من الله ورسوله لأهل المصائب.

فإنها من أبلغ علاج المصائب وأنفعه للعبد في عاجله وآجله، فإنها تتضمن أصليين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبتيه.

أحد الإطمين: أن يتحقق العبد أن نفسه وأهله وماله وولده ملك لله - عز وجل - حقيقة، وقد جعله الله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ عاريته من المستعير، وأيضاً: فإنه محفوف بعدمين، عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير.

وأيضاً: فإنه ليس هو الذي أوجده عن عدم، حتى يكون ملكه حقيقةً ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده ولا يبقى على وجوده فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي.

وأيضاً فإنه متصرف فيه بالأمر، تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف الملاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجهه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلف

(١) عدة الصابرين ص ١٢٤.

(٢) تسلية أهل المصائب ص ١٩٨.

الدنيا وراء ظهره، ويأتي ربه يوم القيامة فرداً، كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن يأتيه بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوله فيه، ونهايته وحاله فيه، فكيف يفرح العبد بولد أو مال أو غير ذلك من متاع الدنيا، أم كيف يأسى على مفقود، ففكرة العبد في بدايته ونهايته من أعظم علاج المصائب.

ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه^(١).

ولا ينبغي للمؤمن أن ينزعج من مرض أو نزول موت، وإن كان الطبع لا يملك إلا أنه ينبغي له التصبر مهما أمكن، إما لطلب الأجر بما يعاني، أو لبيان أثر الرضا بالقضاء، وما هي إلا لحظات ثم تنقضي.

وليتفكر العاقل من المرض في الساعات التي كان يقلق فيها، أين هي في زمن العافية؟ ذهب البلاء، وحصل الثواب، كما تذهب اللذات المحرمة ويبقى الوزر، ويمضي زمان التسخط بالأقدار ويبقى العتاب. وهل الموت إلا آلام تزيد فتعجز النفس عن حملها فتذهب، فليتصور المريض وجود الراحة بعد رحيل النفس، وقد هان ما يلقي كما يتصور العافية بعد شرب الشربة المرة، ولا ينبغي أن يقع جزع بذكر البلى، فإن ذلك شأن المركب، أما الراكب ففي الجنة أو في النار. وإنما ينبغي أن يقع الاهتمام الكلي بما يزيد في درجات الفضائل قبل نزول المعوق عنها. فالسعيد من وفق لاغتنام العافية، ثم يختار تحصيل الأفضل. فالأفضل في زمن الاغتنام. وليعلم أن زيادة المنازل في الجنة على قدر التزيد من الفضائل ههنا، والعمر قصير

(١) تسلية أهل المصائب ص ١٩.

والفضائل كثيرة فليبالغ في البدار فيا طول راحة التعب، ويا فرحة المغموم، ويا سرور المحزون، ومتى تخايل دوام اللذة في الجنة من غير منغص ولا قاطع، هان عليه كل بلاء وشدة^(١).

رضيت بالله في عسري وفي يسري

فلمست أسلك إلا أوضح الطرق^(٢)

قال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وعمومها^(٣).
وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: ما قضى الله في بقضاء فسرني أن يكون قضى لي بغيره، ما أصبح لي هوى إلا في مواقع القدر^(٤).
وجاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقاً في حاله ومعاشه واغتماماً بذلك فقال: أيسرك ببصرك مئة ألف؟ قال: لا، قال: فبسمعك؟ قال: لا قال: فبلسانك؟ قال: لا، ثم قال يونس: أرى لك مئين ألوفاً وأنت تشكو الحاجة^(٥).

ولننظر في حال من سبقنا ماذا يرجون في حال المرض.. قال الحسن..
كانوا يرجون في حمى ليلة كفارة لما سلف من الذنوب. وقال إبراهيم النخعي: كانوا يستحبون للمريض أن يجتهد عند الموت^(٦).
وكانوا يقولون: آخر شدة يلقاها المؤمن عند الموت^(٧).

(١) صيد الخاطر ص ٣٦٨.

(٢) تاريخ بغداد ٧/ ٧٦.

(٣) شرح الصدور ص ٢٢٠.

(٤) الإحياء ٣/ ٣٣٦.

(٥) السير ٦/ ٢٩٢.

(٦) تسلية أهل المصائب ص ٣٧.

(٧) تسلية أهل المصائب ص ٩٧.

ولنرى سعد بن أبي وقاص وهو المعروف بإجابة الدعوة قيل له: لو دعوت الله لبصرك - وكان قد أضر - فقال الله أحب إلي من بصري^(١).

والحمد لله حمداً كثيراً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه فإن الأمر كما قال سليمان التيمي: إن الله أنعم على العباد على قدره، وكلفهم الشكر على قدرهم^(٢).

ومن نعم تسلية أهل المصائب: أن ينظر العبد بعين بصيرته، فليعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة في الآخرة، يقبلها الله تعالى، وحلاوة الدنيا هي بعينها مرارة في الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير من عكس ذلك، فإن خفي عليك ذلك فانظر إلى قول الصادق المصدوق: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات».

ومما يسلي أهل المصائب: أن المصاب إذا صبر واحتسب وركن إلى كريم، رجاء أن يخلف الله تعالى عليه، ويعوضه عن مصابه، فإن الله تعالى لا يخيبه بل يعوضه، فإنه من كل شيء عوض إلا الله تعالى فما منه عوض كما قيل.

من كل شيء إذا ضيعته عوض

وما من الله إن ضيعته عوض

بل يعلم أن حظه من المصيبة ما يحدثه له، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، فاختر لنفسك خير الحظوظ أو شرها، فإن أحدثت لك سخطاً وكفراً كنت في ديوان الهالكين، وإن أحدثت لك جزعاً وتفريطاً في ترك واجب أو فعل محرم كنت في ديوان المفرطين، وإن أحدثت لك شكاية

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٤٨.

(٢) كتاب الشكر ص ١١.

وعدم صبر ورضا كنت في ديوان المغبونين، وإن أحدثت لك اعتراضاً عليه وقدحاً في حكمته ومجادلة في الأقدار، فقد قرعت باب الزندقة، وفتح لك وولجته، فأحذر عذاب الله يحلّ بك، فإنه لمن خالفه بالمرصاد.

وإن أحدثت لك صبراً وثباتاً لله كنت في ديوان الصابرين، وإن أحدثت لك رضا بالله ورضا عن الله وفرحاً بقضائه كنت في ديوان الراضين، وإن أحدثت لك حمداً وشكراً كنت في ديوان الشاكرين الحامدين، وإن أحدثت لك محبة واشتياقاً إلى لقائه كنت في ديوان المحبين المخلصين^(١)

عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط».

فأنفع الأدوية للمصائب موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وإن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب ثم سخط ما يحبه، وأحب ما يسخطه فقد شهد على نفسه بكذبه، وأسخط عليه محبوبه.

وقال قتادة: قال لقمان وقد سأله رجل: أي شيء خيراً؟ قال: صبرٌ لا يتبعه أذى، قال: فأَيُّ الناس خيراً؟ قال: الذي يرضى بما أوتي، قال: فأَيُّ الناس أعلم؟ قال: الذي يأخذ من علم الناس إلى علمه، قيل: فما خير الكثر. من المال أو من العلم؟ قال: سبحان الله، بل المؤمن العالم الذي إن ابتغى عنده خيراً وجد، وإن لم يكن عنده كف نفسه، وبحسب المؤمن أن يكف نفسه^(٢).

وكان الصالحون يفرحون بالشدة لما يرجون من ثوابها^(٣).

(١) تسلية أهل المصائب ص ٤١.

(٢) عدة الصابرين ص ١٢٦.

(٣) تنبيه الغافلين ص ١٢٤.

والشكر لله جل وعلا شكرًا باللسان وبالعامل وأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر^(١).

أخي الكريم:

يبين إيمان المؤمن عند الابتلاء، فهو يبالغ في الدعاء ولا يرى أثراً للإجابة، ولا يتغير أمله ورجاؤه، ولو قويت أسباب اليأس، لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح، أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان، فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره، أو يريد كثرة اللجأ والدعاء، فأما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر إن لم تتعجل، فذاك ضعيف الإيمان، يرى أن له حقاً في الإجابة، وكأنه يتقاضى أجره عمله. أما سمعت قصة يعقوب - عليه السلام -: بقي ثمانين سنة في البلاء ورجاؤه لا يتغير.

فإياك - أخي - أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مبتلى بالبلاء متعب بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء^(٢).

عزى ابن السماك رجلاً فقال: «عليك بالصبر فإنه يعمل من احتساب وإليه يصير من جزع»^(٣).

ومن المصائب استظالة الناس وتعرضهم وكثرة قيلهم وقالهم . . . استطال رجل على أبي معاوية الأسود: فقال له رجل: مه، فقال أبو

(١) عدة الصابرين ص ١٧٢.

(٢) صيد الخاطر ص ٥٥٢.

(٣) عدة الصابرين ص ١٢٩.

معاوية : دعه يتشفى ثم قال : اللهم اغفر الذنب الذي سلطت عليّ به هذا .
وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - من زهد في الدنيا هانت عليه
المصائب ، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات ^(١) .

اشتكى ابن أخي الأحنف بن قيس وجع ضرسه فقال له الأحنف : لقد
ذهبت عيني منذ أربعين سنة ماذكرتها لأحد ^(٢) .

قال الفضيل : إذا أحب الله عبداً أكثر غمه ، وإذا أبغض عبداً وسع عليه
دنياه ^(٣) .

واعلم - أخى - أن الزمان لا يثبت على حال كما قال - عز وجل - ﴿وَتِلْكَ
الْآيَاتُ نَذِيرٌ لِّبَيْنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٤٠] فتارة فقر ، وتارة غنى وتارة
عز ، وتارة ذل ، وتارة يفرح الموالي ، وتارة يشمت الأعادي ، فالسعيد من
لازم أصلاً واحداً على كل حال وهو تقوى الله ^(٤) .

ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في المصائب المختصة بذات الإنسان . . قال :
رأيت جمهور الناس إذا طرقتهم المرض أو غيره من المصائب اشتغلوا تارة
بالجزع والشكوى ، وتارة بالتداوي إلى أن يشتد عليهم ، فيشغلهم اشتداده
عن الالتفات إلى الصالح من وصية ، أو فعل خير ، أو تأهب للموت ، فكم
من له ذنوب لا يتوب منها ، أو عنده ودائع لا يردها ، أو عليه دين أو
زكاة ، أو في ذمته ظلامة لا يخطر له تداركها ، وإنما حزنه على فراق الدنيا ،

(١) تسلية أهل المصائب ص ٢٤٥ .

(٢) صفة الصفوة ٣/ ١١٩ .

(٣) السير ٨/ ٤٣٢ .

(٤) صيد الخاطر ص ١٧٠ .

إذ لا هم له سواها، وربما أفاق وأوصى بجور^(١).

فينبغي للمتيقظ أن لا يتأسف على مافات، وأن يتأهب في حال الصحة قبل هجوم المرض، فربما ضاق الوقت عن عمل، واستدراك فارط، أو وصية، فإن لم تكن له وصية في صحته فليبادر في مرضه، وليحذر الجور في وصيته، فإنه من المحرمات، فإنه يمنع المستحق ويعطي من لا يستحق، فيحتاج أن يحارب نفسه وشيطانه، وليعلم أن هذا الواقع من المصائب في نفسه وماله وولده، وقع برضى مالكة وخالقه، فيجب على العبد أن يرضى بما يرضى به السيد، ويعاقب نفسه إذا جزعت، ويقول لها: أما علمت أن هذا لا بد منه، فما وجه الجزع، وإنما هي ساعة كأن لم يكن ماكان، ومن تلمح العواقب هان عليه مرارة الدواء.

وعن أبي محمد الحريري قال: حضرت عند الجنيد قبل وفاته بساعتين، فلم يزل تالياً وساجداً، فقلت له: يا أبا القاسم قد بلغ ما أرى من الجهد، فقال: يا أبا محمد، أحوج ما كنت إليه هذه الساعة، فلم يزل كذلك حتى فارق الدنيا^(٢).

لم يجزع على الدنيا إلا بقدر فوات العمر بدون طاعة. فإن أشدنا حباً للدنيا أشدنا جزعاً عند المصيبة.

وقال اسماعيل بن عمرو: دخلنا على ورقاء بن عمر وهو في الموت، فجعل يهلل ويكبر ويذكر الله - عز وجل - وجعل الناس يدخلون عليه ويسلمون عليه، فيرد عليهم السلام، فلما كثروا عليه أقبل على ابنه فقال:

(١) تسلية أهل المصائب ص ٣٥.

(٢) تسلية أهل المصائب ص ٣٦.

يا بُني، اكفني رد السلام على هؤلاء لا يشغلوني عن ذكر ربي - عز وجل - ^(١).

وقال عمر بن عبدالعزيز ما أحب أن يهون علي في سكرات الموت فإنه آخر ما يكفر عن المرء المسلم ^(٢).

قال إبراهيم بن داود: قال بعض الحكماء إن لله عبداً يستقبلون المصائب بالبشر.

قال: أولئك الذين صفت من الدنيا قلوبهم ^(٣).

ينبغي للمصاب بنفسه، أو بولده أو بغيرهما، أن يجعل في المرض مكان الأئين ذكر الله - تعالى - والاستغفار والتعبد، فإن السلف - رحمهم الله تعالى - كانوا يكرهون الشكوى إلى الخلق، سأل رجل أبا بكر بن عبد الله فقال: ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رجلاً على الصراط ورجلاً في الجنة ^(٤).

قال الحسن وذكر الوجد . . أما والله ما هو بشر أيام المسلم أيام نورت له فيها مراحلها، وذكر فيها ما نسي من معاده، وكفر بها عنه خطاياها ^(٥)
قال أبو مسعود البلخي: من أصيب بمصيبة فمزق ثوباً أو ضرب صدره فكأنما أخذ رحماً يريد أن يقاتل به ربه - عز وجل - ^(٦).

(١) تسلية أهل المصائب ص ٣٦.

(٢) تسلية أهل المصائب ص ٣٧.

(٣) تسلية أهل المصائب ص ٢٣.

(٤) الشكر ص ٥٤.

(٥) عدة الصابرين ص ١١٩.

(٦) الإحياء ١٣٩/٤.

أخبرني: إن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب وما ينال كثيراً من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين. فإذا سمع في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وهي وإن كان فيها راحة إلا إنها تدل على ضعف وخور، والصبر عنها دليل قوة وعز، وهي إشاعة سر الله - تعالى - عند العبد، وهي تؤثر شماتة الأعداء ورحمة الأصدقاء.

لا تشكـون إلى صديق حالة

تأتـيك في السراء والضراء

فلـرحمة المتوجعين مـراراً

في القلب مثل شماتة الأعداء^(١)

قال عون: الإنسان إن سقم ندم، وإن صح أمن، وإن استغنى فتن، وإن افتقر حزن^(٢).

وعندما سئل الأحنف بن قيس: ما الحلم؟ قال: أن تصبر على ما تكره قليلاً^(٣).

وصديق والله فهو وقت قليل ثم يزول. . . سحابة صيف وتنقشع ولو تأملت ماجرى لك من المصائب والآفات لرأيت كيف طواها النسيان، فإن

(١) تسلية أهل المصائب ص ٣٦.

(٢) الزهد لأبي عاصم ص ٣٧.

(٣) عدة الصابرين ص ١٢٥.

احتسبتها فقد بقيت لك حسناتها وأجر صبرها، وإلا فقد سليت كما تسلو البهائم.

﴿وَالْعَقِيبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفصل: ٨٣] ونحو هذه الآيات ورأى شواهد النصر والعزة على مراحل العصور للمسلمين اطمأن قلبه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

والكفار يصيبهم من البلاء والمصائب كأي إنسان على وجه الأرض... والعبرة بالنهايات والنجاة من النار. وقد جمع الله لعباده الصالحين السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة.

قال وهب: عبد الله عابد خمسين عاماً، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لك، قال: أي رب وما تغفر لي ولم أذنب؟ فأذن الله بعرق في عنقه يضرب عليه، فلم ينم ولم يُصل، ثم سكن فنام ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق، فقال الملك: إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق^(١).

وذكر عن أبي معمر الأزدي قال: كنا إذا سمعنا ابن مسعود شيئاً نكرهه، سكتنا حتى يفسره لنا، فقال لنا ذات يوم: ألا إن السقم لا يكتب له أجر، فسأنا ذلك وكبر علينا، فقال: ولكن يكفر به الخطيئة فسرنا ذلك، وأعجبنا^(٢).

هذا من كمال علمه وفقهه - رضي الله عنه - فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية به ومما تولد منها، فالطاعات ترفع الدرجات،

(١) عدة الصابرين ص ١٧٥.

(٢) عدة الصابرين باختصار ص ١١٤.

والمصائب تحط السيئات ولهذا قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه» وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». فهذا يرفعه، وهذا يحط خطاياهُ^(١).

قال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده، فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعتة يقول لنفسه: اذكر المطروحين في الطرق، اذكر من لا مأوى له ولا من يخدمه^(٢).

صبراً جميلاً ما أسرع الفرجا
من صدق الله في الأمور نجاً
من خشى الله لم ينله أذى
ومن رجا الله كان حيث رجا^(٣)

قال عمر - رضي الله عنه -: أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً^(٤).

وقال سليمان بن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمر^(٥).

لعلك - أخي الكريم - أدركت منزلة الصبر فهي عدة للنوائب والمصائب

(١) عدة الصابرين ص ١١٥.

(٢) عدة الصابرين ص ١٧٤.

(٣) السير ٥٨٩/١٢.

(٤) عدة الصابرين ١٢٤.

(٥) عدة الصابرين ١٢٤.

تؤجر على الصبر وترضى عن ربك على قضائه وقدره.. قال تعالى:
﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

عن مسلم بن يسار.. كان أحدهم إذا برىء قيل: ليهنك الطهر^(١) (*)
أخي: لعله خطر في بالك هذه المحاورة مع الإمام الغزالي..

لعلك تقول هذه الأخبار على أن البلاء خير في الدنيا من النعم، فهل لنا
أن نسأل الله البلاء، فأقول: لا وجه لذلك، ولما روي عن رسول الله ﷺ
أنه كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة وكان يقول هو
والأنبياء عليهم السلام: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» وكانوا
يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها^(٢).

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة، قد رفع لك علم، فشمري إليه
فقد أمكن التشمير، واجعل سيرك بين مطالعة منيته ومشاهدة عيب النفس
والعمل والتقصير، فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل
الصالح، إنه غفورٌ شكور، واعلم - رحمك الله - أن الأعمال بخواتيمها،
فإنه ربما أضله في اعتقاده، وربما حيل بينه وبين التوبة، فينبغي للمصاب
بنفسه أو بغيره أن يعلم أو يعمل لغيره أنها صبر ساعة فيتجلد ويحارب
العدو جهد طاقته، فبصدقة تحصل له عليه الإعانة من الله^(٣).

أخي الحبيب:

قال شفيق البلخي: من يرى ثواب الشدة، لا يشتهي المخرج منها.

(١) حلية الأولياء ٢/٢٩٤.

(*) برىء عوفي من المرض ويعني بالطهر: الخلاص من الذنوب.

(٢) الإحياء ٤/١٤٠.

(٣) تسلية أهل المصائب باختصار ٣٧.

فألهم لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت... أعطيت فأجزلت وقضيت فلطفت... لانرجو سواك ولا نلجأ إلا إليك.
قال الله - جل وعلا -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة» [رواه الترمذي].

وعنه ﷺ قال: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك».
قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] قال: إنهما معونتان على رحمة الله (١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه نعي إليه ابن له، فاسترجع وقال: عورة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجر قد ساقه الله تعالى، ثم نزل فضلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله - تعالى -، قال - تعالى -: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

وما دمنا على هذه الأرض نسير فوق ثراها فإننا معرضون للبلاء والمصائب تارة في النفس وأخرى في المال وثالثة في الأبناء.
هذا نبي الله أبيضت عيناه من الحزن على ابنه يوسف وهو كما قال الله تعالى: ﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] قال

همام بن قتادة: كظيم على حزن فلم يقل إلا خيراً^(١).
وقد روي عن شمر أنه كان إذا عزي مصاباً قال: اصبر لما حكم
ربك^(٢).

وقال سفيان بن عيينه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُوكَ بِأَمْرِنَا
لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] قال: لما أخذ برأس الأمر جعلناهم رؤوساً^(٣).

وقد جمع الله للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي: الصلاة منه
عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ
رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

قال بعض السلف، وقد عزي على مصيبة نالته: مالي لا أصبر. وقد
وعدني الله على الصبر ثلاث خصال، كل خصلة منها خير من الدنيا وما
عليها^(٤).

عن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربي ابن، كان له إحدى عشرة
سنة، حفظ القرآن ولقنه من الفقه جانباً كبيراً، قال: فمات، فجئت أعزيه
فقال: كنت أشتهي موت ابني هذا، قال: فقلت له: يا أبا إسحاق أنت
عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبي قد أنجب ولقنته الحديث والفقه؟ قال:
نعم، رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبياناً بأيديهم قلال
فيها ماء يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم حاراً شديداً حره، قال:

(١) عدة الصابرين ١٢٧.

(٢) عدة الصابرين ١٢٥ تسلياً أهل المضائب ١٧٥.

(٣) عدة الصابرين ١٢٥.

(٤) عدة الصابرين ٩٩.

فقلت لأحدهم: أسقني من هذا الماء، قال: فنظر إلي وقال: ليس أنت أبي، قلت: فأنتم؟ قال: فقال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا وخلفنا آباءنا فنستقبلهم فنسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته^(١).

أخي: إنه لا بد من الابتلاء بما يؤدي الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه البتة، ولهذا ذكر الله - تعالى - في غير موضع أنه لا بد أن يبتلى الناس، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، ولا بد أن يبتلى الإنسان بما يسره وما يسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾^(٢) [الكهف: ٧].

قال قيس بن الحجاج في قول الله: ﴿ فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾^(٣) [المعارج: ٥] قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو^(٤).

وقد مات ابن لبعض قضاة البصرة، فاجتمع إليه العلماء والفقهاء، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع^(٥).

عزى رجلٌ رجلاً في ابنه فقال: إنما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه، فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر، فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى الرزيتين لك والسلام^(٥).

(١) تسلية أهل المصائب ٤٣.

(٢) الفوائد ٢٧١.

(٣) عدة الصابرين ١٢٨.

(٤) عدة الصابرين ٣٢٦.

(٥) عدة الصابرين ١٢٨.

أما والذي لا خُلد إلا لوجهه
ومن ليس في العز المنيع له كفو
لئن كان بدء الصبر مرّاً مذاقه
لقد يُجنى من غبته الثمر الحلو^(١)

أخي الحبيب:

من نزلت به بلية فأراد تمحيقها، فليتصورها أكثر مما هي تُهن، وليتخيل ثوابها وليتوهم نزول أعظم منها، يرى الربح في الاقتصار عليها، وليتلمح سرعة زوالها، فإنه لو لا كرب الشدة، مارجيت ساعة الراحة، وليعلم أن مدة مقامها عنده، كمدة مقام الضيف، يتفقد حوائجه في كل لحظة، فيا سرعة انقضاء مقامه، ويا لذة مدائحه وبشره في المحافل ووصف المضيف بالكرم. فكذلك المؤمن في الشدة. ينبغي أن يراعي الساعات، ويتفقد فيها أحوال النفس، ويتلمح الجوارح، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة، أو من القلب تسخط، فكأن قد لاح فجر الأجر، فانجاب ليل البلاء، ومدح الساري بقطع الدجى، فما طلعت شمس الجزاء إلا وقد وصل منزل السلامة ومن عرف جريان الأقدار ثبت لها وصبر لها ساعة^(٢).

لما مات عبيد الملك بن عمر بن عبدالعزيز دفنه عمر وسوى عليه، ثم استوى قائماً، فأحاط به الناس فقال: رحمك الله يا بني، قد كنت براً بأبيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك، ولا والله ما كنت قط

(١) عدة الصابرين ١٢٨.

(٢) صيد الخاطر ١٠٤.

أسر بك سروراً ولا أرجى بحظي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيرك الله إليه^(١).

ولما مات أبو بكر الصديق قال علي بن أبي طالب: رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمرنا إنا لله وإنا إليه راجعون^(٢).

وعندما أصيب مطرف بن عبد الله في ابن له، فأتاه قوم يعزونه، فخرج إليهم أحسن ما كان بشراً، ثم قال: إني لأستحي من الله أن أتضعض لمصيبة^(٣).

صبرت فكان الصبر خير مغبرة
وهل جزع يجدي عليّ فأجزع
ملكوت دموع العين حتى رددتها
إلى ناظري فالعين في القلب تدمع^(٤)

أخي الكريم:

ليحذر العبد كل الحذر أن يتكلم في حال مصيبتة وبكائه بشيء يحبط به أجره ويُسَخِّط به ربه، مما يشبه التظلم، فإن الله تعالى عادل لا يجور، وعالم لا يضل ولا يجهل، وحكيم أفعاله كلها حكم ومصالح، ما يفعل شيئاً إلا بحكمه، وهو الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء له الخلق والأمر، بل إنما يتكلم بكلام يُرضي به ربه، ويكثر به أجره، ويرفع الله به قدره^(٥).

(١) مختصر منهاج القاصدين ٢٠١.

(٢) تسلية أهل المصائب ٢١٣.

(٣) عدة الصابرين ١٢٩.

(٤) عدة الصابرين ١٢٨.

(٥) تسلية أهل المصائب ٥٨.

كان صلة بن أشيم في غزاة له ومعه ابن له فقال له: أي بني! تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم فقتل، فاجتمعت النساء، فقامت امرأته معاذة العذرية فقالت للنساء: مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئتنني مرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن^(١).

حدث يزيد بن أبي حبيب: أن ابناً لعياض بن عقبة حضرته الوفاة، وكان عياض غائباً فقالت أم الغلام: لو كان أبو وهب حاضراً لقرت عينه، فلما حضرت وفاة عياض بن عقبة قال لأخيه أبي عبيد: يهتك الظفر قد كنت أرجو أن تكون قبلي فأحتسبك^(٢).

أي أنك تحتسبني وتصبر على مصيبتني وينالك الأجر بذلك. وحين مات عبدالله بن مطرف، خرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد أدهن، فغضبوا وقالوا: يموت عبدالله، ثم تخرج في ثياب من هذه مدهناً؟ قال: أفأستكين لها، وقد وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا وما فيها قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾^(٣) [البقرة: ١٥٦ - ١٥٧].

ولنتأمل مسابقتهم إلى ذلك الخير ورغبتهم فيما عند الله ورضاهم عن الله - جل وعلا - قال سهيل بن الحنظلية الأنصاري - وكان لا يولد له - لأن يولد لي ولد سقط، فأحتسبه أحب إلي من أن يكون لي الدنيا بأجمعها، وكان

(١) مختصر منهاج القاصدين ٢٩٩.

(٢) تسلية أهل المصائب ٤٤.

(٣) مختصر منهاج القاصدين ٢٩٩.

ابن الحنظلية ممن بايع تحت الشجرة^(١).
أخي الحبيب:

الدنيا وضعت لبلاء فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يعلم أن ما حصل من المراد فلفظ، وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجملة للدنيا.

وهنا تتبين قوة الإيمان وضعفه، فليستعمل المؤمن من أدوية هذا المرض التسليم للمالك والتحكيم لحكمته^(٢).

ستمضي مع الأيام كل مصيبة

وتحدث أحداث تنسي المصائب^(٣)

نسير مع هذه الصور الحية الناطقة في حياة من سبقنا ونرى كيف صبرهم ونلمس رضاهم عن الله - جل وعلا - في كل المصائب.

قال عمر بن عبدالعزيز لابنه: كيف تجددك؟ قال: في الموت، قال: لأن تكون في ميزاني أحب إلي أن أكون في ميزانك، فقال: والله يا أبة، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب^(٤).

وعندما قيل لبعض الصالحين: قتل ولدك في سبيل الله! فبكى، فقيل له: أتبكي وقد استشهد؟ فقال: إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله - عز وجل - حين أخذته السيوف^(٥).

(١) تسلية أهل المصائب ٤٤.

(٢) صيد الخاطر ٥٠٧.

(٣) بغداد ٢٥٩/٦.

(٤) تسلية أهل المصائب ٢١٣.

(٥) تسلية أهل المصائب ٢١٠.

أخي أين نحن من هؤلاء؟!

روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن سفيان، قال: سمعت سفيان يقول: ما في الأرض أحد أحب إلي من سعيد، وما في الأرض أحد يموت أحب إلي منه، فمات فرأيته يبكي، قال: قد كنت تمنى موته، قال: أذكر قوله: آه جنبي^(١).

ومات ابن لعبدالرحمن بن مهدي فجزع عليه جزعاً شديداً. فبعث إليه الشافعي يقول له: يا أخي، عز نفسك بما تعزي به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أمض المصائب فقد سرور وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمع مع اكتساب وزر، فتناول حظك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد تنأى عنك، ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأحرز لنا بالصبر أجراً^(٢).

ألا إنما الدنيا غصارة أيكاة

إذا اخضر منها جانبٌ جف جانب
وما الدهر والآمال إلا فجائع
عليها وما اللذات إلا مصائب
فلا تكتمل عيناك منها بعبرة

على ذاهب منها فإنك ذاهب^(٣)

سبحان المتصرف في خلقه بالاغتراب والإذلال ليلو صبرهم، ويظهر جواهرهم في الابتلاء.

(١) تسلية أهل المصائب ٤٦.

(٢) تسلية أهل المصائب ١٧٥.

(٣) البداية والنهاية ١١/٣٢٠.

فمن تلمح بحر الدنيا وعلم كيف تُتلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعه الأيام لم يستهول نزول بلاء ولم يفرح بعاجل رخاء^(١).

كان عروة بن الزبير قد صحب معه بعض أولاده وكان من جملتهم ابنه محمد، وكان أحبهم إليه، فدخل دار الدواب ففرسته فرس فمات، فأنوه، فعزوه فيه فقال: الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، ولئن كنت قد أخذت فطالما أعطيت^(٢).

مكانة الصبر عظيمة يقول عمر بن عبدالعزيز: ما أنعم الله على عبده نعمة فانتزعها منه فعاضاها مكانها الصبر إلا كان ما عوّضه خيراً مما انتزع منه.

وعندما سئل الجنيد عن الصبر قال: هو تجرع المرارة من غير تعبس^(٣).
والمصائب تنزل حولنا وتحف بنا.. كيف قلوبنا.. عامرة بالصبر، عامرة بالتقوى والرضا.. مستعدة لأشد بلاء يقابل المسلم.. ألا وهو الموت.

عزى صالح المري رجلاً قد مات ولده فقال: إن كانت مصيبتك أحدثت لك عظة في نفسك فنعم مصيبتك، وإن كانت لم تحدث لك عظة في نفسك فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بابنك^(٤).

(١) صيد الخاطر ٢٣٦.

(٢) البداية والنهاية ١١٥/٩.

(٣) تسلية أهل المصائب ١٩٣.

(٤) تسلية أهل المصائب ١٢٨.

ولنسمع عن فضل الله وإحسانه على عباده:

عن أبي بكر قال: إن المسلم ليؤجر في كل شيء حتى في النكبة وانقطاع شسعه، والبضاعة تكون في كفه فيفقدوها، فيفزع لها فيجدها في غبة^(١).

وقد مات لعقبة ابن يقال له يحى فلما نزل في قبره قال له رجل: والله إن كان لسيد الجيش فأحتسبه، فقال والده وما يمنعني أن أحتسبه وكان من زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات^(٢).

أخي الكريم لينظر المصاب في كتاب الله وسنة رسول الله فيجد أن الله تعالى أعطى لمن صبر ورضي ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.. ومن أنفع الأمور للمصاب.. أن يطفىء نار مصيبته ببرد التأسى بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل قرية ومدينة بل في كل بيت من أصيب، فمنهم من أصيب مرة، ومنهم من أصيب مراراً، وليس ذلك بمنقطع حتى يأتي على جميع أهل البيت حتى نفس المصاب فيصاب، أسوة بأمثاله ممن تقدمه، فإنه إن نظر يمنة فلا يرى إلا محنة، وإن نظر يسرة فلا يرى إلا حسرة^(٣).

فإذا علم المصاب أنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، فسرور الدنيا أحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً وإن سرت يوماً ساءت دهرأً، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت داراً حبرة إلا ملأتها عبرة، وحصلت للشخص في

(١) تاريخ الخلفاء ٩٦.

(٢) تسلية أهل المصائب ٤٢.

(٣) تسلية أهل المصائب ٢٠.

يوم سروراً، إلا خبات له في يوم سروراً^(١).

عن الأحوص قال: دخلنا على ابن مسعود - رضي الله عنه - وعنده بنون له ثلاثة غلمان كأنهم الدنانير فجعلنا نتعجب من حسنهم فقال: كأنهم يغبطونني؟ قلنا أي والله ليمثل هؤلاء يغبط المسلم فرفع رأسه إلى سقف البيت وقد عشعش فيه خطاف وياض فقال: والذي نفسي بيده لأن أكون قد نفضت يدي من تراب قبورهم أحب إلي من أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه، ثم قال: ما أصبحت على حال فتمنيت أني على سواها^(٢).

وقال عمر بن ميمون بن مهران: كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبة، فلقي أبي شيخاً فعانقه أبي، مع الشيخ فتى قريباً مني، فقال له أبي: من هذا؟ قال: ابني، فقال: وكيف رضاك عنه؟ قال: ما بقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه إلا واحدة، قال: وما هي؟ قال: كنت أحب أن يموت وأوجر فيه!

قال: ثم فارقه أبي، قال: فقلت لأبي من هذا الشيخ؟ قال: هذا مكحول^(٣).

هذا يحيى بن معاذ يقول في درر من الكلام: ابن آدم.. مالك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت، ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يدك الموت^(٤)؟

قال بعض السلف وقد سأل رجل فقال: عظمي؟! فقال: انظر منك إلى

(١) تسلية أهل المصائب ٢١.

(٢) تسلية أهل المصائب ٤٥.

(٣) تسلية أهل المصائب ٤٦.

(٤) تسلية أهل المصائب ٤٠.

آدم هل ترى منهم عين تطرف؟ فقال حسبك^(١).
 كتب الموت على الخلق فكم
 فل من جيش وأفنى من دول
 قال عبدالرحمن بن عوف - رضي الله عنه -: أبتلينا بالضراء فصبرنا
 وأبتلينا بالسراء فلم نصبر، ولذلك قال الله - تعالى -: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ
 وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].
 وقال - تعالى -: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]
 ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾^(٢) [التغابن: ١٤].
 وقال الزجاج: . أعلمهم الله - عز وجل - أن الأموال والأولاد مما
 يفتنون به، وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما
 عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من
 عصمه الله - تعالى -^(٣).
 عن يعلى بن الوليد قال: لقيت أبا الدرداء فقلت: ما تحب لمن تحب؟
 قال: الموت، قلت: فإن لم يموت؟ قال: يقل ماله وولده^(٤).
 وصاحب السيرة يقول بعض الحكماء: . قد مات كل نبي، ومات كل
 نبيه وليب وفقه وعالم، فلا تجزع ولا يوحشك طريق الخلائق فيها^(٥).

(١) تسلية أهل المصائب ٤٠.

(٢) منهاج القاصدين ٢٩٦.

(٣) إغاثة اللهفان ١٦٠/٢.

(٤) السير ٣٤٩/٢.

(٥) تسلية أهل المصائب ٤٠.

أخي .. كلنا سائرون في طريق نهايته معروفة .. الموت هادم اللذات .
ولكن

اصبر لكل مصيبة وتجلد
واعلم بأن المرء غير مخلد
أو ما ترى أن المصائب جمة
وترى النية للعباد بمرصد
من لم يصب ممن ترى بمصيبة
هذا سبيل لست عنه بأوحد
وإذا ذكرت مصيبة تسلبوها
فاذكر مصابك بالنبى محمد (١)

فمن أعظم مصائبنا التي نحتسبها عند الله موته ﷺ ومن أعظم
البشارات لمن أصيب بمصيبة فذكرها بعد مدة طويلة فجدد لها استرجاعاً
وصبراً، ماله عند الله من الأجر كلما ذكرها واسترجع . قال ﷺ : « ما من
مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك
استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها » .

مات لرجل من السلف ولدٌ، فعزاه سفيان بن عيينة وآخرون وهو في
حزن شديد حتى جاءه الفضيل بن عياض فقال : يا هذا أرأيت لو كنت في
سجن وابنك، فأفرج عن ابنك قبلك أما كنت تفرح ؟ قال : بلى قال : فإن
ابنك خرج من سجن الدنيا قبلك ، فسرى عن الرجل وقال : تعزيت (٢)

(١) تسلية أهل المصائب ٢٥

(٢) تسلية أهل المصائب ١٢٠ .

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في «عيون الحكايات» قال الأصمعي:
خرجت أنا وصديق لي إلى البادية فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن
يمين الطريق، فقصدناها فسلمنا فإذا امرأة ترد علينا السلام، قالت: وما
أنتم؟ قلنا: قوم ضالون عن الطريق، أتيناكم فأنسنا بكم فقالت: يا هؤلاء
ولو وجوهكم عني حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل، ففعلنا، فألقت
لنا مسحاً فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني، ثم جلست ترفع طرف
الخيمة وتردها إلى أن رفعتها فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير
ابني، وأما الراكب فليس بابني، فوقف الراكب عليها، فقال: يا أم عقيل،
أعظم الله أجرك في عقيل، قالت: ويحك مات ابني؟ قال: نعم قالت: وما
سبب موته؟ قال: ازدحمت الأبل فرمت به في البئر، فقالت: انزل فاقض
ذمام القوم، ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه وقرب إلينا الطعام فجعلنا
نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقد تكورت فقالت:
يا هؤلاء: هل منكم من أحد يُحسن من كتاب الله شيئاً؟ قلت نعم، قالت:
اقرأ علي من كتاب الله آيات أتغزى بها، قلت يقول الله - عز وجل - في
كتابه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾
[البقرة: ١٥٥ - ١٥٧] قالت: الله إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: الله إنها لفي
كتاب الله هكذا، قالت: السلام عليكم، ثم صفت قدميها وصلت ركعات
ثم قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون» عند الله أحسب عقيلاً، تقول ذلك
ثلاثاً، اللهم إني فعلت ما أمرتني به فأنجز لي ما وعدتني^(١).

(١) تسلية أهل المصائب ١٩٤.

وعن مسلم بن يسار قال: قدمت البحرين، فأضافتني امرأة لها بنون ورقيق ومال ويسار فكننت أراها محزونة، فلما خرجت من عندها قلت لها ألك حاجة؟ قالت: نعم. إن أنت قدمت بلدتنا هذه أن تنزل علي، فغبت عنها كذا وكذا سنة، ثم أتيتها فلم أرببها أنيساً، فاستأذنت عليها فإذا هي ضاحكة مسرورة، قلت لها ما شأنك؟ قالت: إنك لما غبت عنا لم نرسل في البحر شيئاً إلا غرق، ولا في البر شيئاً إلا عطب، وذهب الرقيق ومات البنون، فقلت لها: يرحمك الله رأيتك محزونة في ذلك اليوم ومسرورة في هذا اليوم؟ فقالت: نعم إني لما كنت فيه من سيئة الدنيا خشيت أن يكون الله قد عجل حسناتي في الدنيا، فلما ذهب مالي وولدي ورققي رجوت أن يكون الله قد ادخر لي عنده خيراً ففرحت^(١).

اعلم - أخي الكريم - أن الرضا بالمصائب أشق على النفوس من الصبر، وقد تنازع العلماء والمشايخ في الرضا بالقضاء هل هو واجب أو مستحب، على قولين فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، فالعبد قد يصبر على المصيبة ولا يرضى بها، فالرضا أعلى من مقام الصبر، لكن الصبر اتفقوا على وجوبه والرضا اختلفوا في وجوبه، والشكر أعلى من مقام الرضا، فإنه يشهد المصيبة نعمة، فيشكر المبتلى عليها قال عبدالواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا وسراج العابدين^(٢).

فعليك - أخي - بالشكر لما قضى والرضا بما جرى والصبر على ما كان . .

(١) تنبيه الغافلين ١٣٤.

(٢) تسلية أهل المصائب ٢٠٨.

فإن للبلايا مهما طالَّت نهايات مقدرة عند الله - عز وجل - .
وتأمل في قول الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] . فإن في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحجوب، والمحجوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن من أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعملها العبد، **وأوجب له ذلك أموراً:**

منها: أنه لا أنفع له منها مثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خيرٌ لها وأنفع، ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة .

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله مالم يسأل به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً . بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك .

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له، أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه .

ومنها: أنه يريجه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى، ومع

هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله، أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، «وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه، ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتتفه في المقدور العطف عليه واللفظ به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره»^(١).

أخي الحبيب:

في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أصاب عبداً هم ولا حزنٌ فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرحاً، قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلمهن؟ قال: بلى.. ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن».

* سئل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: عمن يتسخط إذا نزلت به مصيبة؟

فأجاب بقوله: الناس حال المصيبة على مراتب أربع:

المرتبة الأولى: التسخط وهو على أنواع:

النوع الأول: أن يكون بالقلب كأن يتسخط على ربه يغتاظ مما قدره الله عليه، فهذا حرام، وقد يؤدي إلى الكفر قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِ اللَّهُ

(١) الفوائد بإختصار ١٧٩.

عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ﴿[الحج: ١١]﴾.

النوع الثاني: أن يكون التسخط باللسان كالدعاء بالويل والشبور وما
أشبه ذلك، وهو حرام.

النوع الثالث: أن يكون التسخط بالجوارح كلطم الخدود، وشق
الجيوب، وتنف الشعور وما أشبه ذلك وكل هذا حرام مناف للصبر
الواجب.

المرتبة الثانية:

الصبر: وهو كما قال الشاعر:

والصبرُ مثل اسمه مر مذاقته

لكن عواقبه أحلى من العسل

فيرى أن هذا الشيء ثقيل عليه لكنه يتحملة، وهو يكره وقوعه ولكن
يحميه من السخط، فليس وقوعه وعدمه سواء عنده، وهذا واجب لأن الله
تعالى أمر بالصبر فقال: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿[الأنفال: ٤٦]﴾.

المرتبة الثالثة:

الرضا: بأن يرضى الإنسان بالمصيبة بحيث يكون وجودها وعدمها سواء
فلا يشق عليه وجودها، ولا يتحمل لها حملاً ثقيلاً، وهذه مستحبة وليست
بواجبة على القول الراجح، والفرق بينها وبين المرتبة التي قبلها ظاهر لأن
المصيبة وعدمها سواء في الرضا عند هذا، أما التي قبلها فالمصيبة صعبة
عليه لكن صبر عليه.

المرتبة الرابعة:

الشكر: وهو أعلى المراتب، وذلك بأن يشكر الله على ما أصابه من

مصيبة حيث عرف أن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته قال ﷺ: «مامن مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها حتى الشوكة يشاكها»^(١).

أخي الحبيب:

إن كانت الدنيا أطلقت سهامها وسلت سيوفها . . فإننا رضينا بقضاء الله وقدره نشكره على قضائه ونصبر على طاعته، فهو صاحب الإحسان الجزيل والعطاء الكثير . . ﴿ إِنَّمَا يُؤَوِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

جعلني الله وإياك من الشاكرين الراضين الصابرين المحتسبين . . وجمعني وإياك في جنات عرضها السموات والأرض فيها السعادة بلا شقاء والحياة بلا موت والنعيم بلا زوال .

وجعلني الله وإياكم من الصابرين ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [١٥٦] أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿ [١٥٧] ﴾ [البقرة: ١٥٦ - ١٥٧].

* * *

المصادر

- ١ - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية ط ١، ١٤٠٦هـ.
- ٢ - أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.
- ٣ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - ابن قيم الجوزية - مكتبة الرياض الحديثة.
- ٤ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.
- ٥ - تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.
- ٦ - تاريخ عمر لابن الجوزي تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.
- ٧ - تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠هـ.
- ٨ - تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبدالله محمد بن المنبجي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٦هـ.
- ٩ - تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ.
- ١٠ - الثبات عند الممات لابن الجوزي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ط ١، ١٤٠٦هـ.
- ١١ - جامع العلوم والحكم - ابن رجب الحنبلي - مكتبة طيبة.

- ١٢ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
- ١٣ - ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت ١٤٠٠هـ.
- ١٤ - ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.
- ١٥ - كتاب الزهد لأبي عبد الله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٦هـ.
- ١٦ - سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وحسين الأسد مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.
- ١٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث.
- ١٨ - شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي دار الكتب العلمية ط ١، ١٤٠٤هـ.
- ١٩ - كتاب الشكر لابن أبي الدنيا. ط ٣، ١٤٠٥هـ.
- ٢٠ - الصبر وأثره في حياة المسلم، عبد الله بن جار الله آل جار الله، دار الضمعي ط ١ - ١٤١٣هـ.
- ٢١ - صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.
- ٢٢ - صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٤٠٧هـ.
- ٢٣ - طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى مطبعة السنة المحمدية.
- ٢٤ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية تحقيق محمد عثمان دار الكتاب العربي ط ٢، ١٤٠٦هـ.

- ٢٥ - فتاوى ابن تيمية جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد تصوير ط ١ - ١٣٩٨ هـ دار العربية بيروت .
- ٢٦ - الفوائد لابن القيم، دار النفائس .
- ٢٧ - مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين - جمع فهد السليمان، دار الوطن ١٤١٣ هـ .
- ٢٨ - مختصر منهاج القاصدين تأليف الإمام أحمد عبدالرحمن بن قدامة المقدسي تحقيق زهير الشاويش المكتب الإسلامي ط ٧، ١٤٠٦ هـ .
- ٢٩ - مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية - مكتبة الرياض الحديثة .
- ٣٠ - مكاشفة الصدور المقرب لحضرة علام الغيوب للإمام الغزالي - دار إحياء العلوم .
- ٣١ - مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط ١، ١٤٠٣ هـ .
- ٣٢ - موارد الظمان لدروس الزمان، عبدالعزيز السلطان، ط ١٣، ١٤٠٣ هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
لحظات ساكنة	
مقدمة الطبعة الثانية
مقدمة الطبعة الأولى
الوقفة الأولى: الموت
الوقفة الثانية: الاحتضار
الوقفة الثالثة: الجنازة
الوقفة الرابعة: القبر
الوقفة الخامسة: التعزية
المصادر
والثمن الجنة	
المقدمة
الصلاة
الحنين إلى الصلاة
الصلاة مع الجماعة
الوقوف بين يدي الله
سنة الضحى
خشوع السلف
مراتب الناس في الصلاة

..... حكم تارك الصلاة
..... المصادر

أولئك الأخيار

..... المقدمة قيام الليل
..... مكابدة الليل
..... الاستعداد لقيام الليل
..... حال العابدين في الليل
..... الأسباب المانعة من قي امالليل
..... الشباب وقيام الليل
..... ليس ذاك بجذع من علامات الشقاء
..... الأسرة الصالحة
..... الجارية
..... إياك والغفلة
..... لذات الدنيا
..... الأسباب التي تعين على قيام الليل
..... هديه ﷺ في قيام الليل
..... المصادر

اصبر واحتسب

..... المقدمة
..... الصبر
..... حقيقة الصبر
..... أقسام الصبر

- علاج المصائب
- آداب الصبر
- الجزع لا يرد مصيبة
- مكانة الصبر
- من كمال الصبر
- السعادة في طاعة الله
- حسن التوفيق
- التجزع من المصائب
- مما يسلي أهل المصائب
- العاقبة للمتقين
- ثواب الشدة
- ثواب الصابرين
- نعمة الصبر
- مراتب الناس حال المصائب